محمد مهدي شمس الدين

حركة التاريخ عند الإمام علي (ع)

دراسة في نهج البلاغة

حركة التاريخ
عند الإمام علي (ع)

الطبعة الاولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف : ٨٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف: ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص.ب: ١١٣/٦٣١١ تلكس: LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

« أي بني . إني وإن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمالهم ، وفكّرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى عدت كأحدهم ، بل كأني بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمّرت مع أولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره . . . » .

من وصيّة الامام علي (ع) الى ولده
الامام الحسن (ع)
رقم النص (٣١) - باب الكتب

مقدمة

التاريخ هو حركة الشيء في محيطه خلال الزمـان ، وبعبـارة اخـرى : التاريخ هو عملية التحوّل والتغيّـر والانتقال (الصيرورة) من حالة الى حالة التي تعتري الشيء أو ينجزهـا الشيء من خلال علاقتـه بعنـاصر محيطـه عبـر الزمان .

وقد كان الشيء في النظرة السائدة قديماً يعني الانسان فقط ، ويعنـي ـ بصـورة محـدّدة ـ الفعـاليات الانســانية : المجتمـع والمؤ سســات السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية .

لقد كان التاريخ علم حركة الانسان من خلال محيطه في الزمان ، ولكن العصر الحديث شهد تطوراً في مدلول هذا المصطلح فاتّسع ليشمل كل شيء في الطبيعة والحضارة : الأرض ، والمعادن ، والنباتات ، والحيوان ، والافكار ، والعلوم . . . وغير ذلك الى جانب الفعاليات الانسانية ، وغدا في وسع المؤ رخ ذي النظرة الشاملة أن يدعي أن التاريخ كالفلسفة ذا موضوع شامـل لكل ما يمكن ان يدخل في الوعي البشري .

ولعلّ بعض المؤ رخين المسلمين العظام كانوا قد انتهوا في تفكيرهـم الى حافـة هذه النظـرة التـي تعطـي التـاريخ مفهومـاً شامـلاً يتجـاوز الفعـاليات الانسانية ، فنلاحظ أنهم أدخلوا في كتاباتهم التاريخيّـة معلومـات جغـرافية أو فلسفية ، والمسعودي في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » مثال بارز على ذلك .

ولكن هذه النظرة الشمولية لا تعنينا هنا . ان عنايتنا موجهة نحو تاريخ الانسان . وربما أمكن ردّ كل فروع التاريخ الأخرى ـ في النظرة الشمولية الحديثة ـ الى تاريخ الانسان ، من حيث أنها تؤ رخ لبعض نشاطاته (تاريخ العلوم ، الفنون والآداب ، الفلسفة) أو تؤ رخ لبيئته (النبات ، الحيوان ، طبقات الأرض) .

واذن ، فالتاريخ هو حركة الانسان في محيطه خلال الزمان ، وقد يعالج التاريخ حركة الانسان في مجتمع معين أو في أطار ثقافة معيّنة ، وقد يتّسع ليعالج حركة الانسان على صعيد عالمي .

ولا شك في أن فكرة « العالمية » لدى المؤ رخين المسلمين قد جاءتهم من القرآن الكريم حيث صور حركة الانسانية من خلال عرضه لحركة النزوات في الأمم والشعوب ، كما أنهم استفادوا في تعزيز نظرتهم العالمية من « علم الأنساب » الذي تحدّر اليهم من التقليد الجاهلي القديم ، ثم دخل ـ كغيره من المعارف العربية والاسلامية ـ عصر التدوين . وليس المهمّ هنا جانب الصدق التاريخي في علم الانساب ، وهو امر مشكوك فيه ، وانّما المهم ما تعطيه المعرفة النسبية من ادراك لترابط الشعوب والقبائل وعلاقاتها الداخلية ، هذا الادراك الذي يتجاوز بالمؤ رخ حدود الجغرافيا والقبلية أو القومية ليفتح بصيرته على مدى أرحب .

***

على هذا المدى الرحب كان الامام علي بن أبي طالب عليه السلام يتعامل مع التاريخ ، لا كمؤ رخ وانّما باعتباره رجل عقيدة ورسالة ، ورجل دولة وحاكماً . ولم يكن يستخدم التاريخ كمادة وعظية فقط وانّما كان يستهدف أيضاً منه النقد السياسي والتربية السياسية لمجتمعه والتوجيه الحضاري لهذا المجتمع .

ونحاول في هذا الكتاب أن نجلو نظرة الامام علي (ع) الى حركة

التاريخ ، ونكتشف أساليب تعامله مع التاريخ في حياته العامة الفكرية والسياسية .

والمصدر الأساس لهذه الدراسات هو كتاب نهج البلاغة ، وربما استعنا بنصوص أخرى لم يضمّنها الشريف الرضي في كتاب نهج البلاغة للتعرّف على مزيد من التفاصيل بالنسبة الى نظرة الامام التاريخيّة أو لاكمال نصوص أوردها الشريف الرضي في نهج البلاغة مبتورة .

ونحن نرى أن كتاب نهج البلاغة وثيقة عظيمة القيمة في الحضارة الاسلامية من الناحية الفكرية والسياسية . ولا ينقضي أسفنا على أن الشريف الرضي رحمه الله قد جمع النصوص لغاية جمالية تحكمت في اختياره فجعلته يؤثر النصوص الممتازة من النواحي البلاغية الفنيّة ويهمل ما عداها وقد يجزىء ـ لهذا السبب ـ من النص بعضه الذي تتوفّر فيه هذه الخاصة ويهمل سائره ، وهذا ما دعاه الى أن يعطي كتابه اسماً يلخص الغاية من جمعه له والمنهاج الذي اتبعه في عملية الجمع فضاع على الحضارة الاسلامية بذلك علم كثير وفكر عظيم .

ولعلّ الله تعالى يُقيّضُ من العلماء والباحثين من يتقصّى في كتب السيرة والتاريخ والحديث والأدب جميع ما رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليه السلام ويخضعه لدراسة نقدية صارمة تميّز الاصيل فيه من المنحول والموضوع ويصنف ما يثبت للنقد منه مع ما ورد في نهج البلاغة للشريف الرضي رحمه الله تعالى تصنيفاً علمياً حسب موضوعات النصوص (في السياسة ، والفكر ، والوعظ ، والحرب ، والفقه ، والالهيات وسائر العقائد . . . وغير ذلك من الموضوعات) فذلك يجعل نهج البلاغة ومستدركه مصدراً ميسراً للدراسات العلمية عظيم القيمة جليل الفائدة .

وقد قام المرحوم الشيخ هادي كاشف الغطاء بتأليف كتاب (مستدرك نهج البلاغة) ورتّبه على نحو ما رتّب الشريف الرضي كتاب نهج البلاغة (الخطب ، والكتب ، والحكم) ولكن هذا العمل دون ما نطمح اليه لسببين :

الأول ـ ما نقدر من أن هذا الكتاب لم يستوعب كلّ ما أهمله الشريف أو شذّ عنه ، ولذا فان الحاجة الى عمل اكثر شمولا لا تزال قائمة . الثاني ـ ما يبدو لنا من أن كاشف الغطاء اثبت في كتابه كلما وجده منسوباً الى الامام ولم يخضع النصوص للنقد ، وهذا ما جعله يثبت في كتابه نصوصاً منسوبة الى الامام نقدر أنها موضوعة .

وهنا نجد من المناسب الاشارة الى أن اللغط الذي أثير حول صحة نسبة ما جمعه السيد الشريف في نهج البلاغة الى الامام علي (ع) بوجه عام منذ ابن خلدون الى زكي مبارك وأحمد أمين ، من التشكيك في صحة النسبة أو الجزم بعدم صحة النسبة ـ هذا اللغط الذي أثاره التعصب في بعض الأحيان والجهل في أحيان كثيرة قد انتهى أو يجب ان ينتهي الى التسليم بصحة النسبة التاريخيّة لما ورد في نهج البلاغة بوجه عام الى الامام عليه السلام ، فان الدراسات والأبحاث التوثيقية التي عقدت حول نهج البلاغة منذ شارح نهج البلاغة عز الدين ابن ابي الحديد (؟ ـ ٦٥٦ هـ ؟) الى أيامنا قدّمت اجوبة مقنعة على جميع التساؤلات التي أثيرت وأغلقت منافذ الشك في صحة نسبة ما اشتمل عليه نهج البلاغة الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بالقدر الذي يكفي لتصحيح النسبة التاريخية لأيّ نص من نصوص الفكر الاسلامي .

وهذه الأبحاث والدراسات على قسمين :

منها ما اتبع منهاج النقد الداخلي حيث أخضعت النصوص لدراسة تكوين الجمل فيها والعلاقات بين جملة وأخرى ، وأنواع المفردات والمجازات وما الى ذلك من مكوّنات النص . وهذا ما صنعه ابن أبي الحديد في عدة مواضع من شرحه ، وبعض من تأخر عنه من الشرّاح والباحثين . وهذا النوع من الأبحاث قليل ومقصور على بعض نصوص النهج ، ولذا فإن الحاجة ماسّة الى دراسة شاملة لجميع نصوص نهج البلاغة تتبع هذا المنهاج .

ومنها ما اتّبع منهاج النقد الخارجي حيث بحث عن مصادر متقدّمة في الزمن على الشريف الرضي تضمّنت نصوصاً من نهج البلاغة .

وقد كانت نتائج هذه الدراسات وتلك في مصلحة صحة نسبة نهج البلاغة بوجه عام الى الامام عليه السلام .

ولعلّ آخر دراسة توثيقية هامّة وشاملة اتبّع فيها منهاج النقد الخارجي هي دراسة الأستاذ السيد عبد الزهراء الخطيب التي نشرها في كتابه (مصادر نهج البلاغة واسانيده ـ ٤ مجلدات / دار الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت) .

ومن المؤكّد أن هذه الدراسة لن تكون الأخيرة ، فان دراسات أخرى ستضاف الى ما تمّ انجازه في هذا الحقل كلّما تنامت حركة نشر كتب الفكر الاسلامي التي لا تزال مخطوطة وموزعة في مكتبات العالم .

***

بقي عليّ أن أشير الى أن هذه الدراسة عن حركة التاريخ عند الامام علي (ع) حلقة في سلسلة من الدراسات في نهج البلاغة سبقها كتابنا (دراسات في نهج البلاغة) [1] وقد اشتمل على اربع دراسات هي :

١ ـ المجتمع والطبقات الاجتماعية .
٢ ـ الحكم والحاكم .
٣ ـ المغيبات .
٤ ـ الوعظ ، وأضيفت اليها في الطبعة الثالثة دراسة خامسة بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأكثرية الصامتة .

***

لقد انتفعت بكتاب (الكاشف عن ألفاظ البلاغة في شروحه) لمؤلفه : السيد جواد المصطفوي الخراساني . وهو عمل جليل القدر ، عظيم الفائدة

---

(١) دراسات في نهج البلاغة : الطبعة الأولى ـ النجف ـ العراق ـ ١٩٥٦ ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ دار الزهراء ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م الطبعة الثالثة . بيروت .

للباحثين . نأمل أن يطوِّره مؤلفه بحيث يكون اكثر شمولاً للشروح في طبعاتها الجديدة المتداولة ، وللنصوص الواردة في مستدركات نهج البلاغة .

والحمد لله رب العالمين .

محمد مهدي شمس الدين

التاريخ وحركة التقدم البشري
ونظرة الاسلام

التاريخ وحركة التقدّم البشري
ونظرة الاسلام

التاريخ حركة الكائن في الزمان والمكان .

والكائن جماد ، ونبات ، وحيوان ، وانسان .

وتاريخ كلّ من الجماد والنبات والحيوان يسير وفق قوانين ثابتة ، وموضوعة خارج هذه العوالم .

ان الجماد لم يضع قوانين حركته ، ومن ثم فانه لم يضع قوانين تاريخه ، وكذلك النبات والحيوان .

ان هذه العوالم الثلاثة خاضعة في جميع حالات وجودها لمبدأ الضرورة ، ومن ثمّ فتاريخها من جميع وجوهه خاضع لمبدأ الضرورة ، انه حصيلة حركتها الضرورية في الزمان والمكان ، ومن ثمّ فـ (الخطأ) غير وارد في تاريخ هذه العوالم . انها لا تصنع تاريخها ولذا فهي لا تقع في أخطاء العمل .

أمّا تاريخ الانسان فشيء آخر .

ان الانسان يتعامل مع الكون على أساس مبدأ الاختيار لأنه كائن حرّ لا يخضع لمبدأ الضرورة الاّ في نطاق العمليات البيولوجية في جسمه ، ومن ثمّ فانه يشارك في وضع قوانين حركته في الزمان والمكان ، فان الانسان يكيّف نفسه لتنسجم مع الطبيعة حين يعجز عن تكيف الطبيعة لتنسجم معه .

والانسان يحب ويبغض ، ويأمل وييأس ، ويتألم ويحلم ، والانسان

يخاف . . . يخاف من المجهول ، ويخاف من المستقبل . . . والانسان ، قبل كل شيء وبعد كل شيء ، يفكر : يحلّل المواقف والمشكلات التي تواجهه ، ويركبها ، ويوازن بين احتمالاتها ، ويرجّح ويختار ، ويتحرك وفقاً لاختياره ، فهو اذن يستجيب في حركته لعالمه الخارجي ولعالمه الداخلي من موقع الاختيار باعتباره كائناً حراً لا من موقع الضرورة .

ومن هنا فان الخطأ في التحليل والتركيب والاختيار ، والرجوع الى الوراء في حركته ، وما يؤدي اليه ذلك من خيبات الأمل في خططه ومشاريعه ـ أمور حدثت للانسان دائماً في حركته التاريخيّة .

ولذا فان تاريخ الانسان كما هو سجل مشرق ومشرّف لانتصاراته وانجازاته في الطبيعة والمجتمع هو كذلك سجل كئيب حافل بأخطائه ، وانتكاسات حركته نحو المستقبل ، وخيبات أمله .

***

ومن اسوأ ما يمكن أن يقع فيه الانسان من أخطاء : حسبانه في كثير من الحالات أنه كان دائماً على صواب ، وأن تاريخه يمثل خطاً صاعداً باستمرار ، وأن حركته نحو المستقبل ـ لذلك ـ تقدّميّة دائماً ، خيرة دائماً ، صائبة دائماً ، لا يتخللها خطأ ولا انحراف .

ومثل ذلك في السوء حسبانه أن كل ماضيه خطأ وتخلف ، ومن ثمّ فهذا الماضي لا يستحق منه الالتفات والمراجعة ، وأنه اهتدى الى النظرة الصائبة في حاضره ، وأنه في حركته نحو المستقبل حليف الصواب والتوفيق باستمرار .

ان هذا الحسبان وذاك يحملان الانسان على ارتكاب مزيد من الأخطاء ، والوقوع في كثير من المآسي وخيبات الأمل .

ذلك بأن الانسان حين يخال حركة التاريخ دائماً على صواب فانه يلغي جميع المؤثرات الانسانية ، ويسلم نفسه لحركة التاريخ الانساني كما لو كان هذا التاريخ خاضعاً لمنطق الضرورة كتاريخ الجماد والنبات والحيوان . ومن ثم فانه

يرتكب الأخطاء الكبرى وهو يحسب انه على صواب ، ويصحح أخطائه باخطاء أخرى تسبب للانسانية مزيداً من التخلف على كل صعيد ، ومزيداً من المآسي الفردية والجماعيّة .

وكذلك الحال حين يحكم الانسان على ماضيه بأنه مجموعة أخطاء قاد أسلافه اليها الجهل وسوء الفهم وسوء التوجيه ، ولذا فلا شيء من هذا الماضي يصلح للحاضر وللمستقبل . وأنه كان ضالاً فاهتدى ، وأنه امتلك الحقيقة التاريخيّة وكانت ضائعة منه بسبب هذا الماضي الذي غلّه وشلّ قواه .

ان الانسان باتخاذه لهذا الموقف يحكم على جميع تجارب الماضي بالفشل والبطلان ، وهو حكم لا شك في أنه جائر عن قصد السبيل ، لأن الحقيقة هي أن في تجارب هذا الماضي الكثير الكثير من الصواب الذي تكبدت الانسانية أنواعاً شتى من الآلام والتضحيات وتحملت كثيراً من المصاعب في سبيل الوصول اليه والاهتداء الى معالمه .

كِلاَ هذين الموقفين يؤدّي بالانسان الى أن ينظر الى نفسه وعقله في حاضره ومؤسساته السياسية وغيرها وسائر نظمه بثقة مطلقة لا مبرّر لها . ولنقل انه في هذه الحالة التي يرفض فيها جميع الماضي أو في تلك الحالة التي يخال فيها حركة التاريخ دائماً على صواب - ينظر الى نفسه وموقفه بغرور أجوف ولعلّ هؤلاء وأولئك ممن عناهم الله تعالى بقوله :

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ [1] .

(١) سورة الكهف (رقم ١٨ مكيّة) الآيات : ١٠٣ - ١٠٦ . والآيات تومىء الى النظرة التي تعتبر حركة التاريخ خاضعة للاعتبارات المادية وحدها ، والنظرة التي تقيس التقدم البشري بالمقياس المادي وحده .

. انّ هذا الغرور الأجوف ، وتلك الثقة المطلقة التي لا مبرّر لها تؤديان بالانسان الى الوقوع في اخطاء كبرى تعرض المجتمعات بل وجانباً كبيراً من الانسانية لكوارث عظمى ومتنوعة لم يعرف لها التاريخ مثيلا .

وهذا ما وقع فيه انسان الحضارة الحديثة ، والويل له مما صنعت يداه في المقبلات من الأيام .

***

وقد ولّدت هاتان النظرتان المتطرفتان الى التاريخ والى المستقبل مفهوماً للتقدم البشري غير متكامل ومن ثم دفع بالانسان الى ارتكاب المزيد من الأخطاء الكبرى في شأن نفسه وفي شأن عالمه .

لقد اعتبر التقدم في الحضارة الحديثة بالمقياس المادي وحده . فيقاس التقدم في أي مجتمع وفي ظل أي نظام سياسي بحجم الانتاج والاستهلاك بالنسبة الى أشياء الحياة المادية : الطعام ، والملابس والمساكن وأدوات الزينة ، ووسائل النقل والطاقة والطرق ، ووسائل اللهو ووسائل تيسير الحياة اليومية المنزلية وغيرها ، والمصانع والأسلحة وما الى ذلك من أشياء ، يضاف الى ذلك المؤسسات الحكومية والأهلية التي تنظم كل هذه العمليات .

ولا يقيم هذا المفهوم عن التقدم البشري وزناً لوضعية الانسان الأخلاقية وللقيم التي ينبغي أن توجّه سلوكه مع الطبيعة المادية ، والعالم ، والمجتمع ، والأسرة .

وهذا المفهوم هو الدليل الذي يوجّه افكار وخطط وعمليات المؤسسات الوطنية والدولية المعنية بقضايا التنمية ، فالوكالات المتخصصة للأمم المتحدة ، والجامعات ، ومراكز الأبحاث الدولية والوطنية تعتبر حركة التقدم والنموّ بهذا المقياس .

وكانت عاقبة ذلك تقدماً مذهلاً في مجال الماديات . . . تقدّماً تجاوز اكثر الأحلام جموحاً في بداية النهضة الصناعية الحديثة . ولكنه تقدم ترافق مع تأخر

مأساوي في مجال المعنويات بدأت بعض البصائر المستقبلية في العالم الغربي (والشرقي ؟؟) تكتشفه وتعي خطورته ، وتحذر من عواقبه الوخيمة .

وعلى ضوء هذا المفهوم للتقدم قسم الجنس البشري في الخمسينات من هذا القرن الميلادي الى عوالم ثلاثة :

العالم الأول : (امريكا الشمالية ، واوربا الغربية ، واليابان) بلغ أعلى مستوى عرفه الانسان في التقدّم المادي والتنظيم .

العالم الثاني - (الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية ، والصين «أخيراً») يلي العالم الأول في الرتبة من هذه الحيثية ويجهد للحاق به في شتّى الميادين .

العالم الثالث - (آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية) ، ويسمى هذا القسم من البشرية (العالم المتخلّف أو العالم النامي) .

وهكذا يحمل العالم الثالث وصمة التخلّف وفقاً لهذا المفهوم ، وفقاً لمقاييس التقدّم المبنية على هذا المفهوم - هذه المقاييس التي فرضها فكر الحضارة الحديثة وسطوتها اندفعت شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في تيّار هذه النظرة الى معنى التقدّم البشري لتحقق لنفسها اللحاق بالعالم الأول الذي يحول بينها وبين ذلك مستغلاً تفوّقه الهائل وضعفها الكبير في نهب ثرواتها وبلبلة حياتها السياسية ، ولكنها في سبيل التخلص من وصمة التخلّف العالقة بها وفقاً لهذا المفهوم تمضي قُدماً فيما تحسب أنه يضعها على طريق التقدم مضحية في سبيل ذلك بالكثير من قيمها واخلاقها متخلية عن أصالتها ، طامحة الى أن يكون انسانها نسخة دقيقة من انسان العالم الأول .

***

ولكن هذا المفهوم عن التقدّم البشري ناقص ومبتور لأنه يمثل جانباً واحداً من الوضعية الانسانية ، وقد كان من اكبر الأخطاء الفكرية التي وقع فيها انسان الحضارة الحديثة نتيجة لخطأ نظرته الى التاريخ والى المستقبل ، فان الوضعية الأخلاقية للانسان ذات صلة وثيقة وأساسية بكونه متقدماً أو متخلفاً . وهذه

حقيقة وجدت سبيلها أخيراً الى الادراك في داخل الحضارة الحديثة ، وهذا ، على الرغم من انه لا يزال في نطاق ضيّق نسبياً ، باعث على الأمل .

لقد بدأت ترتفع ، هنا وهناك ، داخل الحضارة الحديثة ، أصوات بعض ذوي العقول النيّرة والبصائر النافذة من النخبة في العالم العربي من علماء وشعراء ومفكرين محذرة من الانسياق وراء هذه النظرة الخاطئة ، محذرة من عواقبها المهلكة ، داعية الى اعتماد نظرة أخرى تقيم التوازن في السعي نحو التقدّم بين حاجات الانسان الروحية ووضعيته الأخلاقية من جهة وبين حاجاته وطموحاته المادية من جهة أخرى ، منذرين بأن استمرار الحضارة في ماديتها الخالصة سيؤدي الى خرابها ودمار الانسانية أو جانب كبير منها .

ان نظرة هؤلاء المستقبليين من ذوي العقول النيّرة في العالم العربي (والشرقي ؟) قريبة من نظرة الاسلام الى مسألة التقدّم والتخلّف مع تأكيدنا على وجود اختلافات جمّة تعود الى تفاصيل النظرة والى الوسائل والاساليب .

فالاسلام ـ ممثلاً بالقرآن الكريم ، والسنّة الشريفة ، والفقه ـ اذ يدفع بالانسان نحو المستقبل الأفضل من حاضره وماضيه ، يركّز على أن هذه الأفضلية تقوم على مقياس مركب يعطي لكل واحد من المادة والمعنى دوراً حاسماً وأساساً في انجاز التقدم المتكامل المعافى ، فلا بدّ أن تحقق حركة الانسان في الزمان والمكان تقدّماً وتكاملاً على صعيد المادة وعلى صعيد الوضعية الأخلاقية والصفات الانسانية لتكون حركته تقدميّة .

قال الله تعالى :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبتغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين ﴾ [1] .

---

(١) سورة القصص (مكيّة) الآية : ٧٧ .

وقال تعالى :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون . قل : انما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم ، والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (1) .

أمّا تحقيق التقدم المادي وحده مع اهمال العناية بالوضعية الأخلاقية والمعنوية للانسانية أو مع التضحية بها فانه يقصر العناية على الوضعية الأخلاقية والروحية مع اهمال شؤون التقدم المادي ـ كلاهما لا يمثلان النظرة المتوازنة التي يجب أن تقوم عليها حركة الانسان التاريخية وتبنى على هديها مؤسسات الحضارة . ان كل واحد من الاتجاهين يمثّل انحرافاً معيناً لا يخدم الانسانية ولا يبني الحضارة .

اننا ـ وفقاً لهذه النظرة المتوازنة ـ كما نعتبر النقص في انتاج السلع والخدمات المادية بدرجة تكفي اكبر عدد من الناس وتحقق لهم الرفاهية واللذة ـ كما نعتبر هذا النقص وما يتصل به تخلفاً كذلك نعتبر من أسوأ مظاهر التخلّف : تزايد الجرائم في المجتمع بشتى انواعها ، وتصدع الأسرة ، وجفاف العلاقات الانسانية النظيفة ، ونمو روح الحرب والعدوان داخل المجتمعات وبين الجماعات القومية والوطنية ، وهوان الحياة البشرية عندما تكون خارج الأطار القومي والعنصري للمعتدي . . . وغير ذلك من مظاهر فساد الوضعية الأخلاقية للانسان فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولة .

---

(1) سورة الأعراف (مكيّة) الآيات : ٣١ ـ ٣٣ .

ووفقاً لهذه النظرة المتوازنة يكون من الخطأ تقسيم عالم اليوم الى عالم متقدم وعالم متخلف . ان عالم اليوم كله ـ وفقاً لهذه النظرة ـ متخلّف ، فانه اذا كان العالم الثالث متخلّفاً على مستوى المادة وأساليب التنظيم والادارة ، فان العالم الآخر متخلّف من حيث الوضعية الأخلاقية والعلاقات الانسانية والصفات الانسانية في أفراده وجماعاته ومجتمعاته .

وسنرى ، خلال هذا البحث ، أن منطلق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في فهمه للتاريخ وحركة الانسان في الحاضر نحو المستقبل هو هذه النظرة المتوازنة التي اشتمل عليها الاسلام ، وعبّر عنها القرآن الكريم ، والسنّة الشريفة ، والفقه المستمد منهما المبني عليهما .

الامام في مواجهة التاريخ

الامام في مواجهة التاريخ

كان أمير المؤمنين علي عليه السلام ، كما يخبرنا هو ، وكما سنرى خلال هذه الدراسة يوجِّه عناية فائقة الى التاريخ ، عناية جعلت من التاريخ عنصراً بارزاً فيما وصل الينا من كلامه في مختلف الموضوعات التي كانت تثير اهتمامه .

وعناية الامام بالتاريخ ليست عناية القاصّ والباحث عن القصص . كما أنها ليست عناية السياسي الباحث عن الحيل السياسية وأساليب التمويه التي يعالج بها تذمر الشعب ، وانّما هي عناية رجل الرسالة والعقيدة ، والقائد الحضاري والمفكر المستقبلي .

ان القاصّ يبحث ليجد في تاريخ الماضين وآثارهم مادة للتسلية والاثارة . والسياسي يبحث ليجد في التاريخ اساليب يستعين بها في عمله السياسي اليومي في مواجهة المآزق ، أو يستعين بها في وضع الخطط الآنية المحدودة (١) .

---

(١) قال المسعودي في تقريره عن النشاط اليومي لمعاوية بن أبي سفيان « . . . ويستمرّ الى ثلث الليل في أخبار العرب وايامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها . وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة . . . ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمرّ بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والآثار وانواع السياسات . . . » ـ مروج الذهب (بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الثانية (١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م) الجزء الثالث / ص : ٤٠ ـ ٤١ .

والمؤ رخ يقدم لهذا وذاك المادة التاريخية التي يجدان فيها حاجتهما .

أمّا الرائد الحضاري ، رجل الرسالة والعقيدة ورجل الدولة فهو يبحث ليجد في التاريخ جذور المشكل الانساني ، ويتقصّى جهود الانسانية الدائبة في سبيل حلّ هذا المشكل بنحو يعزّز قدرة الانسان على التكامل الروحي ـ المادي ، كما يعزّز قدرته على تأمين قدر ما من السعادة مع الحفاظ على الطهارة الانسانية .

وقد كان الامام علي يتعامل مع التاريخ بهذه الروح ومن خلال هذه النظرة ، ومن ثم فلم يتوقف عند جزئيات الوقائع الاّ بمقدار ما تكون شواهداً ورموزاً ، وانّما تناول المسألة التاريخية بنظرة كليّة شاملة ، ومن هنا فقلّما نرى الامام في خطبه وكتبه يتحدث عن وقائع وحوادث جزئية ، وانّما يغلب على تناوله للمسألة التاريخية طابع الشمول والعمومية .

والامام ليس مؤ رخاً ، ولذا فليس من المتوقع أن نجد عنده نظرة المؤ رخ وأسلوبه في سرد الوقائع وتحليلها والحكم عليها ، وانّما هو رجل دولة حاكم ، ورجل عقيدة ورسالة وهبها كل حياته ، فهو يتعامل مع التاريخ باعتباره حركة تكوّن شخصية الانسان الحاضرة والمستقبلة ، ولذا فهي تشغل حيّزاً هاماً وعلى درجة كبيرة من الخطورة في عملية التربية والتحرك السياسي ، وهذا ما يجعل رجل رسالة وحاكماً كالامام علي عليه السلام حريصاً على أن يدخل في وعي أمته التي يحمل مسؤ ولية قيادتها ومصيرها نظرة الى التاريخ سليمة تجعله قوة بانية لا مخرّبة ولا محرّفة .

***

ونحن نعرف عناية الامام علي (ع) الفائقة بالتاريخ واهتمامه البالغ بشأنه من نص ورد في وصيته التي وجهها الى ابنه الامام الحسن عليهما السلام كتبها اليه بحاضرين [1] عند انصرافه من صفين ، قال فيه :

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة : ١٦/ ٥٢ ـ أمّا قوله « كتبها اليه بحاضرين » فالذي كنا نقرؤه قديما ، « كتبها اليه بالحاضرين » على صيغة التثنية ، يعني حاضر حلب وحاضر قنسرين ، وهي الأرباض =

« أي بني اني وان لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمالهم ، وفكّرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى عدت كأحدهم ، بل كأني بما انتهى الي من امورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره » .

وكان قبل ذلك قد وجّه الامام الحسن (ع) في هذه الوصية الى تعرّف التاريخ الماضي للعبرة والموعظة ، قال :

« أحي قلبك بالموعظة . . . واعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا ، وعما انتقلوا ، وأين حلوا ونزلوا . فانك تجدهم انتقلوا عن الأحبة ، وحلّوا دار الغربة ، وكأنك عن قريب قد صرت كأحدهم » .

وهذا النص يحملنا على الاعتقاد بأن الامام عليه السلام تحدّث كثيراً عن المسألة التاريخية في توجيهاته السياسية وتربيته الفكرية لمجتمعه ، ولرجال ادارته ، ولخواص أصحابه .

ولكن النصوص السياسية والفكرية التي اشتمل عليها نهج البلاغة ممّا يدخل فيه العنصر التاريخي قليلة جداً ، وان كانت النصوص الوعظية التي بنيت على الملاحظة التاريخية كثيرة نسبياً .

ولا نستطيع أن نفسّر نقص النصوص السياسية والفكرية - التاريخيّة الاّ بضياع هذه النصوص لنسيان الرواة أو لاهمال الشريف الرضي لما وصل اليه

= والضواحي المحيطة بهذه البلاد ، ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام ، ولم يفسروه ، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية ، ومنهم من يقول : بخناصرين يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها . وقد طلبت هذه الكلمة في الكتب المصنفة سيّما في البلاد والأرضين فلم أجدها ، ولعليّ اظفر بها فيما بعد فالحقها في هذا الموضع .

وقال الشيخ محمد عبده في شرحه : حاضرين : اسم بلدة بنواحي صفين .

منها ، لأنه جعل منهجه في تأليف كتاب نهج البلاغة : « اختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن الكتب ، ثم محاسن الحكم والأدب » [1] . وقد أدّى هذا المنهج بطبيعة الحال الى اهمال الكثير من النصوص السياسية والفكرية لأنه لم يكن في الذروة من الفصاحة والبلاغة .

ومن المؤكّد أن الكثير من كلام أمير المؤمنين في هذا الباب وغيره لم يصل الى الشريف الرضي كما اعترف هو بذلك في قوله :

« . . . ولا أدّعي ـ مع ذلك ـ أني أحيط باقطار جميع كلامه عليه السلام حتى لا يشذ عني منه شاذ ، ولا يندّ نادّ ، بل لا أبعد أن يكون القاصر عني فوق الواقع الي ، والحاصل في ربقتي دون الخارج من يدي » [2] .

***

وعلى أية حال فان سؤالاً هاماً يواجهنا هنا ، وهو :

من أين إستقى الامام معرفته التاريخيّة ؟

انه يقول عن نفسه : « . . . نظرت في أعمالهم ، وفكّرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم . . . » .

فما الوسيلة التي توصل بها الى معرفة أعمالهم لينظر فيها ، وكيف تسنّى له أن اطّلع على أخبارهم ليفكّر فيها ؟

نقدّر أن الأمام عليه السلام قد اعتمد في معرفته التاريخية على عدّة مصادر :

١ ـ القرآن الكريم :

يأتي القرآن الكريم في مقدّمة هذه المصادر التي استقى منها الامام معرفته التاريخيّة . وقد اشتمل القرآن على نصوص تاريخية كثيرة منبثة في تضاعيف السور تضمّنت أخبار الأمم القديمة وارتفاع شأنها ، وانحطاطها ، واندثار كثير

---

(١) و (٢) من مقدّمة الشريف الرضي لنهج البلاغة .

منهـا ، وذلك من خلال عرض القـرآن الـكريم لحـركة النبـوات في تاريخ البشرية ، وحكايته لكيفية استجابات الناس في كل أمـة وجيل لرسـالات الله تعالى التي بشّر بها الانبياء وسلام الله عليهم أجمعين .

وقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام أفضل الناس ـ بعد رسـول الله (ص) ـ معرفة بالقرآن من حيث الظاهـر والباطـن ، والمحـكم والمتشابـه ، والناسخ والمنسوخ ، والأهداف والمقاصد ، والأبعاد الحاضرة والمستقبلة ، وغير ذلك من شؤ ون القرآن . كانت معرفته بالقرآن شاملة مستوعبة لكل ما يتعلق بالقرآن من قريب أو بعيد . والتأثير القرآني شديد الوضوح في تفكير الامـام التاريخي من حيث المنهج ومن حيث المضمون ، كما هو شديد الوضوح في كل جوانب تفكيره الأخرى .

وقد حدّث الامام عن نفسه في هذا الشأن كاشفاً عن أنـه كان يلـحّ في مسائله لرسول الله (ص) في شأن القرآن من جميع وجوهه . قال : « والله ما نزلت آية الاّ وقد علمت فيـم أنزلت ، وأين أنزلت . أن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولسانا سؤ ولا » [1] .

وشهادات معاصريه له في هذا الشأن كثيرة جداً منها ما روي عن عبد الله ابن مسعود ، قال : « ان القرآن أنزل على سبعة أحرف ، ما منها حرف الا له ظهر وبطن ، وان عليّ ابن ابي طالب عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن » [2] .

٢ ـ التعليم الخاص :

التعليم الخاص الذي آثر به رسـول الله (ص) عليّاً مصـدر آخـر من مصادر معرفته التاريخيّـة وغيرها .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ قسم ٢ ص ١٠١ ، والمتقي الهندي : كنز العمال ٦/ ٣٩٦ ـ وقال : أخرجه ابن سعد وابن عساكر ، وقالوا (لسانا طلقا سؤ ولا) وابو نعيم : حلية الأولياء ١/ ٦٧ .

(٢) ابو نعيم : حلية الاولياء ١/ ٦٥ .

فقد استفاضت الروايات التي نقلها المحدثون ، وكتّاب السيرة ، والمؤرخون من المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم - استفاضت هذه الروايات - بل تواترت اجمالاً - بأن رسول الله صلىّ الله عليه وآله قد خص امير المؤمنين عليّا بجانب من العلم لم ير غيره من أهل بيته وأصحابه أهلاً له .

فمن ذلك ما قاله عبد الله بن عباس : « والله لقد أعطي علي بن أبي طالب (ع) تسعة أعشار العلم ، وأيم الله لقد شارككم في العشر العاشر » (١) .

وما روي عن رسول الله (ص) : « علي عيبة علمي » (٢) .

وما رواه أنس بن مالك ، قال : قيل يا رسول الله عمن نكتب العلم ؟ قال : « عن علي وسلمان » (٣) .

وقال الامام عليه السلام : « علّمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم كل باب يفتح ألف باب » (٤) .

وقد صرّح فيما وصل الينا من نصوص كلامه في نهج البلاغة بذلك في عدّة مناسبات ، فقال :

١ - « ... بل اندمجت (٥) على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشيه في الطوى (٦) البعيدة » (٧) .

٢ - « ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ... » (٨) .

---

(١) أسد الغابة ٤ /٢٢ والاستيعاب : ٢ /٤٦٢ .
(٢) كنز العمال ٦ /١٥٣ وفتح الغدير : ٤ /٤٥٦ .
(٣) تاريخ بغداد : ٤ /١٥٨ .
(٤) كنز العمال : ٦ /٣٩٢ .
(٥) اندمجت : انطويت ، كناية عن معرفته بأمور خاصة جداً .
(٦) الارشيه: جمع رشاء ، الحبل . والطوى جمع طوية وهي البئر .
(٧) نهج البلاغه - الخطبه رقم : ٥ .
(٨) نهج البلاغه - الخطبه رقم : ١٦ .

٣ ـ « . . . لو تعلمون ما أعلم مما طوى [١] عنكم عيبه إذاً لخرجتم الى الصّعدات [٢] تبكون من اعمالكم » [٣] .

٤ ـ « يا أخا كليب ، ليس هو بعلم غيب ، وانّما هو تعلم من ذي علم » [٤] .

واذا كانت بعض هذه النصوص ظاهرة في العلم بالغيبات (علم المستقبل) ، فان غيرها مطلق يشمل الماضي ، واذا كان الامام قد اطلع من رسول الله (ص) على بعض المعلومات المتعلقة بالمستقبل فمن المرجّح أنه قد اطلع منه على علم الماضي .

٣ ـ السنّة النبويّة :

اشتملت السنّة النبويّة على الكثير المتنوع من المادة التاريخيّة .

منه ما ورد في تفسير وشرح القرآن الكريم ، ومنه ما اشتمل اجمالاً أو تفصيلا على حكاية أحداث تاريخيّة لم ترد في القرآن اشارة اليها .

وقد كان أمير المؤمنين علي (ع) أعلم اهل البيت (ع) والصحابة قاطبة بما قاله رسول الله (ص) او فعله وأقرّه ، فقد عاش علي (ع) في بيت رسول الله (ص) منذ طفولته ، وبعث الرسول (ص) وعلي عنده ، وكان أول من آمن به ، ولم يفارقه منذ بعثته (ص) الى حين وفاته الاّ في تنفيذ المهمات التي كان يكلفه بها خارج المدينة وهي لم تستغرق الكثير من وقته ، ومن هنا ، من تفرغه الكامل لتلقي التوجيه النبوي ، ووعيه الكامل لما كان يتلقاه كان الامام أعلم الناس بسنّة رسول الله وكتاب الله .

---

(١) طوى : حجب علمه عنكم .

(٢) الصعدات : جمع صعيد . يريد : لذهبت عنكم الدعة والاستقرار في منازلكم وخرجتم منها ملقين على مصيركم .

(٣) نهج البلاغة ـ رقم الخطبة : ١١٤ .

(٤) نهج البلاغة ـ رقم الخطبة : ١٢٦ .

٤ ـ القراءة

فقدّر أن الامام عليّاً قد قرأ مدوّنات تاريخية باللغة العربية أو بغيرها من اللغات التي كانت متداولة في المنطقة التي شهدت نشاطه ، وخاصة بعد ان انتقل من الحجاز الى العراق واضطرّته مشكلات الحكم والفتن الى التنقل بين العراق وسوريا ، وإن كنا لا نعلم ما اذا كانت هذه المدوّنات قد دفعت اليه صدفة او انه بحث عن كتب كهذه وقرأها او قرأت له بلغاتها الاصلية مع ترجيحنا انه عليه السلام كان يعرف اللغة الادبية التي كانت سائدة في المنطقة العراقية السورية .

٥ ـ الآثار القديمة :

وربما كانت الاثار العمرانية للأمم القديمة من جملة مصادر المعرفة التاريخيّة عند الامام عليه السلام ، ويعزز هذا الظن بدرجة كبيرة قوله في النص الانف الذكر : « وسرت في آثارهم » مّما يحمل دلالة واضحة على ان مراده الاثار العمرانية .

وقد خبر الامام في حياته اربعة من أقطار الاسلام ، هي : شبه الجزيرة العربية ، واليمن ، والعراق ، وسوريا .

ونقدّر أنه قد زار الاثار الباقية من الحضارات القديمة في هذه البلاد ، واذا كان هذا قد حدث ـ ونحن نرجّح حدوثه ـ فمن المؤكّد ان الامام لم يزر هذه الاثار زيارة سائح ينشد التسلية الى جانب الثقافة ، أو زيارة عالم آثار يتوقف عند الجزئيات ، وانّما زارها زيارة معتبر مفكر يكمل معرفته النظرية بمصائر الشعوب والجماعات بمشاهدة بقايا وأطلال مدنها ومؤسساتها التي حلّ بها الخراب بعد أن انحطّ بناتها وفقدوا قدرتهم على الاستمرار فاندثروا .

هذه هي ، فيما نقدّر ، المصادر المعلومة والمظنونة والمحتملة التي استقى منها الامام علي (ع) معرفته التاريخيّة .

التاريخ عند الامام (ع)
في المجال الوعظي ، وفي المجال السياسي الفكري

التاريخ عند الامام (ع)
في المجال الوعظي، و في المجال السياسي الفكري

استخدم الامام عنصر التاريخ في مجالين، أحدهما مجال السياسة والفكر، وثانيهما مجال الوعظ.

وهنا يواجهنا سؤال هام:

لماذا يدخل الامام عنصر التاريخ في أحاديثه الوعظية، أو في أحاديثه وخطبه وكتبه السياسية والفكرية، او في غير ذلك من مجالات توجيهه كرجل رسالة وعقيدة وحاكم دولة؟ لماذا التاريخ؟

ونقول في الجواب على هذه المسألة التي تثير الشك حول جدوى التاريخ باعتباره مادة أساسية في البنية الثقافية للانسان والمجتمع أو باعتباره عاملا مساعداً في الأعمال الفكرية التي تتناسب مع مادة التاريخ... نقول في الجواب:

ان الحياة الانسانية لدى جميع الناس في جميع الأزمان والأوطان واحدة في أصولها العميقة، ومكوّناتها الأساسية، وحوافزها، فهي نهر متدفق من التجارب والآمال والانجازات وخيبات الأمل، وهذا ما يجعل الاسئلة التي تثيرها مشكلات الحاضر حافزاً نحو استرجاع الماضي باعتباره عملا مكمّلا وضرورياً في البحث الصحيح الموضوعي عن اجوبة اكثر سداداً وحكمة تؤدي الى حلول صائبة أو مقاربة للصواب للمشكلات التي تواجه الانسان في

حاضره ، أجوبة معجونة بالتجارب الانسانية السابقة .

وقد يثير هذا التحليل حفيظة فريق من أهل الفكر المشتغلين بالسياسة ، أو فريق من أهل السياسة يدعون لأنفسهم صلة بالفكر يرون ـ أولئك وهؤلاء ـ أن النزعة التاريخية ، أو العقلية التاريخية (السلفية) تعيق نموّنا في الحاضر وتقدّمنا في المستقبل ، لأنها تشدّنا دائماً الى الماضي ، الى قيمه وتصوراته . ان التاريخ عند هؤلاء مرض يشوّه الحاضر ويقضي على المستقبل .

ولكن هذا الرأي بعيد عن الصواب .

بطبيعة الحال نحن ـ في فهمنا لدور التاريخ كعامل مكوّن في البنية الثقافية للانسان والمجتمع ومساعد في عمليات الفكر ـ لا ندّعي أن من الحكمة أن يجعل الانسان نفسه سجين التاريخ ، لسنا في فهمنا لدور التاريخ مع غلاة النزعة التاريخية الذين يرون ان التاريخ هو الحقيقة كلها ، لا مرحلة من مراحل نمو الحقيقة التجريبية فقط . فهذا الموقف الفكري يتّسم بالغلو والشطط .

ولكن ليس من الحكمة أيضاً ان يواجه الانسان حاضره ويتجه نحو مستقبله وهو بلا جذور ، انه حين لا يستشعر تاريخه الخاص بأمته أو تاريخ الانسانية يفقد القدرة على الرؤ ية الصحيحة ، ويفقد القدرة على تقويم المواقف التي تواجهه في خاطره تقويماً سلبياً سواء في ذلك ما يتعلق منها بالحاضر نفسه او ما يتعلق منها بالمستقبل ، انه في هذه الحالة يتحرك في الفراغ .

لهذا وذاك نرى ان الاستخدام المتزن للتاريخ ، الاستخدام المتسم بالحكمة والاعتدال يجعلنا اقدر على التحرك في حاضرنا واكثر شعوراً بخطورة قراراتنا فيما يتعلق بشؤ ون المستقبل ، لأن التاريخ في هذه الحالة يعمّق حسّنا الأخلاقي حين اتخاذنا قرارات مستقبلية تمس نتائجها حياة اجيال تصنع بهذه القرارات ـ المستقبلية بالنسبة إلينا ـ حاضرها هي الذي هو مستقبلنا المظنون الذي قد لا نشاركها فيه لاننا نكون حينئذ قد غادرنا الحياة ، ومن ثمّ فلا نواجه نتائج قراراتنا الماضية .

بدون استرجاع الماضي وما يمنحنا ذلك من عمق في الرؤ ية ، وغنى في التجربة الانسانية ووعي لاستمرار الحضارة الانسانية فينا وفيمن يأتي بعدنا من الأجيال - بدون ذلك لن يكون في وسعنا تفادي أخطاء وقعت في الماضي كما لن يكون من حظنا التمتع بنتائج تجارب ناجحة أنجزت فيه ، كما أننا في هذه الحالة قد نتخذ بالنسبة الى المستقبل الذي لا نملكه وحدنا قرارات متهورة شديدة الخطورة بالنسبة الينا والى وضعية ومصير الأجيال الآتية .

ان الغلوّ في استرجاع التاريخ ، فكراً وعملاً ، قد يجعل من التاريخ مقبرة للحاضر والمستقبل ، ويجعل الانسان غريباً في العالم الذي يعاصره ويحيط به ويتدفق بالحياة والحركة نحو المستقبل من حوله .

كما ان الغلوّ في رفض التاريخ ، والانقطاع عنه والانصراف عن تجاربه ومآثره قد يجعل الانسان « ريشة في مهب الريح » عاجزاً عن التماسك في الحاضر ، ويفقده القدرة على ممارسة دوره الأصيل في بناء الحضارة ويجعل منه مجرّد ممثل لأدوار يضعها الآخرون يعكس هو بتمثيله اراداتهم وافكارهم وطموحاتهم .

اذن ، لا بدّ للانسان من أن يتعامل مع التاريخ باعتدال يجعله دليلاً في حركته وتربة ينمو فيها الحاضر الأصيل والمستقبل الأكثر يمناً وأصالة .

واستجابة لهذه الضرورة تعامل أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) مع التاريخ في مجال الوعظ وفي مجال السياسة والفكر .

واكبر همنا في هذه الدراسة هو التعرف على النظرة التاريخية للامام في مجالَيْ السياسة والفكر ، مكتفين بالنسبة الى المجال الوعظي ذي المحتوى التاريخي بتقديم نموذج واحد من النصوص الوعظية في كتاب نهج البلاغة ، وتحليله مع تسليط الأضواء على الجانب التاريخي فيه .

التاريخ في مجال الوعظ

حللنا في فصل (الوعظ) من كتابنا « دراسات في نهج البلاغة » [1] ، مواعظ أمير المؤمنين علي (ع) في نهج البلاغة على ضوء الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية التي كانت تسيطر وتوجه مجتمع العراق بوجه خاص في ايام خلافة الامام عليه السلام .

وكشفنا النقاب هناك عن ان الامام لم يكن في مواعظه داعياً الى مذهب زهدي يقف موقفاً سلبياً من الحياة الدنيا والعمل لها والاستمتاع بها ، وانّما كان ، في مواعظه وتوجيهه الفكري بوجه عام ، يدعو الى مواجهة الحياة بواقعية وصدق ، محذراً من اللهاث المجنون وراء الآمال الخادعة والاحلام الكاذبة التي ليس لها في واقع الحياة سند ولا أساس .

وكشفنا النقاب أيضاً عن أن النظرة الشائعة الى مواعظ الامام في نهج البلاغة قد تأثرت بالتيار الزهدي السلبي الذي طبع المجتمع الاسلامي بطابعه في عصور الانحطاط ، وهو دخيل على الفكر الاسلامي وعلى اخلاقيات الاسلام وتشريعه ، ولذا فان هذه النظرة خاطئة لا تمثل مقاصد الامام واهدافه من المواعظ التي كان يوجهها الى مجتمعه .

والمواعظ التي استخدم الامام فيها عنصر التاريخ كغيرها من مواعظه في أنه لا يدعو فيها الى مذهب زهدي سلبي من الحياة الدنيا ، وانّما يعالج بها حالة

---

(١) محمد مهدي شمس الدين : دراسات في نهج البلاغة (الطبعة الثالثة) بيروت .

خاصة في مجتمعه الذي بدا غافلا عن مصيره التعس ، مهملا لواجباته في جهاد النفس وجهاد العدو ، متلهفاً على المتع والثراء اللذين لا يستحقهما الا مجتمع مستقر أحكم وضعه الأمني والسياسي والاجتماعي ، وقطع دابر الطامعين فيه المتآمرين عليه ، وهذا ما لم يكنه مجتمع العراق في عهد الامام عليه السلام ، بل كان مجتمعاً قلقاً يعاني من اضطراب أمنه الخارجي وتدهور أمنه الداخلي ، كما يعاني من التمزق السياسي ، وكان ـ نتيجة لذلك ـ يؤجج مطامع الحكم الأموي في الشام ويدفع به نحو التآمر عليه .

ونقدم فيما يلي نموذجاً من النصوص الوعظية التي يكوّن التاريخ عنصراً بارزاً واساسياً فيها .

قال عليه السلام :

« أمّا بعد ، فاني أحذركم الدنيا ، فانها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وتحببت بالعاجلة ، وراقت بالقليل ، وتحلت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم جدتها [1] ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، حائلة [2] زائلة ، نافذة بائدة [3] ، اكالة غوالة [4] ، لا تعدوا ـ اذا تناهت الى أمنية اهل الرغبة فيها والرضاء بها ـ أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه ﴿ كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما [5] تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ . لم يكن امرؤ منها في حبرة الا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق في سرائها بطنا الا منحته من ضرائها

---

(١) الجدة ، بالفتح ـ النعمة .

(٢) حائلة : متغيرة .

(٣) نافدة : فانية .

(٤) غوالة : مهلكة .

(٥) الهشيم : النبت اليابس .

ظهراً [1] ، ولم تطلّـه فيها ديمة [2] رخاء الا هتنت [3] عليه مزنة بلاء . وحريّ اذا اصبحت له منتصرة ان تمسي له متنكرة ، وان جاسب منها اعذوذب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى [4] لا يناب امرو من عضارتها رغبا [5] الا ارهقته من نوائبها تعبا ، ولا يمسي منها في جناح أمن الا اصبح على قوادم خوف [6] . عرارة عرور ما فيها ، فانية فان من عليها ، لا خير في شيء من ازوادها الا التقوى .

« من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه [7] ، وزال عما قليل عنه » .

« كم من واثق بها قد فجعته ، وذي طمأنينة اليها قد صرعته ، وذي أبهة قد جعلته حقيرا [8] ، وذي نخوة قد ردته ذليلا [9] » .

« سلطانها دول [10] وعيشها رنق [11] ، وعذبها أجاج [12] . وحلوها صبر [13] ، وغذاؤ ها سمام [14] وأسبابها رمام [15] » .

---

(١) البطن كنايه عن اقبال الدنيا ، والظهر كنايه عن الادبار .
(٢) الصل : المطر الخفيف . والديمه : مطر يدوم في سكون لا يرافقه رعد وبرق .
(٣) هتنت : انصبت .
(٤) اوبى : صار كثير الوباء .
(٥) العضاره : النعمه ، والرغب : الرغبه ، والمرغوب فيه .
(٦) القوادم : جمع قادمه ، ريش في مقدم جناح الطائر .
(٧) يوبقه : يهلكه .
(٨) أبهه : عظمه .
(٩) النخوة : الافتخار .
(١٠) دول ـ بضم الدال ـ المتحول .
(١١) الرنق : الكدر .
(١٢) أجاج : شديد الملوحه .
(١٣) الصبر . عصاره الشجر المر .
(١٤) سمام : جمع سم ، وهو مثلث السين .
(١٥) الرمام : جمع رمه ـ بالضم ـ القطعه الباليه من الحبل ، ومنه (ذو الرمه) .

« حيّها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، وموفورها منكوب [1] وجارها محروب [2] » .

« ألستم في مساكن من كان قبلكم اطول اعماراً وأبقى آثاراً ، وأبعد آمالا ، وأعدّ عديدا . وأكثف جموداً ؟ تعبدوا للدنيا أيّ تعبد ، وآثروها أيّ ايثار ، ثم صعموا عنها بغير زاد مبلّغ ، ولا ظهر قاطع [3] » .

« فهل بلغكم ان الدنيا سخت لهم نفسا بفدية [4] أو اعانتهم بمعونة ، أو احسنت اليهم صحبة . . ؟ بل أرهقتهم بالقوادح [5] اوهنتهم بالقوارع [6] ، وضعضعتهم بالنوائب [7] ، وعفرتهم للمناخر [8] ، ووطئتهم بالمناسم [9] ، وأعانت عليهم ريب المنون » .

« فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها [10] وآثرها وأخلد اليها [11] حين ظعنوا عنها لفراق الأبد . . . أفهذه تؤثرون ؟ أم اليها تطمئنون ؟ أم عليها تحرصون ؟ فبئست الدار لمن لم يتهمها ، ولم يكن على وجل منها .

---

(١) موفورها . . : من كان عنده وفر (كثرة) من الدنيا معرض للمصائب والنكبات .
(٢) محروب : المحروب من سلب ماله .
(٣) ظهر قاطع : وسيله سفر تقطع براكبها الطريق بامان وتبلغه غايته .
(٤) لم تدفع عنهم الدنيا بلاء الموت .
(٥) أرهقتهم : أتعبتهم . والقوادح : جمع قادح مرض يصيب الاسنان والشجر . أراد به هنا المصائب والنكبات .
(٦) الوهق : حبل تصطاد به الفريسة ، والقوارع : المحن . أراد انهم أسرى مشاكلهم الماديه والاجتماعيه .
(٧) صعضعتهم : جعلتهم قلقين ، وحرمتهم الاستقرار وطيب العيش .
(٨) عفرتهم : العفر التراب ، مرغت اثافهم بالتراب ، كنايه عن اذلالهم .
(٩) المنسم : خف البعير ، كناية عن اذلالهم .
(١٠) دان : خضع .
(١١) أخلد : اطمأن .

« فاعلموا ـ وأنتم تعلمون ـ بانكم تاركوها وظاعنون عنها ، واتعظوا فيها بالذين قالوا (من أشد منا قوة . .) حملوا الى قبورهم فلا يدعون ركبانا [١] . وانزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا [٢] ، وجعل لهم من الصفيح [٣] أجنان [٤] ومن التراب أكفان . . . .

. . . . استبدلوا بظهر الأرض بطنا ، وبالسعة ضيقا ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة . . . » [٥] .

***

ركّز الامام عليه السلام في هذه الخطبة الوعظية ـ كما هو شأنه في معظم مواعظه ـ على عاملين ثابتين في طبيعة الحياة على هذه الأرض :

١ ـ عامل التغيّر والتقلّب في الحياة :

الحياة بما هي حركة ، وبما هي تفاعل ، وبما هي طاقات وقوى تتفاعل فتتكامل او تتقاتل في داخل كل شيء ومن حول كل شيء في الكون المادي كله ـ الحياة بما هي كل هذا متقلّبة متغيّرة متحوّلة باستمرار ، هي في حالة صيرورة دائمة لا تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة .

٢ ـ عامل الزمن :

أثر الزمن في الأشياء والأعمار ظاهر لكل ذي بصيرة ، فالزمن يفتت الحياة باستمرار ، فما ان يبدأ وجود الحياة في شيء ، بل ما ان يبدأ وجود شيء حيّاً كان او غير حي حتى يبدأ هذا الوجود بالذوبان والتفتت والضياع . ان الحياة تولد في

---

(١) لا يدعون ركبانا لأنهم مقهورون ولم يحملوا مختارين . ولا يدعون ضيفانا لانهم يقيمون في قبورهم .

(٢) الأجداث القبور .

(٣) الصفيح : الوجه من كل شيء له مساحة ، والمراد هنا الأرض .

(٤) أجنان : جمع جنن ـ بالفتح ـ القبر .

(٥) نهج البلاغة ـ رقم الخطبة : ١٠٩ .

الزمن . ولكن الزمن يغتالها باستمرار .

وهذان العاملان ـ التغيّر والزمن ـ لا يختصان بعالم الانسان وحده ، انهما يعملان في كل شيء ويحولان دون ثبات كل شيء : الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والانسان . ويتميّز الانسان ـ بالنسبة اليهما ـ عن العوالم الاخرى بانه ـ لما أوتي من عقل وادراك ـ يستطيع ان يعي الوجه المأساوي لعمل هذين العاملين ، وأثرهما في حياته وفي الوجود من حوله .

ووعي الانسان لهذين العاملين وأثرهما في الحياة والأشياء يجعله قادراً على مواجهة الحياة ومباهجها الموقتة ، ووعودها السخيّة ، وآمالها اللامعة . بعقل صاف خال من الأوهام ، ويعزز فيه النزعة الواقعية في اخذ الحياة والتعامل مع الدنيا ـ هذه النزعة التي من شأنها أن تجعل الآمال أقل بريقاً وجذباً واستهواء ، والانتصارات أقل مدعاة للغرور والصلف ، والمآسي أقل ايلاما . ويعزز مناعة الانسان امام تكالب صروف الدهر ، وخيبات الأمل ، وضياع الجهود ، ونوازل المرض والموت . . . فلا ينهار بسبب ذلك ولا ييأس ولا يستسلم ، ولا يستكين ولا يهرب من العمل ، وانما ينبعث للعمل والكفاح في سبيل نفسه وأهله ومجتمعه وعالمه من جديد لأنه لم يفاجأ بالخيبة والاخفاق ، بل كان مهيء النفس لتقبلهما ومن ثم فقد كان مهيء النفس لتجاوزهما ، واستئناف العمل مرة أخرى بأمل واقعي جديد .

بالاجمال : ان وعي الانسان لهذين العاملين ، وادراكه لأثرهما العميق والمصيري في حياته وفي الوجود من حوله يجعله قادراً على مواجهة الحياة بكل وجوهها وما فيها من حسن وقبح ، وألم ولذة ، وواقع وخيال ، ونجاح واخفاق . . . يواجهها بروح واقعية .

وحين يدخل الامام عليه السلام في وعظه عنصر التاريخ فيتحدث عن الماضين وما حلّ بهم من كوارث وآلام وما انتهت اليه حياتهم على عظمة توهجها من انطفاء فانه يقدم لتحليله النظري الذي تناول واقع حياة معاصريه الذين يخاطبهم ـ يقدم نماذج تطبيقية من حياة أقوام آخرين . . انه يقدم لمعاصريه تجربة

الاخرين التي يعرفونها ،ويعيشون حياتهم في ساحاتها ، ويرون آثارها الباقية من الماضي في هذه الساحات .

فهذه المدن والمساكن ، وهذه الضياع والمزارع ، وهذه القلاع والحصون عمّرها في عصور سابقة أناس تقلبت بهم صروف الحياة وافراحها وأحزانها ، والامال التي سعدوا بانجازها وخيبات الأمل ، ثم ماتوا وانقطعوا عن كل ما كان يملأ عليهم حياتهم من أحلام وأماني ، ومطامح ومطامع ، وحب وبغضاء ، وصداقات وعداوات . . .

وكان هؤلاء أطول أعماراً ، واكثر قوة . . « وأعد عديدا » ، وقد وجهوا كل ما أوتوا من قدرة وذكاء ومعرفة لدنياهم ، فاعدّوا لها واستعدوا ، ولم يشغلهم عنها تفكير بالاخرة أو عمل لها ، ولكن كل ذلك لم ينفعهم ولم يعد عليهم بطائل ، لأن عامل التغير والتقلّب من جهة وعامل الزمن من جهة اخرى ، عملا دائماً ـ كما لا يزالان يعملان ، وكما سيعملان في المستقبل ـ على تفتيت حياة أولئك الناس ، وكانت حياتهم ـ كما هي الحياة الان ، وكما ستبقى الحياة ـ تحمل في جوهرها وفي أعماقها اثناء ولادتها ونموها وازدهارها بذور تقلصها وذبولها وانطفائها في آخر المطاف .

***

هذا نموذج من وعظ الامام علي الذي يدخل فيه عنصر التاريخ باعتباره يضيء الحاضر لأنه يضيف اليه تجربة الماضي ويجعله ـ بذلك اكثر غنى ، ويجعل الانسان اكثر قدرة على مواجهته بروح واقعية وبعقل خال من الأوهام ، فلا يهن ولا يستسلم تحت وطأة الكارثة ، ولا يطغى ولا يطوّح به الغرور وهو في ذرى النجاح .

التاريخ في مجال السياسة والفكر

التاريخ في مجال السياسة والفكر

تمهيد

استخدم الامام التاريخ في مجال الفكر كما استخدمه في مجال السياسة .

كان رجل رسالة هي الاسلام ، رسالة استوعبت الحياة كلها : تنظيماً وتشريعاً ومناهج . وهي رسالة ذات طابع عالمي ، ممتدة في الزمان الى آخر الزمان ، أراد الله تعالى لها أن تكون دينا للانسان كلّ انسان ، تقوده نحو التكامل الذي يحقق له التوازن والتسامي .

وهي رسالة تقوم على العلم والمعرفة ، وترفض الجهل لأنه يتيح لأعدائها أن يتسللوا في ظلماته الى قلوب أتباعها المؤمنين بها وعقولهم فيشوهون ويحرفون عقائدها وشرائعها ومناهجها ، ويضلّلون بعد ذلك أتباعها المؤمنين بها وذلك حين يلبسون لهم الحق بالباطل والصواب بالخطأ .

ومن هنا كان من أكبر هموم رجل الرسالة الاستعداد الدائم في هذا المجال ، لأجل أن يجعل المسلمين على معرفة كاملة بالاسلام ، وفي حالة وعي متجدّد ونام لحقيقة الاسلام وجوهره ومناهجه وغاياته ليكون المسلم المستنير بالمعرفة في حصانة من الحيرة والتضليل ، على بيّنة من أمره ، وليكون الاسلام بمنجاة من التشويه والتحريف ، ويكون كل مسلم مستنير ديدبانا على دينه الذي هو معنى وجوده وشرف وجوده .

ومن هنا كان علي عليه السلام في حركة تعليمية دائمة لمجتمعه وخواصّ

أصحابه الذين كانوا علماء ينشرون علمهم ووعيهم بين الناس بالحديث والخطابة وحلقات الدرس والتعليم .

وكان الامام عليه السلام يختار ولاته وعماله على البلدان من ذوى المعرفة ومن أهل البصائر [1] الذين يتمتعون بالمعرفة والوعي والصلابة في العقيدة ليكونوا ـ الى جانب عملهم الاداري ـ معلمين ورجال رسالة ، وكان يوجههم نحو هذه المهمة التعليمية والتوجيهية . من ذلك ما كتب به الى قثم بن العباس عامله على مكة :

« أمّا بعد ، فأقم للناس الحج ، وذكّرهم بأيام الله [2] ، واجلس لهم العصرين [3] ، فأفت المستفتي ، وعلّم الجاهل ، وذاكر العالم » [4] .

***

وفي عمله الفكري على صعيد التعليم والتوعية استعان الامام عليه السلام بعنصر التاريخ ليعطي للفكر حرارة وحياة وحركة ، وعمقا في الزمان وفي

---

(١) « أهل البصائر » تعبير اسلامي يعود الى صدر الاسلام ، يعني به المؤمنون الواعون الذين يتخذون مواقفهم السياسيه وغيرها نتيجة لقناعات مستوحاة من المبدأ الاسلامي ، ولا تتصل بالاعتبارات النفعيه .
ومن المؤكد أن هذا التعبير غدا في وقت مبكر جداً مصطلحاً ثقافياً اسلامياً يعني : الفئه المؤمنه الواعيه للاسلام على الوجه الصحيح ، والملتزمة بالاسلام في حياتها بشكل دقيق ، بحيث انها تتخذ مواقف مبدئيه من المشاكل الاجتماعية والسياسيه التي تواجهها في الحياة والمجتمع ، فلا تصغي الى الاعتبارات الشخصيه والقبلية كما أنها لا تقف على الحياد أمام هذه المشكلات ، وانّما تعبّر عن التزامها النظري بالممارسه اليوميه للنضال ضد الانحرافات .
راجع بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع في كتابنا « أنصار الحسين : الرجال والدلالات » ـ الطبعه الاولى ـ دار الفكر ـ سنه ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥/ فصل « النخبه » ص ١٦٥ ـ ١٧٠ .

(٢) « أيام الله » مصطلح ثقافي اسلامي ، يغلب استعماله للدلاله على الكوارث الكبرى التي أصابت الشعوب والجماعات نتيجة لانحرافها في العقيدة والشريعه والاخلاق . وقد يستعمل للدلاله على الانتصارات الكبرى التي أحرزها المؤمنون فغيّرت مجرى التاريخ أو مجرى تاريخ جماعه مؤمنه او شعب مؤمن .

(٣) العصران : هما الغداة والعشي .

(٤) نهج البلاغه ـ باب الكتب / الكتاب رقم ٦٧ .

الانسان ، وليجعل ، بهذا ، من القضية الفكرية بضعة من الحياة المعاشة تحمل في ثناياها رائحة المعاناة الانسانية .

***

وكان الامام رجل سياسة .

كان سياسياً على مستوى رجل الدولة ورجل العقيدة والرسالة طيلة حياته . ملأ العمل السياسي حياته في عهد النبي (ص) بتكليف منه ، وفي عهود الخلفاء الذين تقدموه لحاجتهم اليه أو لحاجة الناس اليه . وكان ـ بالاضافة الى ذلك ـ حاكماً ورئيس دولة في السنين الأخيرة من حياته .

وكان الامام بهذين الاعتبارين في حاجة دائمة الى أن يعطي لأمته ولأعوانه التوجيهات السياسية اللازمة . وكان في بعض هذه التوجيهات يستعين بعنصر التاريخ ليضيء الفكرة السياسية التي يقدمها ، وليعطي توجيهه السياسي صدقاً واقعياً اضافة الى الصدق النظري . . . صدقاً واقعياً يوفّر للتوجيه السياسي حرارة ووهجا . انه بهذا العمل « يؤنسن » التوجيه السياسي ، ويجعله بحيث يخالط القلب كما يوجّه العقل .

التاريخ في مجال الفكر

التاريخ في مجال الفكر
تمهيد

التفكر هو التأمل ، والفكر ـ بالكسر ـ اسم منه ، وهو يستعمل ـ حسب ما ذكره علماء اللغة ـ للدلالة على معنيين :

أحدهما : القوة المودعة في الدماغ ، الذي هو مركز التفكير ، وان كان علينا أن نعترف بأن لوضعية أعضاء أخرى في الجسم من حيث الصحة والمرض دخلاً في عملية التفكير . والفكر ـ بهذا المعنى ـ اسم لآلة التفكير .

ثانيهما : أثر التفكر ، وهو ترتيب أمور في الذهن تتولد منها معرفة جديدة ، أو تؤدي الى تعميق وتوسيع معرفة قديمة . والفكر ـ بهذا المعنى ـ اسم لفعل التفكير أو لعملية التفكير .

هذا هو المعنى اللغوي لكلمة تفكر وفكر مع شرح وتوضيح .

وثمة معنى ثالث لهذه الكلمة غلب استعمال اللفظ فيه في العصور الأخيرة ، ولعلّه دخل العربية من الاستعمالات الأوروبية ، وهو نفس الافكار والمعلومات التي يجعلها الفكر ـ بالمعنى الأول ـ موضوعاً لعمله ـ الفكر بالمعنى اللغوي الثاني ـ ، فيقال ، مثلاً ، الفكر الاسلامي ، والفكر المسيحي ، والفكر الماركسي ، والفكر الديني ، فالفكر المادي . . . يراد من ذلك الأفكار والمناهج والمعلومات التي يتشكل منها ويتقوم بها مذهب أو فلسفة أو دين .

والمقصود ببحثنا هنا هو هذا المعنى لكلمة فكر .

***

والفكر في الثقافة التي تقوّم شخصية كل أمة على قسمين : فكر حي ، وفكر ميت ، والأول هو ما يطلق عليه لفظ (فكر) في عصرنا الحاضر ، والثاني هو ما يطلق عليه في عصرنا الحاضر مصطلح (تراث) .

***

والتراث في أصل اللغة : الميراث . وقد وردت كلمة (تراث) في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى في خطاب المشركين :

﴿ . . . وتأكلون التّراث أكلا لّمـا . . . ﴾ (١)

وقد استعملت كلمة « ميراث » في اللغة العربية في الماديات والمعنويات . أمّـا استعمالها في الماديات فأمثلته كثيرة ظاهرة . واما استعمالها في المعنويات فقد ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع ، هي الآيات التالية :

١ - ﴿ . . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا . . . ﴾ (٢) .

٢ - ﴿ . . . ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنـا : فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهـم مقتصـد ، ومنهـم سابـق بالخيرات باذن الله . . . ﴾ (٣) .

٣ - ﴿ . . . وأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ (٤) .

وقد استعملت هذه الكلمة في السنّـة في المعنويات أيضاً كما فيما روى عن

(١) سورة الفجر (مكيّة) رقم ٨٩ - الاية ١٩ .
(٢) سورة الاعراف (مكيّـة) رقم ٧ - الاية ١٦٨ .
(٣) سورة فاطر (مكيّة) - رقم ٣٥ - الاية ٣٢ .
(٤) سورة الشورى (مكيّة - رقم ٤٢) الاية : ١٤ .

الامام الصادق (ع) أنه رواه عن رسول الله (ص) :

« . . . ان العلماء ورثة الأنبياء . ان الأنبياء لم يورثـوا ديناراً ولا درهماً ، ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذ منه أخـذ بحظ وافر » [1] .

وقد وردت مادة (و . ر . ث) في نهج البلاغة في مواضع كثيرة بصيغة الفعل الماضي والفعل المضارع ، وبصيغة الاسم (ميراث ، تراث) وغيرهما ، واستعملت في الماديات والمعنويات ، فمن استعمالها في المعنويات قولـه : « لا ميراث كالأدب . . » [2] و« . . . العلم وراثة كريمة . . . » [3] . واستعملها في المعنويات في السلطة السياسية في قوله : « ان بني أمية يفوقونني تراث محمـد تفويقا . . . » [4] وقوله : « فصبرت وفي العين قذى . . . أرى تراثي نهبا . . . » [5] .

***

وعلى ضوء هذه الاستعمالات يمكن أن يقال ان التراث أو الميراث ـ بمعناه العام ، لا بمعناه الاصطلاحي الفقهي ـ هو كل ما يخلفه سابق في الحياة للاحق له في الزمان ، مهما بعد الزمان بالمورِّث ، سواء في ذلك الماديات والمعنويات .

واذن ، فما يقـع عليه اسـم التـراث أو الميراث شيء لم يكن في حوزة الوارث وانّـما انتقل اليه من غيره . وهو قد يكون في حاجة اليه وقد لا يكون في حاجة اليه . ومع كونه في حاجة اليه فقد يعي حاجته اليه ويستعمله وينتفع به ، وقد يعي حاجته اليه ولكنه ينصرف عنه لسبب أو لآخر ، وقد لا يعي حاجته اليه فيهمله ولا يعني به الا باعتباره أثراً من الآثار التي تتصل بأحبته وأهله الماضين

(١) محمد بن يعقوب الكليني : الكافي ج ١ ص ٣٤ .
(٢) نهج البلاغة ، باب الحكم ، رقم ٥٤ و١١٣ .
(٣) نهج البلاغة ، باب الحكم ، رقم ٥ .
(٤) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ٧٥ .
(٥) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ٣ .

ربما تكون له قيمة عاطفية ولكن ليس له قيمة عملية في حياة الوارث .

وهذا يعني أن التراث أو الميراث ليس ـ بالضرورة ـ جزء مقوما للحياة الحاضرة تفسد بدونه لأنه يشغل فيها حيزا مهما واساسا ، ويسدّ فيها حاجات ملحّة لا غنى عنها ، وانّما قد يكون الامر فيه هكذا ، وقد يكون ـ في نظر الوارث ـ شيئاً يحسن ان يقتنى ويستعمل ولكن فقده لا يغير شيئاً من وضع الحياة الحاضرة ولا يدخل نقصاً هاماً فيها . وقد يكون في نظر الوارث ذا قيمة عاطفية محضة لا يؤثر فقده ابداً . وقد يكون في نظر الوارث عبئاً على الحياة ومعوقاً لنموها ومانعاً من ازدهارها ، ولذا فهو يسعى الى نبذه والتخلص منه والبراءة من آثاره .

هذا تحليل لمفهوم التراث او الميراث في اللغة العربية ـ بمعناه العام لا بمعناه الاصطلاحي الفقهي الخاص .

وقد استعملت كلمة التراث في اللغة العربية في العصور الأخيرة على ألسنة الباحثين والأدباء والمفكرين للدلالة على آثار الفكر الاسلامي في السنة وعلومها ، والفقه وأصول الفقه ، والتاريخ ، والأدب ، والفلسفة : وما الى ذلك من الآثار الفكرية التي خلفها المسلمون باللغة العربية .

ذاك هو الفكر ، وهذا هو التراث .

***

والفكر ، في المفهوم الحضاري ـ اذن هو المعلومات والشرائع والمناهج والقيم التي تقوّم شخصية الأمة الثقافية والحضارية ، وتعطيها سمتها المميزة لها عن الأمم الأخرى ، ويرسم لها دورها في حركة التاريخ .

ان هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم تشكل عقل الأمة وروحها وضميرها . وهي تنظر الى الكون والحياة والانسان والأمم الاخرى من خلال هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم ، وتواجه مشاكلها ومسائل حياتها على ضوء الحلول والمواقف التي يحميها هذا الفكر . وانتاجها العقلي النظري كله

يكون مطبوعاً بطابع هذا الفكر ، ومحتوياً روحه ، ومستهدياً بالنور الذي يشعه . . .

مثلا : الماركسية هي فكر العالم الشيوعي. فهي تشكّل عقل شعوبه وروحها وضميرها ، وهي تميّز هذه الشعوب عن العالم الرأسمالي بالسِّمات التي تطبع بها طريقة الحياة لدى هذه الشعوب . كما ان النتاج الثقافي النظري لهذه الشعوب مرسوم بالطابع الخاص للماركسية ، بل لقد طمح المنظرون السوفيات الى طبع النظريات العلمية التي تفسّر بها المادة بالطابع الخاص للماركسية : هذا في العصر الحديث .

وقد كانت المسيحية في القرون الوسطى وما قبلها بالنسبة الى أوروبا على هذه الشاكلة . . كما كانت الكونغو شيوعية بالنسبة الى الصين . . والهندوسية بالنسبة الى الهند ، والزردشتية بالنسبة الى ايران ، والاسلام بالنسبة الى العالم الاسلامي منذ ظهور الاسلام والى يومنا هذا . .

ولكل فكر بؤ رة يرتدّ اليها كل شيء باعتبارها مقياساً للصدق والأصالة والاستقامة ، وينطلق منها كل شيء باعتبارها الذخر الأكبر للأصول الأساس في التكوين الثقافي للأمة .

مثلا : كتاب رأس المال للماركسية والشيوعية ، والانجيل والتوراة للمسيحية ، والبهاجافاد ـ جيتا للهندوسية ، والقرآن للاسلام . والآوستا للزردشتية . . وهكذا يكون لكل فكر مركز اساس يتضمن الخطوط الكبرى والمبادىء المركزية لذلك الفكر .

هذا هو الفكر في المفهوم الحضاري .

***

أمّا التراث في المفهوم الحضاري فهو مجرد ثقافة ومعرفة نظرية لا تبلغ في اكثر الاحيان ومعظم الحالات ان تبلغ مستوى كونها فكراً بالمعنى الذي شرحناه آنفاً ، ولنَقُلْ : التراث فكر ميت .

ان التراث لا يدخل في صلب ثقافة الأمة التي تغذي عقلها العملي

وفعاليتها وحركيتها في مجرى التاريخ : ولا يقوّم وجودها ، ولا ينير طريق حياتها ، ولا يميّزها عن غيرها من الأمم ، وبالاجمال : كل ما هو دور ايجابي للفكر في الأمة منفي عن التراث .إن التراث شيء من بقايا الاباء والأجداد ، كان صالحاً لحياتهم فهو يمثّل هذه الحياة الماضية وأساليبها وألوانها ، ولكنه لا يصلح للحياة الحاضرة ، او لا يصلح اكثره للحياة الحاضرة ، واذا احتفظنا به ودرسناه واقمنا له المؤسسات فليس لأجل ان نقيم عليه حياتنا ونقوّم به شخصيتنا كأمة ، وانما ذلك لما تربطنا به من صلات عاطفية ؛ أو لأنه يمثل حلقة هامة في تاريخ نمونّا ، ان له قيمة عاطفية وقيمة أكاديمية (نظرية) ، وليست له قيمة عملية ، أو ان اكثره كذلك . ونحن ندرسه ، ونحققه وننشره ، ونحفظه لنعرف كيف كنا لا لنعرف كيف نكون ؟ ولنرى صورتنا القديمة لا لنرسم صورتنا الحاضرة أو لنرى كيف تكون صورتنا المستقبلية . ان التراث ، في أحسن الحالات ، شيء من اشياء القلب والعاطفة ، وليس من اشياء العقل والعمل .

هذا هو التراث في المفهوم الحضاري .

***

وهنا أودّ أن اثير مسألة شديدة الخطورة وذات أهمية بالغة جداً بالنسبة الينا نحن المسلمين في هذا العصر ، وهي أن الكثرة الساحقة من المسلمين المتعلمين والمثقفين على مناهج الغرب واساليبه ينظرون الى الاسلام ـ بما هو ثقافة ونظام وحضارة ـ ويتعاملون معه على أنه تراث ، أي فكر ميت ، لا على انه فكر .

أمّا الكثرة الساحقة من المسلمين فهم بحمد الله ونعمته لا يزالون يتعاملون مع الاسلام على أنه فكرهم (لا تراثهم) وهم يحرصون ما وسِعَهُم الحرص على ان يقيموا حياتهم على هدى احكامه وقيمه ، وان كان علينا ان نعترف ان الحياة الحديثة كثيراً ما تضطر الكثير منهم الى تجاوز احكام الاسلام ، او تغريهم بتجاوزها ، لأنها حياة قائمة على غير الاسلام ، وتستمد مفاهيمها

الفكرية ، وقيمها الاخلاقية ، ومقاييسها الجمالية ، وافكارها العملية من غير الاسلام . ولكن هذه الكثرة الساحقة من المسلمين لا تزال تعتبر الاسلام ـ كما قلت ـ (فكرها) وان تجاوزته اضطراراً او تهاوناً في الكثير او القليل من شؤ ون حياتها . انه عقيدتها ، وشريعتها ، وقيمها .

ونعود ، بعد هذا الاستطراد ، الى شرح موقف المسلمين الذين يتعاملون مع الاسلام على انه تراث لا فكر .

هم يرون ان الاسلام ـ لا بما هو عقيدة ـ وانّما بما هو شريعة وقيم ، فكر عصر مضى ، وأنه بالنسبة الى عصرنا هذا ـ حيث تشكّل حياتنا الحضارة الحديثة ، ومناهجها في التشريع ، وقيمها ـ مجرّد تراث ، يمثّل مرحلة سابقة في نموّنا تجاوزها تطوّر التاريخ ، فليس لنا والحال هذه ان نعتبره (فكرنا) انه (تراثنا) مبعث فخر لنا ، موضوع حبنا وتقديرنا ، ولكنه لا يصلح لأن يشكّل حياتنا ، ويكون موضوع عملنا الذي نبني عليه مناهجنا ونستمدّ منه قيمنا .

والمفكرون العرب المحدثون المعنيون بقضايا النهضة العربية كثيراً ما يستعملون في التعبير عن الاسلام أو عن هذا الجانب او ذاك من جوانب الفكر الاسلامي كلمة (تراث) [1] ذاهبين الى ان هذا (التراث الاسلامي) ليس شأن عصرنا وليس شأن الانسان العربي في هذا العصر ، وانّما هو شأن السلف وقد ورثناه عنهم ، ومن المؤكّد انه ليس من الصالح ولا من الراجح ان نأخذه كله لنتمثّله في حياتنا مناهج وتشريعات وقيما لأنه معطّل معوّق لنموّ هذه الحياة المعاصرة وازدهارها ، ولكن هل ننبذه كله فلا نعني بشيء منه ، ونحفظه كأثر من آثار تاريخنا ، او نخضعه لمقياس انتقائي نأخذ بموجبه من هذا (التراث) ما

---

(١) نشير هنا الى ان بعض دور النشر الكبرى في بعض البلاد العربية ، ومنها ما هو تابع لمؤسسات ثقافية رسميه ، نشر كتباً في الفكر الاسلامي تحت عنوان (تراثنا) أو (سلسلة التراث) وغير ذلك من العناوين .
هذا وعلينا ان ننبه هنا الى انه ليس كل من استعمل كلمة (تراث) في الدلالة على الفكر الاسلامي يحمل عن الفكر الاسلامي هذه النظرة ، فثمة مفكرون وباحثون مسلمون مخلصون استعملوا كلمة (تراث) في الدلالة على الفكر الاسلامي دون ان يقصدوا بها موقفاً فكرياً من (الفكر الاسلامي) يضعه في (التراث) بالمعنى الحضاري ، وانّما قصدوا بالتعبير مجرّد الدلالة اللغوية .

يتفق مع حياتنا الحاضرة « والفكر المعاصر » وننبذ من هذا (التراث) ما لا يتوافق مع هذا (الفكر المعاصر) او يخالفه ، ولكن هؤلاء المفكرين على خطأ فادح في هذه المسألة الهامة ، بل المصيرية لا بالنسبة الى العرب وحدهم ، بل بالنسبة الى المسلمين جميعا .

ان الاسلام لا يزال حتى الآن « فكر » المسلمين ، والعرب منهم ، وسيبقى فكر المسلمين جميعا . ولم يبلغ الاسلام في قلوب وعقول المسلمين درجة من الضمور والتقلص او الاندثار والنسيان بحيث يكون « تراثا » يحتاج الى « إحياء » كالذي حدث في اوروبا في عصرالنهضة بالنسبة الى التراث اليوناني ـ الروماني .

ان الاسلام لا يزال « حياً » مملوء بالحياة في قلوب وعقول المسلمين ، ولا يزال قادراً على « تحريك » مئات الملايين من المسلمين في جميع انحاء العالم نحو أهدافه العظيمة النبيلة ، واذن فهو لا يزال « فكر » هذه المئات من الملايين من البشر ، وانّما لا « يحركها » أو « لا تتحرك » وفقاً لمناهجه بسبب وجود الموانع الخارجية القاهرة والمعوّقات الشالّة لحركة المسلمين من خلال اسلامهم ، وهي قوى الحضارة المادية التي استعمرت بلاد المسلمين وأقصت الاسلام عن مركز القيادة وحلّت محله في هذا المركز » .

وإذن ، فالاسلام ليس « تراثاً » ميتاً نختلف على « احيائه » وعدم « احيائه » أو « احياء » بعضه مّما يتلاءم مع عصرنا كما يقولون . . . انه « فكر حي » وما يدعوننا اليه هو « اماتة هذا الفكر الحي » لإحلال فكر آخر غريب محله هو فكر الحضارة المادية .

وقد افلحت قوى الحضارة المادية لا في « اماتة الاسلام » فهو لا يزال حياً كما قلنا ، ولكن في فرض نفسها على حياة المسلمين الذين يحملون في قلوبهم وعقولهم اسلاما حياً قادراً على التحريك ولكنه « ممنوع عن التحريك » وليس « عاجزاً » عنه .

واستمرار مفكرينا المتأثرين بهذه الحضارة المادية في جهودهم لفرضها على واقع حياة المسلمين وعزل الاسلام عن هذه الحياة لن يؤدي الى (اماتة الاسلام) كما لن يؤدي الى « تحرير » المسلم أو « العربي » ، وانّما يؤدي الى مزيد من التمزق الداخلي والأزمات الحضارية لانسان ينقسم على نفسه ، موزع الذات بين ضرورات حياته اليومية وبين قناعاته العقلية والنفسية والاخلاقية والعاطفية . وهذا ما يؤدي - كما أدّى بالفعل في العالم الاسلامي كله ومنه العالم العربي - الى فقدان الفعالية والايجابية في مواجهة تحديات الحياة ، ويؤدي من ثم الى مزيد من التخلف والعجز عن مجاراة حركة التقدم لدى الأمم الأخرى وهكذا يسيء هؤلاء المفكرون من حيث يحسبون انهم يحسنون صنعا ، فبدلا من اتاحة الفرصة أمام الانسان العربي للتغلّب على مصاعبه وعوامل تخلصه يضيف هؤلاء المفكرون سبباً آخر للتخلف يزيد الأمر سوءاً لأنه يقدم تحت شعار التقدم ، وهكذا يكون حال الانسان العربي في هذه الحالة حالة القط الذي يلحس المبرد الذي يغري لسانه وينزف دمه وهو يحسب انه يغذي نفسه بالمبرد الذي يغريه في حقيقة الحال .

***

رأينا ان نقدم للبحث عن التاريخ في مجال الفكر عند الامام علي (ع) بهذا التمهيد لشعورنا العميق بخطورة هذه المسألة ، مسألة موقفنا من الفكر الاسلامي ، وضرورة تصحيح النظرة السائدة الى هذا الفكر الذي ملاك وجودنا كله .

- ١ -

النبوات

أ ـ بداية العصر التاريخي للانسان

يبدو لنا من كلمات أمير المؤمنين علي (ع) أن العهد التاريخي للانسانية بدأ بظاهرة وجود النبوّات في المجتمع البشري . هذه النبوّات التي تقود مجتمعاتها نحو حياة أفضل ، ووجود انساني أكمل .

ما قبل التاريخ ، اذن ، بالنسبة الى الانسانية ، هو ما قبل النبوّات ، حيث كانت الانسانية تعيش في حالة البراءة الفطرية ، وكانت النفس الانسانية لا تزال عذراء ساذجة ، بدائية ، خالية من أي تعليم . . . ولذا فلم تكن لدى الانسانية في فترة ما قبل التاريخ هذه تجارب ومعاناة يعود عرضها بالفائدة التعليمية والتربوية لمجتمع متحضر ، تامّ التكوين ، على درجة عالية من التعقيد ، يفترض فيه انه يبنى على هدى خاتمة الرسالات ، وخلاصة النبوات ، وهو مجتمع الأمة الاسلامية .

ولذا لا نجد في جميع الكلام الصادر عن أمير المؤمنين حديثاً عما قبل عهد النبوّات ، ومن هنا استنتاجنا انه يعتبر اشراق النبوّة وظهور الأنبياء في المجتمعات البشرية بداية العصر التاريخي للبشرية .

وقد بيّن الله تعالى في القرآن الكريم تاريخ بداية عهد النبوّات في المجتمع البشري فقال سبحانه وتعالى :

﴿ كان النّاس أمّة واحدة ، فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم ، فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾[1] .

« كان الناس أمة واحدة » . . . كان انسان ما قبل التاريخ ، ما قبل النبوّات يحيا في وحدة فطرية قائمة على اساس وحدة المصالح ووحدة الدم من جهة ، وعلى عامل سلبي من جهة اخرى هو عدم وجود ما يهدد حالة السكون والخمود التي تميّز هذه الحياة نظراً لبساطة الحاجات وتوفّر ما يلبيها ويشبعها في الطبيعة دون حاجة الى مغالبة وصراع .

ولكن حركة الحياة النامية المتصاعدة ، وتزايد عدد افراد النوع ، وتفاوت القدرات العقلية والجسمية . . . كل ذلك وما يشبهه من عوامل الانقسام والتعقيد أدّى الى نشوء خلافات داخل الجماعة البشرية النامية ، ومغالبة وصراع بين افرادها وفئاتها . . . وربما كان من مظاهر ذلك او اول مظهر من مظاهر ذلك خلفيات الجريمة الاولى بين ابنيّ آدم حيث قتل احدهما أخاه ، وقد قصّ الله تعالى نبأها في القرآن الكريم[2] ، وترددنا في أن هذه الجريمة هي من مظاهر ذلك أو أنها أول مظهر من مظاهر ذلك ناشيء من وجود احتمال أن « آدم » القرآني لا يمثل بداية الجنس البشري على الأرض ، وانّما يمثّل بداية النسل البشري الموجود الآن ، ويكون ، على هذا ، قد وجد نسل بشري سابق على

---

(١) سورة البقرة (مدنية ـ ٢) الاية : ٢١٣ .
(٢) سورة المائدة (مدنية ـ ٥) الايات : ٢٧ ـ ٣١ .

النسل الموجود الآن من بداية يمثلها آدم سابق على آدم القرآني ، والله تعالى أعلم وعلى هذا تكون آية سورة البقرة (٢١٣) موضوع البحث تؤ رخ لفترة من عمر البشرية سابقة على الفترة التي بدأت بآدم القرآني .

وعلى أيّ حال ، ففي هذه المرحلة من نمو الانسان لم تعد وحدة الدم كافيه لتكوين وحدة المجتمع ، ولم تعد ثمة مصالح واحدة او متفقة ، ولم تعد النفس الانسانية عذراء ، ساذجة ، بدائية . . . ويستحيل على النوع الانساني في ان ينمو ـ كما اراد الله في أوضاع كهذه تقوده فيها غرائزه فقط ، ولا مرجع له في خصوماته ومراعاته الا غرائزه . . . في هذه المرحلة من نمو الانسان قضت حكمة الله ورحمته بارسال الأنبياء حاملين الى الانسانية منهاج هدايتها الذي يخرجها من عهد الغريزة الى عهد العقل ومن منطق الصراع الذي مرجعه الغريزة والقوة الى منطق النظام ومرجعية القانون .

وقد حقق الانسان ، باشراق عهد النبوّات ، قفزة نوعية عظيمة وحاسمة في تطوّره نحو الأعلى وتكامله ، فقد خرج المجتمع البشري بالنبوات عن كونه تكويناً حيوانياً ـ بيولوجيا الى كونه ظاهرة عقلية ـ روحية . . لقد عقلنت النبوّات المجتمع الانساني وروحنته .

وحققت النبوّات للانسان مشروع وحدة ارقى من وحدته الدموية البيولوجية التي كانت سائدة قبل عهد الخلافات والانقسامات والصراع . . . ، وهي الوحدة القائمة على اساس المعتقد ، وبذلك تطوّرت العلاقات الانسانية مرتفعة من علاقات المادة الى علاقات المعاني . . . بعهد النبوّات بدأ عهد الانسان . . .

وتمضي الآية الكريمة ، بعد التأريخ لهذه المرحلة ، في بيان ان الاختلافات التي نشأت في النوع الانساني ، بعد اشراق عهد النبوات ، غدت اختلافات في المعنى ، اختلافات في الدين والمعتقد ، اذ أن أسباب الصراع والبغي من بعض الناس على بعض ، واستغلال الاقوياء للضعفاء لم تلغ

بالدين الذي جاءت به النبوات ، بل استمرّت وتنوّعت ، ولكن المرجع لم يعد الغريزة وانما غدا القانون هو المرجع ، واذا كان من المستحيل على الانسانية ان تجد قاعدة لوحدتها وتعاونها عن طريق الغرائز ، وعلاقات المادة ، فان من الممكن لها ان تجد قاعدة ثابتة لوحدتها وتعاونها وتكاملها عن طريق القانون الذي يتضمنه الدين وغير القانون من تربية الدين واغنائه لروحية الانسان واخلاقيته ، وذلك حين يستبدل الانسان علاقات المادة بعلاقات المعنى . وعدم بلوغ الانسانية الى هذا المرتقى ليس ناشئاً ، في عهد النبوات ، من فقدان الوسائل ، وانما هو ناشىء من سوء الاختيار البشري ، ومن سوء استخدام الحرية المعطاة .

لقد افضنا في الحديث عن بعض جوانب الآية الكريمة لنضيء بها الفكرة التي عبّر عنها الامام عليه السلام في شأن النبوات وبداية العصر التاريخي للانسان اذ قال :

« . . . واصطفى سبحانه أنبياء . . . أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة امانتهم ، لما بدّل أكثر خلقه عهد الله اليهم ، فجهلوا حقّه ، واتخذوا الأنداد معه ، واجتالتهم [1] الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسله ، وواتر [2] اليهم انبيائه ، . . . ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة أو محجة [3] قائمة : رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم ، ولا كثرة المكذّبين لهم من سابق سميّ له من بعده ، أو غابر عرفه من قبله ، على ذلك نسلت القرون ، ومضت الدّهور ، وسلفت الآباء وخلفت الأبناء » [4] .

---

(١) اجتالتهم : صرفتهم عن الله .

(٢) واتر : تابع . . ارسل الانبياء يتبع احدهم الاخر .

(٣) المحجة : الطريق المستقيمة الواضحة ، يريد هنا الشريعة التي تتبع .

(٤) نهج البلاغة ـ الخطبة الاولى .

وهكذا يعبّر الامام عن جوانب من أفق الآية الكريمة ، فحين تعقدت الحياة البشرية نتيجة لنمو المجتمع وتشابك العلاقات فيه ، وحين أدّى ذلك الى تصادم بين ما تقضي به الحياة الاجتماعية من تعاون وما تدفع اليه الغريزة والروح الفردية من استئثار . وحين ترافق هذا مع الانحراف عن مقتضيات الفطرة المستقيمة العذراء ـ وان تكن في ذلك الحين بسيطة ساذجة ـ في ادراك الخالق سبحانه وتعالى . . . حين حدث في حياة الانسانية كل هذا اقتضى لطف الله ورحمته وحكمته ارسال الأنبياء ليضيئوا عقول الناس ، ويرتفعوا بالمجتمع من علاقات المادة ـ البيولوجيا ـ الى علاقات المعنى والقانون .

***

وقد تواترت حركة النبوات في تاريخ البشرية : تضيء عقولها ، وتصوغ مفاهيمها ، وتغني حياتها ، وتضعها رويدا رويدا على طريق التكامل . . . تواترت هذه الحركة في خط تصاعدي نحو الاكمل والأفضل والأجمل ، مستجيبة في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري لحاجات تلك المرحلة ، باذرة فيها بذور نموّ آخر في المستقبل يهيء لمرحلة من التقدم والتكامل جديدة . . . الى ان بلغت حركة النبوات ذروتها في الرسالة الخاتمة الجامعة : رسالة الاسلام على لسان خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قال عليه السلام :

« . . . الى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله صلىّ الله عليه وآله وسلم لإنجاز عدته ، واتمام نبوّته ، مأخوذاً على النبيّين ميثاقه ، مشهورة سماته [١] ، كريما ميلاده » [٢] .

وقال في خطبة اخرى :

« . . . بل تعاهدهم ـ الناس ـ بالحجج على ألسن الخيرة

(١) السمة : العلامة ، والمراد علامات النبي محمد التي بشر بها الأنبياء السابقون .
(٢) نهج البلاغة ـ الخطبة الاولى .

من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قرناً فقرنا ، حتى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حجته ، وبلغ المقطع [١] عذره ونذره . . » [٢] .

ب ـ وظيفة النبوّة

ما وظيفة النبوّة في المجتمع البشري ؟

انها فيما نفهم من كلمات امير المؤمنين تتلخص في هدفين كبيرين :

الاول :

وهو أهمهما ، احياء الفطرة الانسانية الصافية المستقيمة ، هذه الفطرة التي يهتدي بها الانسان الى الايمان الصحيح بالله سبحانه وتعالى ، ويدرك بها كونه مخلوقاً لله ، ومن ثم يدرك موقعه في الكون . ويترتب على هذا الايمان الواعي تصحيح المسار الانساني في طريق التكامل بجعل حركة الانسان التاريخية وثيقة الصلة بعقيدة التوحيد ومتفرعاتها .

الثاني :

وهو ، من بعض الوجوه نتيجة للأول ، تكوين الحوافز الروحية والنفسية والاجتماعية لانجاز عملية التقدم العقلي والمادي والاجتماعي في الحياة في صيغة تضمن التوازن بين النمو الروحي ـ الاخلاقي والنمو المادي . وهذه الصيغة التي توازن بين اتجاهي النمو والنشاط الانساني هي الدين .

وهذه هي وظيفة النبوّة كما تفهم من القرآن الكريم والسنّة الشريفة .

فالنبي يخرج الناس من الظلمات الى النور في عقائدهم وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية ، ويصحح نظرتهم الى موقعهم في الكون ، ومن ثم يوجد الانسان الصالح الذي يسعى نحو التكامل فيحقق لنفسه التقدم المتوازن في الشكل والمضمون ، في الروح والمادة .

---

(١) المقطع : النهاية التي ليس عليها مزيد . أي أن اعذار الله وانذاره تلقا نهايتهما برسالة محمد (ص) .

(٢) خطبة الأشباح .

وليس النبي مخترعاً كبيراً ومخططاً عظيما يبدع الآلات والمؤسسات ، وليست النبوّة مركزاً للابحاث والدراسات وما الى ذلك .

ان الذي يخترع الآلات وينشىء المؤسسات ويبتكر الخطط هو عقل الانسان بعد أن تتوفرّ له دواعي النمو والانطلاق . فاذا تآخت معها قيم الروح والأخلاق حقق الانسان انجازات مادية وتنظيمية تتفق مع مقتضيات الايمان ، وتوفّر للانسان حياة سعيدة طيبة ، ورضوان الله والنجاة في الآخرة . واذا لم تتآخ قيم الروح والأخلاق مع دواعي النمو والانطلاق في التعامل مع الكون المادي حقق الانسان انجازات مادية وتنظيمية توفّر له القوة واللذة والرخاء دون ان توفّر له السعادة وطيب الحياة .

***

وفهمنا لوظيفة النبوّة ـ كما تعكسها نصوص نهج البلاغة ـ مستفاد من النصوص التي تحدث فيها الامام عن حالة العالم عشية بعثة النبي محمد (ص) ، ذلك لان النصوص التي تؤرخ للنبوات السابقة لنبوّة محمد (ص) نادرة من جهة ، وتشبه ، من جهة اخرى ، ان تكون في معظمها مجرد اشارات يغلب عليها طابع الاجمال .

ولكن هذا لا يؤثر شيئاً على سلامة فهمنا لوظيفة النبوة ، فانها وظيفة واحدة منذ بداية حركة النبوات في فجر التاريخ الانساني الى ختام النبوّات بنبوة محمد (ص) ورسالة الاسلام . ولا توجد اختلافات جوهرية بين النبوات من حيث وظيفتها الاساسية ، والاختلاف الأساسي الوحيد فيما بينها هو في درجة الشمول والاتساع من حيث مساحة شمول التشريع للنشاط البشري من جهة ، ومن حيث عموم الرسالات بالنسبة الى الشعوب من جهة اخرى .

***

قال عليه السلام :

« . . . فبعث فيهم رسله ، وواتر اليهم انبيائه

يستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكّروهم منسيّ نعمته ، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويرهم آيات المقدرة : من سقف فوقهم مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وآجال تفنيهم ، واوصاب [1] تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم . . . » [2] .

احتوى هذا النص الذي يؤرخ للنبوات السابقة على القضايا التالية في معرض بيان الغاية من ارسال الانبياء :

١ ـ ميثاق الفطرة :

وهذه القضية تعني مسألة الايمان بالله تعالى ، وما يتفرع عن هذا الايمان من قضايا اساسية تنبع منه وتتصل بكافة شؤون الحياة .

وما عبّر عنه الامام هنا وفي مواضع أخرى من خطبه وتوجيهاته هو تعبير عن حقيقة كبرى من الحقائق القرآنية ، ورد النص عليها او الاشارة اليها في عدّة آيات منها قوله تعالى :

﴿ واذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم واشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا انّما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنّا ذريّة من بعدهم ، افتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ ؟ [3] .

وقد تكرّر ذكر هذه القضية الايمانية الكبرى في جميع النصوص التي أرّخ فيها الامام للنبوّات .

---

(١) الاوصاب :

(٢) نهج البلاغة : الخطبة الاولى .

(٣) سورة الاعراف (مكيّة ـ ٧) الاية : ١٧١ ـ ١٧٢ .

٢ ـ اثارة دفائن العقول :

وهذه القضية تعني بعث القوى العقلية والنفسية في الانسان لانجاز عملية التقدم الصحيح والتغيير الايجابي في المجتمع عن طريق الحركة التاريخية المستبطنة للوعي الايماني المستقيم .

٣ ـ جعل الطبيعة موضوعاً للبحث والنظر :

هذه القضية دلّ عليها قوله : « . . . ويرهم آيات المقدرة . . . . » .

وهذه القضية تخدم القضيتين الأوليين ، فان مراقبة الطبيعة لفهمها ، والتعامل معها واكتشافها تعزّز قضية الايمان لأنها تقدم مزيداً من الأدلة التجريبية على ما أدركته الفطرة السليمة من قضايا الألوهة . كذلك يعين التعامل مع الطبيعة بصورة مباشرة على انجاز عملية التقدم ، بل هو شرط اساسي لانجاز التقدم المادي ، واذ تتّحد قضية الايمان في ذات الانسان مع حركته التاريخية في الطبيعة والمجتمع فيكون تقدم على هدى الايمان وأخلاقيات الروح والعقل ، ويكون ايمان يستجيب للحياة الدنيا ولا يقف منها موقف الرفض والعداء .

***

في نص آخر أرّخ الامام للعالم حين بعثة النبي محمد (ص). قال :

« . . . الى أن بعث الله سبحانه محمداً (ص) . . . وأهل الأرض يومئذ ملل متفرّقة ، وأهواء منتشرة ، وطرائق متشتّتة ، بين مشبّه لله بخلقه او ملحد في اسمه ، او مشير الى غيره ، فهداهم به من الضلالة ، وأنقذهم بمكانه من الجهالة . . . »[1] .

وقال في نص ثان :

« بعثه والناس ضلاّل في حيرة ، وحاطبون[2] في فتنة ، قد

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة الاولى .

(٢) الحاطب هو الذي يجمع الحطب ، يقال لمن يأخذ بالصواب والخطأ دون تمييز : حاطب ليل ، شبه للفتنة =

استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم الكبرياء [1] ، واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء . حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل ، فبالغ (ص) في النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة » [2] .

وقال في نص ثالث :

« وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ارسله بالدين المشهور . . . والناس في فتن انجدم [3] فيها حبل الدّين ، وتزعزعت سوارى [4] اليقين ، واختلف النجر [5] وتشتّت الأمر ، وضاق المخرج وعمي المصلا ، فالهدى خامل والعمى شامل ، عصي الرحمان ونصر الشيطان ، وخذل الايمان ، فانهارت دعائمه ، وتنكّرت معالمه ، ودرست سبله ، وعفت شركه [6] أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ، وورد مناهله [7] ، بهم سارت أعلامه ، وقام لواؤه ، في فتن داستهم بأخفافها ، ووطئتهم باظلافها وقامت على سنابكها [8] فهم فيها تائهون . . . حائرون . . . جاهلون . . . مفتونون . . . » [9] .

= بالليل الذي تلتبس فيه الأشياء لظلامه حيث ان الحق يلتبس فيها بالباطل .

(١) استزلتهم : أوقعتهم الكبرياء في الزلل والسقوط ، يعني بذلك فساد حياتهم الاجتماعية .

(٢) استخفتهم : جعلتهم طائشين مندفعين وراء شهواتهم الجسدية والنفسية دون كابح ورادع .

(٣) نهج البلاعه ، رقم الخطبة : ٩٣ .

(٤) انجدم : انقطع .

(٥) السارية هي العمود ، يدعم بها السقف ، والجمع سواري .

(٦) النجر : الاصل ، ومثله : النجار .

(٧) درست واندرست بمعنى زالت وانطمست . والشرك ـ بضمّ الراء ـ جمع شراك ، الطريق . وعفت شركه بمعنى انطمست .

(٨) المناهل : جمع منهل ، مورد النهر .

(٩) الاخفاف جمع خف ، وهو للبعير كالقدم للانسان . والظلف للبقر والشاء . والسنابك جمع سنبك : طرف الحافر .

اشار الامام في هذه النصوص الى وجوه الفساد التي كان يعاني منها العالم عشية بعثة رسول الله (ص) ، وهي وجوه الفساد الكبرى في كل عصر وفي كل أمة ، فاصلاحها هو وظيفة النبوّة في حركتها الصاعدة منذ بدأت في مستهل التاريخ البشري الى أن ختمت بمحمد (ص) .

الأول :

الضلال في العقيدة ، فالناس ضلاً في حيرة . . . وحاطبون في فتنة ، وهم حائرون لانه حيث لا يستقر الانسان على عقيدة أو يؤ دي به الفساد العام الى عقيدة باطلة ، فانه يشعر بالضياع ويشعر بانعدام الهدف . . . انعدام المعنى من وجوده ، يشعر بالعبث حين يواجه نفسه بسؤ ال : من أنا ؟ لماذا انا هنا ؟ ما المعنى لوجودي ؟ . . . وهكذا يمضي هذا الانسان الضائع في التماس الجواب حيث لا جواب ، لانه « . . بين مشبّه لله بخلقه ، أوملحد في اسمه ، او مشير الى غيره » .

الثاني :

الفساد السياسي والاجتماعي ، فالناس قد اوقعتهم كبرياؤ هم التي لا مبرر لها في الزلل والسقوط الحضاري ، فحملت اقويائهم على احتقار ضعفائهم وفقرائهم . . . وخاصّتهم الى الاستهانة بعامّتهم ، فهانت كرامة الانسان من حيث هو انسان ، وغدا مقياس الكرامة خاضعاً لعوامل غير انسانية : للثروة ، او للقوة ، او للنسب ، وما اليها . لقد غدا الناس ـ نتيجة لذلك سللاً متفرقة متناحرة ، لكل ملّة مذهب وطريق ، ولكل فئة هوى واتّجاه ، ولكل فريق منهج وغاية ، والكل مفتون برأيه ، مأخوذ بهواه ، يعمل على شاكلته .

والنبوّة تعالج وجوه الفساد كلّها في الانسان والمجتمع ، في الروح وفي المادة ، والمؤ سسات لتحقق الغاية العظيمة النبيلة ، وهي تكوين الانسان المتكامل .

وقد أعلن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هدفهم هذا على مدى التاريخ ، كل واحد منهم في المحيط الذي بعث اليه في الزمان الذي كان

فيه . . . الى أن ختمت النبوّة بمحمد (ص) فكان الهدف العظيم بحجم امتداد الرسالة الخاتمة في الزمان والمكان على مستوى البشرية كلها وعلى مدى المستقبل كله . . . الى نهاية الزمان : « فبالغ (ص) في النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة « . . . » . . . فهداهم به من الضلالة ، وانقذهم بمكانه من الجهالة » .

وقد اثمر جهد الأنبياء العظيم النبيل وجهادهم ومن اتبعهم وجرى على سنتهم ـ أثمر تحقيق هذا الهدف العظيم الذي هو وضع الانسانية على طريق التكامل .

وربما كان هذا القول مثيراً للدهشة والتعجب ، والتساؤ ل :

كيف حقق الأنبياء الكرام هدفهم هذا ولم يؤمن بهم الا القليل ، واعرض عنهم اكثر الناس ، بل حاربوهم ورفضوهم . . ؟

ان هدف النبوّة قد تحقق في كل عصر ، وعلى عهد كل نبي في صورتين :

احداهما : فيمن آمن بالنبي وصدق به واتبع منهاجه ، فالتزم في حياته العامة والخاصة بالعقيدة والشريعة اللتين اشتملت عليهما رسالته .

والصورة الأخرى تتمثّل في الجو الثقافي والروحي العام الذي اشاعته الرسالة النبوية في المجتمع نتيجة لتبليغ النبي واتباعه ، وللصراع الفكري والاجتماعي الذي ولّدته الرسالة في المجتمع ، فان هذا المناخ الثقافي يترك آثاره بلا شك على المفاهيم والمؤسسات والقيم والقناعات التي تسود المجتمع ، ويدفع بها نحو التغيير بصورة لا شعورية ، فينتقل المجتمع الى حالة افضل في علاقاته وقيمه ومؤسساته وحوافز العمل فيه ، وان كان اكثر هذا المجتمع كافراً برسالة النبي .

ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هم آباء الحضارة الانسانية والمدنية الانسانية . وما من خير بلغته وتمتعت به البشرية في عقولها واذواقها وقيمها ومؤسساتها وحوافز العمل من اجل التقدم المادي عندها الأ

وللانبياء فيه فضل كبير ، لأنهم ـ على مدى التاريخ ـ اشاعوا ، بما بثوه من الوحي الالهي في الناس ، روحاً جديدة في كل مجتمع تنبثّ كالنور . . . كالعافية فيه فتضيء ، بدرجات متفاوتة ، مناطق الظلمة ، وتلمس ـ بدرجات متفاوتة ـ مناطق البؤس والمرض فيه . وكان تأثير هذه الروح النبوية متفاوتاً بنسبة مقاومة قوى الشر حين تعي درجة تأثير الخير النبوي ، وبقاء هذا الخير حراً في التأثير حين تغفل قوى الشرعية او ترى لنفسها مصلحة فيه .

وهكذا ، فمن هذا المنظور نفهم ان كل نبي قد هدى الله به الناس من الضلالة ، وانقذهم بمكانه من الجهالة . فهم صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين آباء الانسانية الكرام ، وآباء الحضارة العظام .

***

وهذا نص آخر يضيء به الامام جانباً آخر من جوانب وظيفة النبوّة في نطاق الهيكلين العظيمين ، قال عليه السلام :

« قد حرفت نحوه أفئدة الأبرار ، وثنيت اليه أزمّة الأبصار . دفن الله به الضّغائن [1] وأطفأ به الثّوائر [2] . ألّف به اخوانا ، وفرّق به أقرانا . أعزّ به الذّلّة ، وأذلّ به العزّة » [3] .

في هذا النص كشف الامام عن عمل النبوّة في تغيير القيم السائدة في المجتمع هذه القيم التي تحكم وتوجه العلاقات داخل المجتمع بين فئاته وافراده ، وإبدالها بقيم اخرى متّسقة في طبيعتها مع طبيعة الرسالة النبوية لأنها مستمدة منها . وما يترتب على ذلك من تغيّر في المفاهيم والقناعات ، ومن تبدل في نوع العلاقات نتيجة لتبدل القيم الجاهلية بالقيم النبوية .

لقد ثنيت أزمّة الأبصار نحو الرسول الأكرم (ص) كما كانت تثنى نحو

(١) الضغائن : الأحقاد المكتومة .

(٢) الثوائر : الاحقاد المتفجرة في اعمال عدائية عنيفة ومعارك .

(٣) نهج البلاغة ، رقم الخطبة ٩٤ .

كل نبي في مجتمعه ، لأنه قد أثار اهتمام الناس كلهم ، وأوجد هزّة راحت تنداح على المجتمع كله وتنفذ في أعماقه . وهذه الفكرة تضيء التحليل الذي بيّنا فيه آنفاً ان أثر النبّوة الخيّر لا يقتصر على المؤمنين بالنبي ورسالته وحدهم ، وانّما يتعداهم ليشمل ببركاته المجتمع كله .

لقد أدّت القيم الجديدة التي جاء بها النبي الى تغيير المفاهيم ، ومن ثمّ الى تغيير عميق وجذري في العلاقات الاجتماعية بين الافراد والفئات ، والى احداث التبدلات الاجتماعية .

لقد دفنت به الضغائن ، لأن أسباب تولّدها قد زالت ، ومن ثم فقد زالت أسباب تفجّرها فزالت الثوائر .

لقد نعم المجتمع كله بدرجة عالية من الاستقرار والطمأنينة بعد أن انخفضت الى أدنى الدرجات مظاهر العنف والتوتر فيه نتيجة لتبدّل المفاهيم والقيم التي كانت سائدة فيه بمفاهيم وقيم أخرى بثّتها النبوّة .

وقد أدّت القيم الجديدة الى ايجاد علاقات جديدة :

فألّف الله بالنبي . . . بالقيم التي بشّر بها واذاعها في الناس ، اخواناً في الايمان ، وفرقت هذه القيم الايمانية بين أقران اختلفت بهم الطريق حين هتف صوت النبوّة في المجتمع ، فسلك بعضهم طريق الايمان ، وبقي الأخر على طريقه القديمة ، وقيمه القديمة ، طريق الجاهلية وقيم الجاهلية .

كما أدّت هذه القيم الجديدة الى تغيير في المراتب الاجتماعية ، لأن القيم القديمة التي كانت تجعل اساس الترتيب في البنية الاجتماعية بين الأشخاص او الفئات متمثلاً في المال ، أو السلالة والنسب ، أو القوة الحربية . . . هذه القيم قد زالت وحلّت محلها قيمة جديدة غدت هي الاساس الذي يقوم عليه الترتيب الاجتماعي ، وهي التقوى [1] ، ومن ثم فقد أعز الله بالنبي . . . بالقيم التي

(١) في شرح مفهوم التقوى الاسلامي وبيان مكوّناته وأبعاده راجع كتابنا (دراسات في نهج البلاغة) فصل : المجتمع والطبقات الاجتماعية .

جاء بها الذلة التي كانت تفرضها القيم الجاهلية القديمة على الفقراء والمستضعفين ، وأذلّ به العزة التي كانت تنشأ من قيم غير ايمانية .

من تاريخنا الاسلامي تحفل السيرة النبوية بمئات من الشواهد والنماذج .

فالأذلاء في الجاهلية كعمار بن ياسر وبلال الحبشي غدوا أعزاء في المجتمع الجديد ، لأن القيم الجاهلية التي كانت تفرض عليهم ان يكونوا اذلاء في مرتبة اجتماعية متدنية قد زالت بالاسلام . وجاء الاسلام بقيم جديدة غيّرت موقعهم في المجتمع فجعلتهم من النخبة ، والأعزاء في الجاهلية غدوا أذلاّء لأن القيم التي كانوا يتكئون عليها ويستمدون منها اعتبارهم الاجتماعي ويتبوأون مركز النخبة فيه . . . هذه القيم قد زالت بالاسلام وحلّت محلّها قيمة جديدة هي التقوى ، وحيث انهم لم يتحلّوا بهذه القيمة الجديدة فقد غدوا من الأذلاّء .

***

وثمة نصوص في نهج البلاغة تحدث فيها الامام عن حالة العرب بالنسبة الى تأثير النبوّة في أوضاعهم الحياتية والمعنوية .

ففي النص التالي صوّر أمير المؤمنين حالة المجتمع العربي الجاهلي عشية بعثة النبي محمد (ص) ، في جميع وجوه حياته التي كان عليها من النواحي الروحية والاجتماعية والاخلاقية . قال عليه السلام :

« ان الله بعث محمّدا (ص) نذيرا للعالمين ، وأمينا على التنزيل ، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار فينخون (١) بين حجارة خشن وحيّات حمّ (٢) تشربون الكدر ، وتأكلون الجشب (٣) ، وتسفكون دمائكم وتقطعون

---

(١) فينخون : مقيمون .

(٢) خشن : من الخشونة . والحيات الصم أخبث انواع الحيات . كنى عن صعوبة مناخ البادية وقساوة العيش فيها .

(٣) الكدر : الماء الذي يخالطه الطين وغيره ، والجشب من الطعام : الغليظ الخشن كناية عن بؤس حياتهم وفقرها ، وانعدام وسائل الراحة فيها .

ارحامكم، الأصنام فيكم منصوبة[1] والآثام بكم معصوبة»[2].

انهم كانوا على شر دين .

كانت الاصنام فيهم منصوبة يتوجهون اليها بالعبادة والضراعة ، كانوا ، اذن ، وثنيين ، وكانت وثنيتهم ، التي استعاروها من هنا وهناك ، بدائية متخلفة خالية من الجمال الفني والذوق اضافة الى خلوها ، بطبيعة الحال ، من كل مضمون روحي سليم .

وكانوا في شر دار .

كانت دارهم البادية القاحلة المجدبة التي تفرض عليهم شروط حياة صعبة قاسية جعلت من حياتهم سلسلة من الاخطار والمتاعب وألوان الحرمان .

وكانوا ـ بسبب ما هم عليه من افلاس روحي لأنهم على شر دين ، ومن تخلف في حياتهم المادية لأنهم في شر دار ـ . . . بسبب هذا وذاك ـ كانوا على شر حال في حياتهم الاجتماعية وعلاقاتهم الانسانية ، فهم يقطعون ارحامهم ، وهم يسفكون دمائهم . وهم ـ بالاجمال ـ يكدحون باستمرار لتوفير حياة متخلفة ، قاسية ، فقيرة في الشكل والمضمون في ظل علاقات اجتماعية وانسانية فاسدة .

***

في نص آخر يؤرخ الامام للتغيير الذي ادخلته النبوّة على حياة العرب ، ويسجل ملامح عامة للحال التي انتقلوا منها وللحال التي صاروا اليها بعد الاسلام .

قال عليه السلام :

« أمّا بعد فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا (ص)
وليس احد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدّعي نبوّة ولا وحيا ،

(١) معصوبة : مشدودة ، كناية عن استمرارهم على المعصية .

(٢) نهج البلاغة : رقم الخطبة ٢٦ .

فقاتل بمن أطاعه من عصاه ، يسوقهم الى منجاتهم ، ويبادر بهم السّاعة ان تنزل بهم بجسر الحسير ويقف الكسير [1] فيقيم عليه حتى يلحقه غايته ، الاّ هالكا لا خير فيه ، حتى أراهم منجاتهم [2] وبوّأهم محلّتهم [3] ، فاستدارت رحاتهم [4] واستقامت قناتهم » [5] .

كان العرب أميين لا يقرأون ومن ثم فقد كان الجهل سائداً فيهم ، وكانوا بعيدي عهد بالنبوّات ورسالات السماء ومن ثم فقد كانت حياتهم الروحية فقيرة هزيلة مشوّهة . وقد جهد رسول الله في اخراجهم من الظلمات . . . كل الظلمات :

ظلمات الروح والعقل والحياة ، الى كل النور ، من التخلف الى التقدم ، ومن الجهل الى المعرفة ، ومن العمى الروحي الى نعمة الايمان الكبرى .

وبذلك بلغهم ساحل النجاة في الدنيا والآخرة .

وبذلك اعطاهم دوراً عالمياً ـ بما هم مسلمون ـ يحملون فيه الهدى والنور والكرامة الى جميع الأمم بعد أن كانوا كمية مهملة لا قيمة لها ولا قدر ولا دور .

وبذلك اعطاهم لين الحياة ، وكرامة الحياة ، واستقرار الحياة .

لم تعد حياتهم قاسية صعبة ، بل لقد استدارت رحاهم بالأرزاق .

ولم تعد حياتهم قلقة متوجسة متوحشة ، بل لقد استقرت واطمأنت .

واستقامت قناتهم فلم تعد مشرعة لأجل العدوان أو لأجل رد العدوان .

سلام الله وتحياته على جميع الأنبياء والمرسلين .

---

(١) الحسير هو الذي اصابه الاعياء والتعب . والكسير المكسور الذي لا يقوى على السير ، يريد ان النبي كان لحرصه على الاسلام واشفاقه على المسلمين يلاحظ حال من حدثت عنده شبهة او خالط قلبه ريب في الدين فلا يزال يرشده برفق وحب حتى يزيل من قلبه الريب ويجلو عن عقله الشبهة .

(٢) منجاتهم : ما به نجاتهم وهو الاسلام .

(٣) محلتهم : مركزهم في المجتمع العالمي ، وكونهم ذوى رسالة عالمية هي الاسلام .

(٤) استدارة الرحا كناية عن وفرة الارزاق . واستقامة القناة كناية عن صلاح الحال واستقرار الحياة .

(٥) نهج البلاغة : رقم الخصبة ١٠١ .

- ٢ -
وعي التاريخ

من المؤكد أن الانسان العربي الجاهلي ـ قبيل الاسلام ـ كان يعوزه الوعي التاريخي بالمعنى الذي عرفته الشعوب المتحضرة ذات الثقافة المدونة ، وذات المؤسسات السياسية والادارية الراسخة العريقة . هذا فضلاً عن أن يكون الوعي التاريخي بالمعنى الذي عرفه انسان العصور الحديثة قد وجد لدى الانسان العربي الجاهلي قبيل الاسلام .

وهذا الحكم ينطبق بوجه خاص على عرب الشمال ، وان لم يكن عرب الجنوب ـ كما سنرى ـ افضل حالا منهم بكثير .

فقد كان العربي الجاهلي ، قبيل الاسلام ـ يعيش حياة البداوة بما يلزمها من تنقل وارتحال طلبا للكلأ وللماء ، ومن ثم لم يكن لدى العربي مؤسسات ثابتة ، ونظم سياسية وادارية .

وكانت الأمية غالبة على هذا المجتمع ، ومن ثم فلم ينشىء ثقافة مدونة بأي نحو من الأنحاء إلا نقوشاً نادرة لا تبلغ ان تكون ثقافة مدونة تسهم في تكوين الشخصية الثقافية للانسان ـ لا نستثني من ذلك عرب الجنوب الذين كانوا قد فقدوا قبيل الاسلام ـ بانهيار نظام الريّ عندهم ـ الكثير من سماتهم كشعب متحضر له ماض عريق ، وغدوا أقرب الى البدواة والأمية .

وكانت الحياة من البساطة والسذاجة بحيث أن أحداثها البارزة كانت

نادرة جداً ، ومحدودة المدى جغرافياً وبشرياً ، وهذه الأحداث هي التي شكّلت مادة ما يسمى « أيام العرب » التي سنعرض للحديث عنها بعد قليل .

كما لم يكن لدى العربي الجاهلي شعور بالزمن المستمر كمفهوم حضاري ، كان الزمن عنده مجرّد تعاقب للظواهر الفلكية والفصول . ومن المعلوم انه لم يكن لدى العربي الجاهلي تقويم .

ونتيجة لكل هذه العوامل لم تتكوّن لدى العربي أية خبرات تاريخية ماضية ذات شأن ، ناشئة من وقوع الأحداث نفسها من ناحية والشعور بها من ناحية أخرى ـ إلا أحداث مشتتة غير مترابطة ـ بل في نطاق نظام للتعاقب الزمني وللعلاقات الداخلية فيما بينها .

وبعبارة أخرى : لم يكن لدى العربي الجاهلي شعور باستمرار الأحداث وديمومتها ، وتفاعلها الداخلي ، وعلاقاتها بحاضره ، وامكانات تأثيرها في المستقبل على النحو الذي يصح ان يسمى وعياً تاريخياً . لقد كان وعي الماضي على هذا النحو لدى العربي الجاهلي قبيل الاسلام معدوماً .

نعم، لقد كان ثمة وميض من الشعور بالماضي لدى العربي في الجاهلية .

كانت الذاكرة تحمل صوراً غامضة ، هلامية الشكل ومشوهة لهذا الماضي ناشئة من القصص الذي كان يسمى « الأيام » ، ومن العناية بالأنساب . لقد كانت « الأيام » والأنساب هما « البعد التاريخي » للانسان العربي .

ان هذا الوميض من الشعور بالماضي لا يرقى ، بالتأكيد ، الى ان يكون وعياً تاريخياً بالمعنى الذي نفهمه الآن .

فقصص الأيام نادراً ما تملأها الأحداث الكبرى ذات الشأن السياسي والانساني وهو ما يعطي التاريخ حقيقته ومعناه. وغالب احداثها يتكوّن من معارك صغيرة بين مجموعات قبلية ، يعطيها الخيال الشعري والنصوص الشعرية المرافقة لها وهجاً وحجماً غير واقعيين .

كما انها تفقد عنصر الترابط فيما بينها ، ولا تأخذ في جميع الأحوال بنظر الاعتبار عنصر السببيّـة ، ولا تقوم بينها علاقات داخلية .

وهي خالية من عنصر الزمن ، وخلوّها من عنصر الزمن ليس ناشئاً من اهمال ، بل ناشيء من عدم ادراك العربي الجاهلي لعامل الزمن التاريخـي كما اشرنا آنفا .

وكانت قصص الايام تتداول في حلقات السمر التي تعقد امام الأخبية والخيام للتسلية والمتعة ، وللمفاخرة في بعض الحالات . ولـم تكن تتداول كمادة علمية . والرأي الراجح انها لـم تدوّن على الاطلاق .

والأنساب وان كانت تدل على شعور بالماضي من خلال وعي الانتماء الى الاباء الذين تشتمل على ذكرهم شجـرة النسـب القبيلية ، الاّ ان علمنـا بأن شجرات الانساب كانت تقتصر على مجرّد ذكر الأسماء فقط دون ان تحتوي على أية مادة تاريخية ، علمنا بهذا الوضع لشجرات الانساب التي كانت تتداول عن طريق الروايات الشفـوية يجعـل قيمتهـا كمصـدر لتكوين الوعـي التاريخـي معدومة .

ومن المؤكّـد ان شجرات الانساب في العصر الجاهلي لم تعرف أيّ شكل من أشكال التدوين يتيح فرصة اضافة مادة تاريخية اليها . ولم تدوّن شجرات الانساب في كتب الا في عصر اسلامي متأخر نسبياً .

ويظهر لنا هذا الوميض من الشعور بالماضي لدى العربـي الجـاهلي في الشعور الذي يصور مواقف أخلاقية للشاعر في مجالات الحـرب ، والـكرم ، والوفاء ، وما الى ذلك ، حيث تدفع الشاعر خشيته من (احاديث الغد) التي تعكس مسلكية غير نبيلة الى ان يجعل سلوكه منسجماً مع قيم النبالة كما تقضي بهـا اخـلاقيات المجتمـع الجـاهلي فيكون وفياً ، وشجاعـاً حتـى الموت ، وكريما . . .

هذا الشعور يمكن ان يكون نواة للوعي التاريخي ، ولكنـه لا يرقـى ،

بطبيعة الحال ، الى أن يكون وعياً تاريخياً بالمعنى الذي حددناه آنفاً . انه وعي ناشىء عن قيم اخلاقية بدوية الطابع ، وليس عن وجود تاريخ يستوعبه الشعور والوجدان ، وهو مقصور على حالات فردية لم تبلغ ان تكون وعياً عاماً . وهو شعور بالخشية من تصرّف شخصي او موقف شخصي قد يدفع الآخرين الى ادانته ، وليس شعوراً بانجازات الآخرين وتفاعلا معها .

***

كان هذا حال العربي الجاهلي .

ولكن الحال تغيّر بعد ظهور الاسلام تغيّراً كاملا .

ان القرآن الكريم والسنّة الشريفة قد كشفا للعربي تدريجا عن عمقه في الزمان باعتباره مسلما . وغدا القرآن والسنّة يغذيان على مهل وعي المسلم بعمقه التاريخي من خلال القصص الذي يؤ رخ للأمم الماضية ، وأنبيائها ، ومواقفها منهم باعتبارهم أنبياء ، وحالات ازدهارها ، وانحطاطها ، وفنائها .

ومن خلال هذا الوعي أدرك المسلم انه باسلامه ، وجهاده اليومي ـ بالسيف والكلمة ـ في داخل الجماعة الاسلامية التي تبني نفسها بعين الله وعلى يد رسول الله ، وفي مواجهة المشركين . . . ادرك بوضوح كامل انه بعمله اليومي هذا يصنع تاريخاً موصولاً بما وعاه من تاريخ الأمم الماضية كما تعلّمه من الكتاب والسنّة . وهكذا وجد الوعي التاريخي لدى الانسان المسلم .

***

وللتاريخ وظيفة تتعدى شعورنا بالاستمرار والديمومة . وهذه الوظيفة تربوية اخلاقية . لا يعني هذا أن التاريخ يتحوّل الى مادة وعظية فقط ، فان البحث والنقد غرضان من اغراض التاريخ بلا شك ، ولكن الوظيفة النهائية بعدهما هي ، كما قلنا ، تربوية اخلاقية .

وهذه الوظيفة تستمدّ معالمها وطبيعتها من طبيعة النهج الذي تسلكه الأمة في بناء نفسها ، ومن طبيعة الدور الذي تعد نفسها للقيام به في محيطها الاقليمي

أو على المستوى العالمي ، ولذا نرى أن كل أمة ذات نهج فكري مميّز لشخصيتها تجعل التاريخ مادة بانية لهذا النهج الذي ارتضته .

وهذا لا يعني ـ بطبيعة الحال ـ ان يحرّف التاريخ ليكون أداة دعائية وسياسية . ان الأمانة للحقيقة يجب ان تكون دائماً مرعيّة ، وانّما يعني ان التاريخ ليس مادة ترف فكري وتسلية . انه مادة شديدة الخطورة اذا تولى استعمالها في الشأن العام رجال لا يقيمون للاخلاق وزناً ولا تحركهم روح رسالية ، وأجهزة كذلك . . . رجال وأجهزة يحركهم التعصب والغرور القومي والعنصري . . . في هذه الحالة قد يوجّه التاريخ ليكون مبرّراً نظرياً وعاملا نفسياً لدى الجماهير يخدم الطغيان والاتجاهات العدوانية لدى السياسيين ورجال الحرب ضد أمة اخرى ، وفي هذه الحالة يتعرض التاريخ للتزوير والتحريف .

والتاريخ حافل بأمثلة عن تسخير التاريخ لغايات غير اخلاقية وغير رسالية في العصور القديمة وفي العصر الحديث .

وللتاريخ في الاسلام ـ انطلاقاً من هذا الفهم ـ وظيفة تتصل بطبيعة الانسان المسلم وطبيعة المجتمع الاسلامي .

ان الانسان المسلم انسان اخلاقي يعتنق رسالة عالمية ، والمجتمع الاسلامي مجتمع اخلاقي وذو رسالة عالمية .

واذن فالتاريخ ينبغي ان يخدم الرسالية والاخلاقية في علاقات المسلم الداخلية والخارجية ، كما ينبغي ان يخدم الرسالة والروح الرسالية في العالم .

وكلما حدث في سلوك المسلم او في سلوك الجماعة الاسلامية انحراف عن الاخلاقية او انحراف عن الروح الرسالية في ممارسة الحياة والتعامل مع الآخرين فان التاريخ يستعمل ، الى جانب الوسائل التربوية الاخرى والتنظيمية لتصحيح النظرة الخاطئة ، وتقويم مسار الفرد والمجتمع .

والقرآن الكريم حافل بالشواهد على هذه الحقيقة نذكر منها شاهداً مميزاً

لانه يتضمن تعبيراً غدا مصطلحاً اسلامياً في الشأن التاريخي ، هو مصطلح « أيام الله » الذي يعني الأحداث الكبرى في تاريخ كل امة سواء أكانت نجاحات كبرى وانتصارات باهرة او نكبات عظمى وانهيارات مأساوية .

وقد ورد هذا التعبير (أيام الله) في القرآن الكريم مرة واحدة فقط ، وذلك في سياق الآيات الكريمة التي تضمنت بيان تربية وتوجيه نبيّ الله موسى بن عمران سلام الله عليه لبني اسرائيل وهدايتهم الى الايمان الصحيح ، ورفع مستوى ادراكهم من حالة الجهالة والبداثية والمادية الى المستوى الايماني ـ الحضاري . قال الله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ان أخرج قومك من الظّلمات الى النور ، وذكّرهم بأيّام الله . انّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور ﴾ [1] .

وورد ذكر هذا المصطلح في نهج البلاغة في موضعين :

أحدهما في كلام للامام عند تلاوته قوله تعالى ﴿ يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . . ﴾ قال في وصفهم :

« . . . وما برح لله . . عباد ناجاهم [2] في فكرهم ، وكلّمهم في ذات عقولهم ، فاستصبحوا [3] بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة ، يذكّرون بأيّام الله ، ويخوّفون مقامه . . . » [4] .

وثانيهما في كتاب له الى عامله على مكة قثم بن العباس [5] ، قال فيه :

---

(١) سورة ابراهيم (مكيّة ـ ١٤) الآية : ٥ .

(٢) ناجاهم : خاطبهم بالالهام .

(٣) استصبح : أضاء مصباحه .

(٤) نهج البلاغة : رقم النص ٢٢٠ .

(٥) قثم بن العباس بن عبد المطلب . كان من مساعدي الامام علي (ع) في تجهيز رسول الله (ص) ودفنه ، وهو آخر من خرج من القبر الشريف ، ولاّه أمير المؤمنين على مكة ، فلم يزل واليا عليها الى ان استشهد =

« أمّا بعد ، فأقم للنّاس الحجّ ، وذكّرهم بأيّام الله » [1] .

***

من هذا المنطلق ، وعلى هذا الاساس كان الامام عليه السلام يتعامل في توجيهه الفكري ، وفي وعظه ، وفي تعليمه وتوجيهه السياسي مع التاريخ ، وكان يوجّه المسلمين الى ان يعوا التاريخ على هذا الاساس ، وان يتعاملوا مع التاريخ من هذا المنطلق الذي يخدم الأخلاقية والرسالية .

ولعلّ الخطبة القاصعة [2] أفضل مثال على طريقة تعامل الامام علي مع التاريخ بهدف التربية وتقويم سلوك المجتمع أخلاقياً ، وتوعيته بمسؤوليته الرسالية ، وسندرس في فصل آت جوانب من هذه الخطبة .

ويمكن أن نكوّن فكرة مقاربة للحقيقة عن جهود الامام الفكرية في حقل التوعية بالتاريخ اذا لاحظنا ان الكثير مما ورد في نهج البلاغة ـ وهو قليل من كثير من كلام الامام وخطبه ـ ان لم يكن اكثر ما ورد في كلامه في النهج من المواد التالية (و . ع . ظ / ح . ذ . ر / ز . ج . ر / ع . ب . ر) ... كان الامام قد خاطب به الناس في حالات شتّى وأزمان شتى ، موجهاً تفكيرهم نحو التاريخ بهدف التربية وتقويم السلوك الفردي والاجتماعي في شؤون الحياة عامة من روحية واجتماعية وسياسية . ولا يختص ما رُوي عنه في هذا الشأن بالوعظ وحده كما ربما يتوهم البعض .

ومن أمثلة ما أشرنا اليه آنفا قوله عليه السلام في مواضع من نهج البلاغة :

« وعظتم بمن كان قبلكم ... » « ... فأتعظوا عباد

= الامام ، واستشهد قثم بسمرقند ، كان خرج اليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية ، وقبره في سمرقند مشهور . وقد زرناه اثناء مشاركتنا في المؤتمر الديني .

(١) نهج البلاغة : رقم النص (باب الكتب) ٦٧ .

(٢) الخطبة القاصعة رقمها في نهج البلاغة : ٢٩٠ .

الله بالصبر النّوافع . . . » « . . . واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال ، فتذكّروا في الخير والشرّ أحوالهم ، واحذروا ان تكونوا أمثالهم » . . . وأتعظوا بالذين قالوا﴿من أشدّ منّا قوّة ﴾ »[1] .

الى أمثال هذه العبارات التي ورد كثير منها في خطبه وكتبه .

فقد كان الامام يقاتل بكل سلاح نزعة الشرّ والانحراف وتيار الفتنة التي بدأت تجتاح المجتمع الاسلامي . وكانت توعية المجتمع بالتاريخ أحد هذه الأسلحة .

---

(١) سورة فصلت (مكية ـ ٤١) الآية ١٥ : ﴿ فان عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا : من أشد منّا قوة . . . ﴾ .

- ٣ -
التاريخ يعيد نفسه

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

من البديهي أن التاريخ لا يعود مرة أخرى الى ساحة الحاضر أو المستقبل إذا أردنا من هذه القضية عودة تفاصيله وجزئيات أحداثه ، فالأحداث ليست أشياء مجرّدة تقع في الفراغ دون أن تكون لها صلة بالبشر ، وإنّما الأحداث بما هي صنع البشر تحمل السّمات الشخصية الخاصة لصانعيها : تحمل طابع مصالحهم الآنية ، وأمزجتهم وعواطفهم ، وأخلاقياتهم وطريقة فهمهم للحياة . . . وقد تذهب هذه السمات الشخصية المميّزة مع اصحابها ، ولن تعود على الاطلاق ، وإذن ، فالتاريخ بهذا المعنى لا يعود ولا يتكرر .

إن ما حدث في الماضي قد حدث مرة واحدة ، ولن يحدث مرة أخرى ، لن يتكرر ، على الاطلاق .

أمّا إذا أردنا من هذه القضية عودة نمط الحركة التاريخية ومظاهره العامة وآثارها النفسية والاجتماعية في المجتمع فإن التاريخ يعود بالتأكيد حين تتوفّر في الحاضر . . . في نسيجه الاجتماعي وعلاقاته الانسانية الأسباب الموضوعية التي أدت الى نشوء نمط الحركة التاريخية في الماضي .

إن الانسان هو الانسان في كل زمان .

إنه يتحرك في الزمان والمكان مدفوعاً ـ فرداً وجماعة ومجتمعاً ـ بمصالحه

وعلاقاته وعواطفه ، والعقائد والشرائع والمثل والقيم الأخلاقية والروحية إذا تأصلت فيه وتعمقت في وجدانه وكيّفت نظرته الى الكون والحياة والانسان فإنها تكون قادرة على أن تدخل تغييراً عميقاً على عواطفه ومصالحه وعلاقاته في المجتمع والعالم ، ومن ثمّ فإنها تكون قادرة على تغيير تاريخه ونقله الى مسار جديد ، ما دامت لا تواجه عقبات فشل فاعليتها وتأثيرها .

أمّا إذا فشلت العقائد والشرائع والمثل والقيم الأخلاقية والروحية في إدخال التغيير المناسب لها على تكوين الانسان النفسي وعلى تقديره لمصالحه ، لأنها لم تتأصل في أعماقه ولم تغيّر نظرته الى الكون والحياة والانسان ، فإن تاريخه في هذه الحالة سيتكرر .

إن هذا التاريخ الجديد لن يحمل نفس السّمات والخصائص الماضية في الغالب ، ولكنه يحمل نفس الروح ، ويخلّف في المجتمع نفس الآثار التي كانت في الماضي تحمل أسماء جديدة وتقدم نفسها بمبررات جديدة لا تعدو أن تكون مجرّد قشرة خادعة يستطيع المؤرخ الباحث أن يكتشف ما وراءها فيتجاوزها الى العمق ليجد الواقع القديم تحت الأشكال الجديدة[1] .

***

في أول خطبة خطبها أمير المؤمنين عليّ بعد أن بويع بالخلافة في المدينة نرى أنه قد لاحظ عودة الأشكال القديمة للانقسامات القبلية والفئوية داخل المجتمع العربي الجاهلي الى المجتمع الاسلامي في عهد عثمان وبعد مقتله بكل ما كانت تحتويه هذه الأشكال من روح قبلية وعنصرية ، وأخلاقيات جاهلية رجعية .

(١) من الظواهر الهامة التي نقدّر أنها تستحق من المفكرين والمؤرخين بحثاً معمقاً ، ظاهرة الانقسامات الاقليمية في العالم العربي ، فإننا نقدّر انها تعبير جديد عن القبلية ، تحت أسماء جديدة وبمبرّرات تلائم المناخ الثقافي الحاضر والوعي السياسي السائد . ونقدر أن فشل فكرة الوحدة العربية لا يرجع فقط الى عمل الاستعمار التخريبي وإنما نشأ من وجود استعداد للتشرذم أعان الاستعمار على رسم سياساته وانجاحها في هذا المجال ولولا ذلك لما وفق الاستعمار الى بلوغ غايته .

وقد كانت عودة هذه الأشكال القديمة حاملة مضمونها الرجعي نتيجة لضمور المثل العليا والقيم المؤثرة في حركة التاريخ الاسلامي ، ونتيجة لضعف مؤسسة الخلافة في عهد عثمان ، هذا الضعف الذي مكّن القوى القديمة والقيم القديمة التي لم تكن قد ماتت بعد ، وإنما كانت تعاني من حالة خمود وضمور ـ مكّنها من أن تستعيد فاعليتها ، وتعود الى التأثير في حركة التاريخ تحت شعارات مناسبة تنسجم مع الاسلام في الشكل الخارجي .

لقد عادت الى الظهور والفاعلية تلك القيم والمثل الجاهلية القديمة التي كانت تقود حركة التاريخ في المجتمع العربي وترسم ملامح هذا المجتمع وتوجه خطاه قبل بعثة الرسول الأكرم وانتصار الاسلام .

وقد رأى أمير المؤمنين علي هذه القيم البائدة العائدة من خلال رصده للظواهر الجديدة التي تبدو في حركة الجماعات داخل المجتمع الاسلامي ، وحركة القيادات التي توجّه هذه الجماعات سراً وعلانية .

وقد رأى مع ذلك الأفاعيل التي ستنجم عن هذه الحركة الرجعية للتاريخ في الاسلام ، والمآسي الكبرى التي ستنزل بالمسلم فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولة ومؤسسات نتيجة لانبعاث هذه الروح الشريرة من جديد .

قال عليه السلام :

« ذمّتي بما أقول رهينة[١] وأنا به زعيم[٢] . إنّ من صرّحت له العبر عما بين يديه من المثلات[٣] حجزته التقوى عن تقحّم الشّبهات[٤] ، ألا وان بليّتكم قد عادت كهيئتها[٥] يوم

(١) رهينة : من الرهن . جعل ذمته رهناً على ما يقول .

(٢) زعيم : كفيل بصدق ما يقول .

(٣) العبر : ما أصاب الناس من « مثلات » عقوبات إذا دعاها الانسان على سبيل الاعتبار ، فيتعظ بتجربة الذين أصابتهم العقوبات من قبله .

(٤) الشبهات : الأفعال والمواقف الغامضة التي لم يبتّ في الشرع الرخصة في فعلها . يريد أن العبرة بالماضين تحجز الانسان عن الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء .

(٥) رجعت البلية كما كانت في الماضي الجاهلي .

بعث الله نبيّه صلّى الله عليه وسلم . والذي بعثه بالحق لتبلبلنّ[1] بلبلة ، ولتغربلنّ[2] غربلة ، ولتسأطنّ سوط القدر[3] حتّى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم . . . »[4] .

يقول لهم : ان البليّة (الفساد الاجتماعي ، والانحطاط الاخلاقي والحضاري) التي كانت تسم الحياة العربية في الجاهلية نتيجة لسيادة قيم الجاهلية ونظرة الجاهلية الى الكون والحياة والانسان ـ هذه البليّة قد عادت كما كانت عشية بعثة الرسول الأكرمﷺ لأن القيم التي ولّدت هذه البليّة في الماضي الجاهلي قد دبّت فيها الحياة من جديد على حساب القيم الجديدة التي جاء بها الاسلام ، هذه القيم التي تقلّص نفوذها وتأثيرها ، بسبب عوامل متنوعة ، على الانسان المسلم ، وأدّى ذلك الى حدوث ثغرات نفذت منها القيم القديمة فعادت من جديد .

ثم أنذر الامام علي مجتمعه بأن هذه البليّة التي عادت ستكون لها آثار مأساوية على المجتمع الاسلامي .

ستنجم عن هذه البليّة الأزمات الاجتماعية والثورات التي ستلقي بالمجتمع في غمار حروب أهلية مدمّرة ، ولا بدّ أن تكون هذه الأزمات والحروب الأهلية أضرس ، وأعمّ شراً ، وأشدّ فتكاً مما كان يحدث في الجاهلية .

ستكون في المجتمع نتيجة لعودة هذه البليّة بلبلة (اختلاط وتداخل) وشد وجذب ينتج عن الأزمات والثورات ويولّدها .

وسيكون حال المجتمع ـ نتيجة لهذه البليّة العائدة ـ حال القدر التي تغلي

---

(١) البلبلة : الاختلاط ، كناية عن الازمات الاجتماعية والثورات .

(٢) الغربلة : من الغربال : يريد أن التجارب الانية ستميّز المواقف ، وتكشف الاشخاص على حقيقتهم .

(٣) السوط : الخلط ـ سوط القدر : كما تمزج مواد الطبخ في القدر ، وتختلط وتغلي سيكون المجتمع نتيجة للثورات والأزمات الاجتماعية .

(٤) نهج البلاغة ـ رقم الخطبة ١٦ .

على النار وتختلط فيها المواد ، ولا يستقر على حال ، ولا ينعم بالطمأنينة ، وإنّما هو في قلق دائم ، واضطراب مستمرّ .

سيؤدي ذلك الى الغربلة ، وتمييز مواقف الرجال والجماعات ، لأن المحن والأزمات تفرز الفئات الاجتماعية ، وتحدّد سماتها .

ولكن كل ما سيحدث لن يتضمّن شيئاً من الخير ، بل سيعود على المجتمع بالشرور ، وسيؤدي بالمجتمع الى التمزق الذي يشل الفاعلية ، ويعطّل الطاقات الايجابية ، بل يهددها ، ويعوق حركة التقدّم .

ستكون جاهلية تتغشّى بشعارات الاسلام ، جاهلية بعثتها القيم الجاهلية التي عادت الى الحياة ، فكانت هي ، بدل القيم الاسلامية الجديدة ، الأسباب الموضوعية لتحريك الانسان المسلم في الزمان والمكان .

هكذا يصوّر الامام عودة التاريخ .

***

وفي خطبة أخرى خطبها الامام بذي قار[1] وهو في طريقه من المدينة الى البصرة بعد أن خرج عليه الزبير بن العوام وطلحة بن خويلد وأم المؤمنين عائشة فاتحين بخروجهم أبواب الفتنة التي عصفت بالمسلمين ، والحرب الأهلية التي مزّقت وحدتهم . . . هذه الفتنة التي ولّدتها القيم الجاهلية التي تنبّأ الامام بها في خطبته الأولى . . . في هذه الخطبة بيّن الامام عليه السلام أن مسيره لمواجهة المظهر الأول للفتنة هو كمسيره مع رسول الله ﷺ لمواجهة قوى الجاهلية ، وأن الروح المحركة واحدة في الحالين رغم اختلاف المظهر الخارجي الذي قد يوحي للساذجين بخلاف ذلك ، ولكنه لا يخدع الخبير .

---

(١) ذو قار : موضع قريب من البصرة . اشتهر في التاريخ باعتباره الميدان الذي جرت فيه ، أول ظهور الاسلام ، في سنة ٦١٠ م معركة بين الفرس والعرب حيث هاجم ثلاثة آلاف عربي من قبيلة بكر بن وائل المنطقة الفراتية ، وهزموا الفرس هزيمة حاسمة في ذي قار .

قال عليه السلام :

« . . . . أفا والله ان كنت لفي ساقتها[1] حتّى تولّت بحذافيرها[2] ما عجزت ولا جبنت . وإنّ مسيري هذا لمثلتها ، فلأنقبنّ[3] الباطل حتّى يخرج الحق من جنبه . ما لي ولقريش !! والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلنّهم مفتونين ، وإنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم »[4] .

كان الامام يتحدث عن شأن الجاهلية في مواجهة الاسلام ، وعن كفاحه مع رسول الله ﷺ ضد الجاهلية . ثم بيّن أن مسيره هذا الى البصرة لمثل ما كان يكافحه من مظاهر عناد الجاهلية في حياة رسول الله ﷺ .

إن التاريخ قد عاد ، ولكن تحت شعارات جديدة .

قال ابن أبي الحديد في شرح هذا النص :

« وشبّه عليه السلام أمر الجاهلية إما بعجاجة ثائرة ، أو بكتيبة مقبلة للحرب ، فقال : إني طردتها ، فولّت بين يديّ ، ولم أزل في ساقتها أنا أطردها وهي تنطرد أمامي ، حتى تولّت بأسرها ، ولم يبق منها شيء ، ما عجزت عنها ، ولا جبنت منها .

« ثم قال : وإن مسيري هذا لمثلها ، فلأنقبنّ الباطل ، كأنه قد جعل الباطل كشيء قد اشتمل على الحق واحتوى عليه ، وصار الحق في طيّه ، كالشيء الكامن المستتر فيه ، فأقسم لينقبنّ ذلك الباطل الى أن يخرج الحق من جنبه »[5] .

---

(١) الساقة : مؤخرة الجيش التي تسوقه . شبه الجاهلية بجيش مهزوم يطرده ويلاحقه .

(٢) ولّت بحذافيرها : ذهبت وطردت بأسرها (الجاهلية) .

(٣) النقب : الثقب .

(٤) نهج البلاغة : رقم الخطبة ٣٣

(٥) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة الطبعة الاولى : ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م / ج ٢ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

وهكذا يصوّر الامام عودة التاريخ حين تنشط الأسباب القديمة التي انتجت الأحداث والمواقف القديمة ، فتؤدي الى تكرار المواقف والاتجاهات ولكن تحت شعارات جديدة تتناسب مع الثقافة السائدة في المجتمع .

وثمّة نصوص أخرى ، غيرما ذكرنا ، منثورة في نهج البلاغة ، تتضمّن الدلالة على هذه الحقيقة .

- ٤ -

مصارع القرون
عوامل انحطاط الأمم

« مصارع القرون » تعبير استعمله الامام في إحدى خطبه فقال « واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم »[١] . ويريد به الأمم الماضية أو الأجيال الماضية ، فالقرن في اللغة جماعة الناس في عصر واحد[٢] . فالامام في هذا التعبير يوجّه الأفكار نحو التأمل في مصائر الأمم والشعوب ، وكيف ولماذا تضعف وتتفسخ ويصيبها الانحطاط والتخلف ؟ .

ويتساءل الامام في خطبة أخرى - ربّما تكون آخر خطبة ، أو في أواخر كلامه في حشد عام[٣] - عن مصير الدول والشعوب القديمة ، فيقول مخاطباً أصحابه :

---

(١) نهج البلاغة : رقم الخطبة ١٥٩ .

(٢) وردت هذه الكلمة كثيراً في الكتاب الكريم في سور مكّية ومدنية ، والمراد بها ، على الظاهر ، هذا المعنى . وورد له في كلام بعض أهل اللغة تفسير زماني ، فقيل : القرن مدة أغلب أعمار الناس ، وهو سبعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : ثلاثون سنة . وقيل : القرن أهل عصر فيه نبي أو فائق في العلم ، قل زمانه أو كثر - وهذا التفسير الأخير يلحظ معنى حضارياً للكلمة .

(٣) قال الشريف في نهج البلاغة : « روى عن نوف البكالي ، قال : خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين علي (ع) بالكوفة ، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة ابن هبيرة المخزومي ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف ، وكأن جبينه ثفنة بعير ، فقال عليه السلام . . . قال : وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف ، ولقيس بن سعد رحمه الله في عشرة آلاف ، ولأبي أيوب الأنصاري =

« ... وإنّ لكم في القرون السّالفة لعبرة ، أين العمالقة وأبناء العمالقة ؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة ؟ أين أصحاب مدائن الرّسّل الذين قتلوا النبيّين ، وأطفأوا سنن المرسلين[1] ، وأحيوا سنن الجبّارين ؟ أين الذين ساروا بالجيوش ، وهزموا بالألوف ، وعسكروا العساكر ، ومدّنوا المدائن ؟ »[2] .

***

لقد كان الوضع الداخلي لمجتمع الامام أثناء حكمه العاصف يقتضيه أن يستعين بالتاريخ ليواجه ما كان يتردّى فيه هذا المجتمع - في العراق بوجه خاص - من انقسامات قبلية ، ومواقف عنصرية ، وتسلّط رؤساء المجموعات القبلية على قبائلهم ، وافتتان كثير من النابهين في المجتمع والقياديين في المجموعات القبلية بالسخاء الذي كانوا يتسامعون به عن معاوية بالنسبة الى أنصاره السياسيين ... وكان يرى ببصيرته النافذة أن هذه الطريقة تؤدي بالمجتمع الى الكارثة : ستنهكه النزاعات الداخلية ، وتخلخل بنيانه وتذهب بتماسكه ، وتدفع بقياداته الى خيانة مجتمعها والارتماء في أحضان الحكم الأموي الاستبدادي في سوريا ، وتفقد العراق دوره القيادي في دولة الخلافة ، فتجعله تابعاً صغيراً للشام .

= في عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد أخر ، وهو يريد الرجعة الى صفين ، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعت العساكر ، فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان » .

(١) ورد ذكر هؤلاء في الكتاب الكريم مرتين : في سورة الفرقان (مكّية - ٢٥) الآية ٣٨ « وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً » وفي سورة ق (مكية - ٥٠) الآية ١٢ « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود » . والرس في اللغة : البئر المطوية بالحجارة ، والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود - أو لقوم بعد ثمود - أرسل الله اليهم رسولاً فكذبوه فأهلكهم الله . وقيل ان الرّس اسم نهر كان هؤلاء على شاطئه .

(٢) نهج البلاغة : رقم الخطبة ١٨٠ .

وكان الامام علي يواجه هذا الخطر بشتى الأساليب ، وعلى مختلف المستويات .

ومن الأساليب التي استعملها على المستوى الشعبي أسلوب التنظير بالتاريخ لحال مجتمعه ، عاملاً على أن يكوّن لدى الناس العاديين وعياً تاريخياً ، ورؤ ية للحاضر واقعية تدرك ما فيه من خطورة واحساساً بمخاطر الممارسات التي تسود المجتمع . . . كل ذلك لأجل أن يبعث في نفوسهم وعقولهم الحذر والتبصّر حين تعرض عليهم خيارات سببت للأمم الماضية نكبات أضعفتها أو حطمتها .

ومن الأمور الهامة التي يجب التنبيه عليها أن الامام في تصويره لانحطاط الأمم ومصارع القرون لا يردّ ذلك الى أسباب غيبية ، وإنّما يعرض أسباباً موضوعية لهذا الانحطاط كما سنرى .

وأفضل الأمثلة التي يحتويها نهج البلاغة في موضوعنا هو الخطبة المسماة « القاصعة »[1] وهو يعرض فيها الآفات التي تعرّض مجتمع العراق للخطر ، ويذكر النظائر التاريخية لذلك ، عارضاً أسباب الانحطاط .

***

عالج الامام في هذه الخطبة آفة شديدة الخطورة كانت تتعاظم وتستفحل في مجتمع العراق في ذلك الحين . تلك هي آفة الصراع الداخلي الذي كان يمزق

---

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الكلمة :

« يجوز أن تسمى هذه الخطبة « القاصعة » من قولهم : قصعت الناقة بجرّتها ، وهو أن تردها الى جوفها أو تخرجها من جوفها فتملأ فاها ، فلما كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مرددة من أولها الى آخرها شبهها بالناقة التي تقصع الجرّة . ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لابليس وأتباعه من أهل العصبية ، من قولهم : قصعت القملة إذا هشمتها وقتلتها . ويجوز أن تسمى القاصعة لأن المستمع لها المعتبر بها يذهب كبره ونخوته ، فيكون من قولهم : قصع الماء عطشه ، أي أذهبه ، وسكنه » .

شرح نهج البلاغة ـ ج ١٣ / ص ١٢٨ .

وحدة المجتمع العراقي ويشلّ فاعليته وينعكس بآثاره السيئة وتفاعلاته المشؤومة على سائر دولة الخلافة .

وقد كان هذا الصراع يبدو للمراقب بوجوه متنوعة :

١ ـ الصراع القبلي :

فقد نشطت الروح القبلية والقيم القبلية ، وعادت الى الظهور فارضة منطقها في رسم خريطة العلاقات الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع ، وكان ظهور الروح القبلية نتيجة لجملة من الأخطاء التي ارتكبت في عهد ادارة الخليفة الثالث عثمان بن عفان . وكانت أخطاء في السياسة ، وفي الادارة ، وفي التنظيم الاقتصادي ، وفي التوجيه الثقافي العام .

ويبدو أن هذه الروح القبلية قد سببت تخريباً واسع النطاق داخل المجتمع العراقي ، ونرجح أن معاوية بن أبي سفيان كان يستغلّها للامعان في تصديع وحدة مجتمع العراق .

ويبدو أن هذه الروح القبلية التي كان يذكيها أصحاب المصالح الخاصة قد أفلحت الى حد بعيد في تمزيق وحدة المجتمع ، وإشاعة روح الشك والضغينة بين فئاته السياسية ، وداخل كل فئة أيضاً . يصوّر لنا ذلك نص في إحدى خطب الامام يحذّر ويؤنّب فيه مجتمعه ، قال :

« قد اصطلحتم على الغلّ فيما بينكم[1] ونبت المرعى على دفنكم[2] . وتصافيتم على حب الآمال . وتعاديتم في كسب الأموال . لقد استهام بكم الخبث[3] ، وتاه بكم الغرور[4] ،

---

(١) الغلّ : الحقد ، يعني : اتفقتم على تمكين الحقد في نفوسكم .

(٢) الدفن : جمع دفنة ، ما يتجمد ويتلبد من الضابط ودت الماشية ، ينبت عليه العشب ونبتت المرعى عليه : استتر بظواهر النفاق الاجتماعي فيبدو ظاهره سلياً أخضر وواقعه بشع منفر . شهروا أحقادهم التي يسترونها بالنفاق فيما بينهم بهذه القذارة التي يسترها العشب فتبدو جملة تخدع بظاهرها وهي في الواقع قذرة نجسة .

(٣) استهام بكم : تعلق بكم الشيطان فأغواكم .

(٤) الغرور : ما يسبّب الانخداع .

والله المستعان على نفسي وأنفسكم »[1] .

وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة ما يصور التخريب والتمزيق اللذين كانت تحدثهما هذه الروح القبلية قال :

« وقيل أن أصل هذه العصبية وهذه الخطبة أن أهـل الكوفـة كانـوا قد فسدوا في آخر خلافة أمير المؤمنين ، وكانوا قبائل في الكوفـة ، فكان الرجـل يخرج من منازل قبيلته فيمر ، بمنازل قبيلة أخرى ، فينادي باسم قبيلتـه : يا للنخع ! مثلاً ، أو يا لكندة نداءاً عالياً يقصد به الفتنة واثارة الشر ، فيتألـب عليه فتيان القبيلة التي مرّ عليها ، فينادون : يا لتميم ! ويا لربيعة ! ويقبلون الى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضي الى قبيلته فيستصرخها ، فتسلّ السيوف وتثور الفتـن ، ولا يكون لهـا أصـل في الحقيقـة إلاّ تعـرّض الفتيان بعضهـم ببعض »[2] .

وما لا يرى ابن أبي الحديد له أصلاً نرى له أصلاً في دسائس معاوية أو عملائه الذين نقدر أنهم كانوا يشجعون أمثال هذه الممارسات القبلية ، ويمدونها بمزيد من أسباب الاثارة والهياج ليزيدوا مجتمع العراق انهاكاً وتمزقاً . وكذلك نرى لها أصلاً في سياسات رؤساء القبائل الذين كان نهج علي السياسي يهدد سلطانهـم ونفوذهـم ، فكانـوا يشجعـون العامـة والبسطـاء على أمثـال هذه الممارسات ليثبتوا سلطانهم على قبائلهم .

٢ ـ الصراع العنصري :

لقد كان مجتمع العراق ، كغيره من بلاد الاسلام في ذلك الحين ، يضم مجموعات كبرى من المسلمين غير العرب الذين أدّى التوسع في الفتوح خارج شبه الجزيرة العربية الى احتلال بلادهم في إيران ومستعمـرات الامبراطـورية البيزنطية (مصر وسوريا ، وغيرهما) ، ومن ثم أدّى الى دخول كثير منهم في الاسلام .

---

(١) نهج البلاغة ـ رغم الخطبة ـ ١٣١ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١٣ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

وقد كان هؤلاء ـ من الناحية النظرية ـ يتمتعون بحقوق مساوية لحقوق المسلمين العرب كما يتحملون واجبات مساوية . لقد ضمن لهم الاسلام مركزاً حقوقياً مساوياً تماماً للمسلمين العرب ، ولكنهم كانوا من الناحية الواقعية يعانون من التمييز العنصري بسبب انطلاق الروح القبلية والعصبية العربية .

وقد ألغى الامام علي فور تسلّمه السلطة جميع مظاهر التمييز العنصري والعصبية العنصرية التي كان يعاني منها ، بشكل أو بآخر ، المسلمون غير العرب .

وقد أثار ذلك ردود فعل سلبية عند زعماء القبائل ، فاحتجوا على التسوية في العطاء بينهم وبين الموالي (المسلمين غير العرب) ، واندفعوا ينصحون الامام عليّاً قائلين :

« يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من الناس »[1] .

وكان هؤلاء ينظرون في نصيحتهم هذه وينطلقون في نظريتهم السياسية هذه من التجربة التي كان يقوم بها معاوية بن أبي سفيان .

ولكن الامام علياً كان ينطلق في ممارسته السياسية من قاعدة أخرى ، فأجابهم قائلاً :

« أتأمرنني أن أطلب النّصر بالجور فيمن ولّيت عليه ؟!!
والله ما أطور[2] به ما سمر سمير[3] ، وما أمّ نجم في السّماء نجماً »[4] .

***

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة .

(٢) أطور به : من طار يطور ، بمعنى : حام حول الشيء ، وقاربه ، يعني : لا أقارب الجور فيمن ولّيت عليه .

(٣) ما سمر سمير : يعني مدى الدهر .

(٤) نهج البلاغة ـ رقم النص ١٢٤ . ما أم نجم في السماء . . . يعني مدى الدهر . في هذا الموضوع راجع كتابنا (دراسات في نهج البلاغة) الطبعة الثانية ، فصل (المجتمع والطبقات الاجتماعية) وكتابنا (ثورة الحسين) ـ الطبعة الخامسة ـ ص ١٠١ ـ ١٠٢

وتشتمل الخطبة القاصعة على عدّة شواهد تدل على أن ما كان يثير في نفس الامام قلقاً عميقاً ليس الصراع القبلي المستفحل وحده ، بل الصراع العنصري أيضاً .

هذا الصراع بوجهيه - القبلي والعنصري - كان ، بالاضافة الى أنه آفة في ذاته ، يؤدي الى توليد آفات أخرى :

١ - يعمّق ويرسّخ الواقع الاجتماعي القبلي والتكوين الاجتماعي القبلي للمجتمع في الثقافة العامة ، والبنية النفسية للفرد ، وبذلك يحول دون تطوّر التركيب الاجتماعي من طور القبلية التي تقسم المجتمع الى وحدات تقوم على علاقة الدم الى طور التوحد على أساس العقيدة والشريعة والمؤسسات والمصالح المشتركة ، وهو يؤدي بالتالي إلى أن يكون معوّقاً حضارياً أيضاً يجمّد المجتمع في حالة التخلف على صعيد المؤسسات والانجازات التنظيمية .

٢ - يزيد ويعزّز سلطة رؤساء القبائل على قواعدهم القبلية ، فيؤثر ذلك على فاعلية أجهزة السلطة المركزية ويضعفها .

٣ - يؤثّر على تلاحم المجتمع - وهو في حالة حرب مع القوى الخارجة على الشرعية في الشام ، ومع الخوارج .

٤ - يعزّز إمكانات تسلل معاوية بن أبي سفيان الى داخل التكوينات السياسية في مجتمع العراق ، وهي القبائل .

***

ونتتقل الآن الى عرض الشواهد من الخطبة القاصعة .

بيّن الامام أولاً أن الكبرياء من صفات الله تعالى . ومن ثم فليس للناس أن يتكبّر بعضهم على بعض .

ثم عرض ، ثانياً ، لكبرياء ابليس ، وتعصبه ضد آدم مفتخراً بأصله ،

وذكّـر بأن كبرياء ابليس كانت كارثة عليه ، إذ قضت على منزلته العالية .

ثم قرن الامام بين كبرياء ابليس وكبرياء البشر على بعضهم ، واعتبر المتكبرين أتباعاً لابليس في هذا الخلق الذميم :

« صدّقه به أبناء الحميّـة[1] ، واخوان العصبيّـة ، وفرسان الكبر والجاهليّـة ، حتّى إذا انقـادت له الجامحـة منـكم[2] ، واستحكمت الطواعية منه فيكم ـ فنجمت[3] الحال من السرّ الخفـيّ الى الأمـر الجليّ ـ استفحـل سلطانـه عليكم[4] . فأصبحتـم أعظـم في دينـكم حرجـاً[5] ، وأورى في دنياكم قدحاً[6] من الذين أصبحتم لهم مناصبين وعليهم متألّـبين » .

وهكذا ، بيّـن لهم الامام أن الشرّ والفسـاد الناشئين عن العصـبيّـة ، والصراع الناتج منها لا يقتصر تأثيرها على الجانب الديني والايماني فقط ، وإنّـما يتعدى ذلك الى التأثير على الوضع الحياتي الدنيوي ، فهذه العصبيّـة (أورى في دنياكم قدحا) من هؤلاء الذين تخافون منهم على امتيازاتكم المادية فتتعصبون ضدهم .

ثم أثار الامام في أذهانهم ذكرى تاريخية يعرفونها من القرآن ، هي قصة ابني آدم :

« ولا تكونوا كالمتكبّـر على ابن أمّـه من غير ما فضل جعله

---

(١) الحمية : الأنفة والغضب .

(٢) الجامحة : من جموح الفرس . أراد أن الفئة التي لم تطع ابليس وجمحت عنه عادت فأطاعته واتبعت سبيله في الكبرياء . أو أن الفئة التي جمحت عن الشرع انقادت الى ابليس .

(٣) نجم : ظهر . أي أن العصبية بعدما كانت خفية في النفوس ظهرت في ممارسات علنية .

(٤) استفحل : قوي واشتد وصار فحلاً .

(٥) الحرج : لغة في الحرج ـ بفتح الراء ـ وهو الاثم . يريد : انكم بطاعتكم لابليس أصبحتم أعظم اثماً في دينكم . ورواية النسخة المتداولة من النهج (فأصبح) ، ولا يستقيم المعنى عليها ، ورواية ابن أبي الحديد في شرحه (فأصبحتم) وقد اعتمدناها لأنها أوفق بالمعنى .

(٦) أورى : أشد قدحاً وتوليداً للنار . كناية عن تخريب دنياهم بالفتن والقلاقل .

الله فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد ، وقدحت الحميّة في قلبه من نار الغضب ، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به النّدامة ، وألزمه آثام القاتلين الى يوم القيامة » .

ثم يعود الامام الى تأنيب سامعيه على ما هم عليه من روح قبلية ، وتعصب عنصري ذميم ، مبيناً لهم أن هذه الآفة الخطيرة الوبيلة قد ابتليت بها الأمم الماضية وذاقت مرارتها :

« ألا وقد أمعنتم في البغي[1] ، وأفسدتم في الأرض ، مصارحة لله بالمناصبة[2] ، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة (يقصد بالمؤمنين أولئك الذين توجه ضدهم العصبيّة) فالله الله في كبر الحميّة ، وفخر الجاهلية ، فإنّه ملاقح الشنآن[3] ومنافخ الشّيطان ، التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية[4] . أمراً تشابهت القلوب فيه ، وتتابعت القرون عليه ، وكبراً تضايقت الصّدور به » .

ثم يوجّه الأنظار بصورة مباشرة الى القيادات التي تغذي هذه الآفة ، وتؤجج نارها وهم زعماء القبائل :

« ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم ، الذين تكبّروا عن حسبهم وترفعوا فوق نسبهم . . . فإنّهم قواعد

---

(١) أمعنتم في البغي : بالغتم فيه ، من أمعن في الأرض ، أي ذهب فيها بعيداً .

(٢) مصارحة لله . . . : أي مكاشفة يعني الاعلان بالمعاصي ، وعدم التستر في شأن العصبيّة والتكبر الجاهلي .

(٣) ملاقح جمع ملقح ، وهو المصدر من لقحت : والشنآن : البغيض يريد أن الكبر والفخر الجاهلي مكامن البغضاء والحقد ومثارها .

(٤) منافخ الشيطان : جمع منفخ ، مصدر من نفخ : يعني أن الكبر والفخر هما المكان الذي ينفخ فيه الشيطان من نفس الانسان فيدفعها الى الشر والجريمة .

أساس العصبيّـة ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء[1] الجاهليّـة . فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضدادا ، ولا لفضله عندكم حسّادا ، ولا تطيعوا الأدعياء الّـذين شربتـم بصفـوكم كدرهـم[2] ، وخلطتـم بصحتـكم مرضعهـم ، وأدخلتم في حقّـكم باطلهم ، وهم أساس الفسوق واحلاس العقوق . . . »[3] .

ثم يعود الامام الى التنظير بالتاريخ ، مذكّـراً بالنهايات الفاجعة للأمم والشعوب التي فتكت بها آفة التعصب والتناحر ، مقابلاً ذلك بالنهج النبـوي الانساني البعيد عن الكبر :

« فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ، ووقائعه ومثلاته[4] واتعظوا بمثاوى خدودهـم ومصارع جنوبهم[5] . . فلو رخّـص الله في الكبر لأحـد من عباده لرخص فيه الخاصّـة أنبيائه . . . ولقد دخل موسى ومعه أخوه هارون ـ عليهما السلام ـ على فرعـون وعليهما مدارع الصوف[6] ، وبأيديهما العصيّ ، فشرطا له ـ أن أسلم ـ بقاء ملكه ، ودوام عزّه ، فقال : « ألا تعجبون من هذين يشرطان

---

(١) إعتزاء الجاهلية : الاعتزاء هو الانتساب ، أي أنهم يفتخرون بأنسابهم وآبائهم ، كقولهم : يا لفلان ، أو : يا لآل فلان .

(٢) المراد من هذه الجملة وما بعدها أن هؤلاء الزعماء يفسدون بنزعاتهم الشريرة حياتكم وإيمانكم وطهارة نفوسكم .

(٣) الاحلاس : جمع حلس . وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له ، فقيل لكل ملازم أمر : هو حلس ذلك الأمر . فهؤلاء المغذون من رؤساء القبائل ملازمون للعقوق والتنكر لنعم الله ولأحكام الشرع وقواعد الأخلاق .

(٤) المثلات والوقائع : يقصد بهما عقوبات الله التي استحقوها نتيجة لانحرافاتهم .

(٥) المثوى : المنزل . مواضع خدودهم بعد الموت على التراب ، ومصارع جنوبهم : مواقعها بعد الموت على التراب .

(٦) مدارع الصوف : جمع مدرعة ـ بكسر الميم ـ وهي كالكساء .

لي دوام العزّ وبقاء الملك ، وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ) » .

ويستمر الامام في التنظير التاريخي ، داعياً مستمعيه الى فحص المواقف التاريخية التي مرّت على الأمم السابقة ، وتجنب الاختبارات والتجارب التي أدّت الى الانحطاط والانهيار ، واختيار المسلكية التي ثبت بالتجربة صلاحها :

« . . . واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال . فتذاكروا في الخير والشرّ أعمالهم ، واحذروا أن تكونوا أمثالهم . فإذا تفكّرتم في تفاوت حاليهم ، فالزموا كلّ أمر لزمت العزّة به حالهم ، وزاحت الأعداء له عنهم[1] ، ومدّت العافية به عليهم ، وانقادت النّعمة له معهم ، ووصلت الكرامة عليه حبلهم ، من الاجتناب للفرقة ، واللّزوم للألفة ، والتحاضّ عليها[2] ، والتواصي بها .

« واجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم[3] ، وأوهن منهم[4] من تضاغن القلوب[5] ، وتشاحن الصّدور ، وتدابر النفوس وتخاذل الأيدي . . . »[6] .

ويستمر الامام في تنظيره التاريخي بتقديم أمثلة محددة من حياة الاسرائيليين والعرب ، بعدما كان في تنظيره السابق يذكر الأمم بشكل عام ،

---

(١) زاحت : بعدت . وله : لاجله ، يعني الزمر : كل أمر خافتهم الأعداء بسببه .

(٢) التحاض ، صيغة تفاعل من الحض بمعنى الحث والترغيب ، يعني أن يحثّ بعضكم بعضاً على الاتحاد والتعاون .

(٣) الفقرة : واحدة فقر الظهر . ويقال لمن أصابته مصيبة شديدة : قد كسرت فقرته . يعني اجتنبوا كل ما أضعف الامم السابقة وسبب لها الانحطاط .

(٤) المنة : القوة ، ومعنى الجملة كسابقتها .

(٥) تضاغن القلوب وتشاحن الصدور بمعنى واحد : تبادل البغضاء بين فئات المجتمع .

(٦) تخاذل الأيدي : ألا ينصر الناس بعضهم بعضاً ولا يتعاونون في حالات الخطر .

دو ن أن يخصّ بالذكر أمة بعينها :

« . . . . وقد برّوا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم : كيف كانوا في حال التمحيص[١] والبلاء . ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء ، وأجهد العباد بلاء[٢] وأضيق أهل الدّنيا حالا . اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب ، وجرّعوهم المرار[٣] ، فلم تبرح الحال بهم في ذلّ الهلكة وقهر الغلبة . . . حتى إذا رأى الله سبحانه جد الصّبر منهم على الأذى في محبّته[٤] ، والاحتمال للمكروه من خوفه ، جعل لهم في مضايق البلاء فرحا ، فأبدلهم العزّ مكان الذلّ ، والأمن مكان الخوف ، فصاروا ملوكاً حكّاما ، وأئمّة أعلاما . . . فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة[٥] والأهواء مؤتلفة ، والقلوب معتدلة ، والأيدي مترادفة[٦] ، والسّيوف متناحرة ، والبصائر نافذة[٧] ، والعزائم واحدة . ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضيين ، وملوكاً على رقاب العالمين » .

« فانظروا الى ما صاروا اليه في آخر أمورهم ، حين وقعت الفرقة وتشتتت الألفة ، واختلفت الكلمة والأفئدة ، تشعّبوا مختلفين ، وتفرّقوا متحاربين ، قد خلع الله عنهم لباس كرامته ، وسلبهم غضارة نعمته[٨] ، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم » .

---

(١) التمحيص : التطهير والتصفية .
(٢) أجهد العباد : أكثرهم تعباً .
(٣) المرار : شجر مر في الأصل ، كناية عما أصابهم من العذاب والهوان على أيدي الفراعنة .
(٤) رأى الله منهم جد الصبر ، أي أشد الصبر .
(٥) الأملاء : الجماعات ، الواحد : ملأ ، يريد اتحاد الفئات الاجتماعية وتعاونها .
(٦) مترادفة : متعاونة .
(٧) البصائر نافذة : الارادة عازمة جازمة غير مترددة للعلم بحقيقة الموقف أو الشيء .
(٨) الغضارة : النعمة اللينة الطيبة .

« فاعتبروا بحال ولد اسماعيل وبني اسحاق وبني اسرائيل عليهم السلام ، فما أشدّ اعتدال الأحوال[1] وأقرب اشتباه الأمثال » .

« تأمّلوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرّقهم ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم ، يختارونهم عن ريف الآفاق[2] ، وبحر العراق[3] وخضرة الدّنيا ، الى منابت الشّح ومهافي الرّيح[4] ، ونكد المعاش[5] فتركوهم عالة مساكين ، أخوان دبر ووبر[6] ، أذلّ الأمم دارا ، وأجدبهم قرارا ، لا يأوون الى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا الى ظلّ ألفة يعتمدون على عزّها ، فالأحوال مضطربة ، والأيدي مختلفة ، والكثرة متفرّقة ، في بلاء أزلّ[7] وأطباق جهل[8] ، من بنات موؤدة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة .

« فانظروا الى مواقع نعم الله عليهم حين بعث اليهم رسولا ، فعقد بملّته طاعتهم ، وجمع على دعوته ألفتهم كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها ، وأسالت لهم جداول نعمها ، والتفّت الملّة بهم في عوائد بركتها ، فأصبحوا في

---

(١) ما أشد اعتدال الأحوال : ما أشبه الأشياء بعضها ببعض .

(٢) الريف : الأرض ذات الخصب والزرع والجمع أرياف .

(٣) بحر العراق : دجلة والفرات . قال ابن أبي الحديد : ١٣ / ١٧٣ « أمّا الأكاسرة فطردوهم عن بحر العراق ، وأمّا القياصرة فطردوهم عن ريف الآفاق أي عن الشام وما فيه من المرعى والمنتجع » .

(٤) يقصد البادية الخالية من الزرع والمياه والعمران .

(٥) نكد المعاش : قلته ، وصعوبة الحصول عليه ، وخشونته .

(٦) عالة : فقراء (دبر ووبر) دبر البعير عقره القتب . والوبر للبعير بمنزلة الصوف للضأن . يريد أنهم كانوا عالة فقراء يمثل البعير ثروتهم ، ومرضه شغلهم الشاغل .

(٧) الأزل : الضيق والشدة ، يريد بلاء شديداً شغلهم عن كل شيء .

(٨) اطباق ، جمع طبق . أي جهل متراكم بعضه فوق بعض .

نعمتها غرقين[1] وفي خضرة عيشها فاكهين[2] قد تربّعت الأمور بهم[3] في ظلّ سلطان قاهر وآوتهم الحال الى كنف عزّ غالب[4] وتعطّفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت[5] فهم حكّام على العالمين ، وملوك في أطراف الأرضيين . يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم ، لا تغمز لهم قناة ، ولا تقرع لهم صفاة[6] .

« وانّ عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه ، وأيّابه ووقائعه[7] ، فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه وتهاوناً ببطشه ، ويأساً من بأسه فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلاّ لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلعن الله السّفهاء لركوب المعاصي ، والحلماء لترك التّناهي »[8] .

---

(١) غرقين : من الغرق ، مبالغة في وصف ما هم فيه من النعمة .

(٢) فاكهين : بمعنى ناعمين .

(٣) تربعت الأمور بهم ، أي أقامت ، من : ربع المكان أي أقام فيه ، يعني استقرار أحوالهم السياسية والمعيشية .

(٤) آوتهم الحال : ضمتهم وأنزلتهم ، والكنف : الجانب .

(٥) تعاطفت . . . كناية عن السعادة والاقبال ، يقال : تعطف الدهر على فلان ، أي أقبل حظه وسعادته . والذرى الأعالي ، جمع ذروة ، كناية عن عزهم وقوتهم وامتناعهم .

(٦) لا تغمز . . . لا تقرع . . . مثل يضرب لمن لا يجترىء عليه لعزته وقوته .

(٧) الأمثال هي ما ورد في القرآن بما قصه الله تعالى من أحوال الأمم القديمة وكيف نزلت بها الكوارث نتيجة لممارساتها المنحرفة .

(٨) التناهي مصدر تناهي القوم عن كذا ، أي نهى بعضهم بعضاً . يقول : لعن الله الماضين من قبلكم لأن سفهاءهم ارتكبوا المعصية ، وحلماءهم لم ينهوهم عنها . وهذا من قوله تعالى في شأن بني اسرائيل ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ سورة المائدة / ٧٩ .

ـ ٥ ـ

المعروف والمنكر
والأكثرية الصامتة

من فرائض الاسلام الكبرى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد ورد تشريع هذه الفريضة في الكتاب الكريم والسنّة الشريفة في عدة نصوص دالّة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع المسلمين بنحو الواجب الكفائي[1] .

كما وردت نصوص أخرى كثيرة في الكتاب والسنّة ، منها ما يشتمل على بيان الشروط التي يتنجز بها وجوب هذه الفريضة على المسلم . ومنها ما يضيء الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه الفريضة ، كما يوضح المبدأ الفكري الاسلامي العام الذي ينبثق منه هذا التشريع ، دلّ على وجوب هذه الفريضة من الكتاب الكريم قوله تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف

(١) من جملة تقسيمات الواجب عند علماء أصول الفقه تقسيمه الى واجب عيني وواجب كفائي . ويعنون بالواجب العيني ما يتعلق بكل ما كلف ولا يسقط عن أحد من المكلفين بفعل غيره . ويعنون بالواجب الكفائي ما يطلب فيه وجود الفعل أيّ مكلف كان ، فهو يجب على جميع المكلفين ولكن يكتفي بفعل بعضهم فيسقط عن الأخرين . نعم إذا تركه جميع المكلفين فالجميع مذنبون . وأمثلة الواجب الكفائي كثيرة في الشريعة منها تجهيز الميت والصلاة عليه ، ومنها الحرف والصناعات والمهن التي يتوقف على انتظام شؤون حياة الناس ومنها الاجتهاد في الشريعة ، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون﴾[1] .

فقد دلت هذه الآية على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة دلالة لام الأمر في « ولتكن » على الوجوب .

إلا أن ظاهرها أن الوجوب فيها كفائي لا عيني ، لأن مفاد الأمر تعلق بأن تكون في المسلمين أمة تأمر وتنهى ، لا بجميعهم على نحو العينية الاستغراقية وعليه فإذا قامت جماعة منهم بهذا الواجب سقط الوجوب عن بقية المكلفين كما هو الشأن في الواجب الكفائي .

ولم أجد في القرآن والسنّة عدد مخصوص لأفراد هذه الأمة ، ليراعى في عدد الأفراد القائمين بالواجب مقدار الوفاء بالحاجة .

وقد جعل الله تعالى في كتابه الكريم وعي هذه الفريضة ، وأدائها حين يدعو واقع المجتمع الى ذلك ، من صفات المؤمنين الصالحين ، فقال تعالى :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة ويطيعون الله ورسوله سيرحمهم الله انّ الله عزيز حكيم﴾[2] .

فقد دلّت الآية المباركة على تضامن المؤمنين بعضهم مع بعض في عمل الخير والبرّ والتقوى ، وانهم جميعاً من جنود هذه الفريضة حين يدعوهم الواجب اليها .

وسياق الآية الكريمة دالّ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من حيث أن بقية ما ورد في الآية كله من الواجبات المعلومة في الشريعة (الصلاة ، والزكاة ، وطاعة الله ورسوله)[3] ، وان لم تكن الدلالة السياقية

---

(١) سورة آل عمران (مدنية - ٣) الآية ١٠٤ .

(٢) سورة التوبة (مدنية - ٩) الآية ٧٢ .

(٣) ولا يكون المراد من طاعة الله ورسوله ، بعد ذكر الأمر والنهي والصلاة والزكاة - الطاعة في الشأن السياسي ، فلا يكون من ذكر العام بعد الخاص .

من الدلالات التي لها حجيّة في استظهار الأحكام الشرعية .

وكما ورد مدح المؤمنين والمؤمنات ـ كأفراد ـ في الآية الآنفة ، فقد ورد في آية أخرى مدح المسلمين كافة ـ كأمة ومجتمع ـ من حيث وعيهم لهذه الفريضة وعملهم بها ، وتلك هي قوله تعالى :

﴿ كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾[1] .

وقد مدح الله في كتابه الكريم المسلمين من أهل الكتاب ، أتباع الأنبياء السابقين قبل بعثة النبيّ محمدﷺ بوعيهم لهذه الفريضة والعمل بها ، ممّا يكشف عن أنها فريضة عريقة في الاسلام منذ أقدم عصوره وصيعه ، وأنها قد كانت فريضة ثابتة في جميع مراحله التشريعية التي جاء بها أنبياء الله تعالى جيلاً بعد جيل . قال تعالى :

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء اللّيل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصّالحين ﴾[2] .

***

وقد كان إحياء هذه الفريضة ، وجعلها إحدى هواجس المجتمع من شواغل الامام الدائمة . وقد تناولها في خطبه وكلامه ـ كما تعكس لنا ذلك النماذج التي اشتمل عليها نهج البلاغة ـ من زوايا كثيرة :

تناولها كقضية فكرية لا بدّ أن توعى لتغني الشخصية الواعية ، وباعتبارها قضية تشريعية تدعو الأمة والأفراد العمل .

---

(١) سورة آل عمران (مدنية ـ ٣) الآية : ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران (مدنية ـ ٣) الآية : ١١٣ ـ ١١٤

ومن هذين المنظورين عالجها بعدة أساليب .

***

لقد أعطاها منزلة عظيمة ، تستحقها بلا شك ، بين سائر الفرائض الشرعية ، فجعلها إحدى شعب الجهاد الأربع :

« . . . والجهاد منها من دعائم الايمان ـ على أربع شعب : على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنآن الفاسقين ، فمن أمر بالمعروف شدّ ظهور المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ، ومن شنىء الفاسقين وغضب للّه غضب الله له وأرضاه يوم القيامة »[1] .

وجعل الامام هذه الفريضة ، في كلام له آخر ، تتقدم على اعمال البرّ كلها ، فقال :

« . . . وما اعمال البرّ كلّها، والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الا كنفثة[2] في بحر لجيّ . . . »[3] .

ومن السهل علينا أن نفهم الوجه في تقدّم هذه الفريضة على غيرها إذا لاحظنا أن أعمال البرّ تأتي في المرتبة بعد استقامة المجتمع وصلاحه المبدئي ـ الشرعي والأخلاقي ـ وأن الجهاد لا يكون ناجعاً إلاّ إذا قام به جيش عقائدي ، وهذه كلها تتفرع من الوعي المجتمعي للشريعة والأخلاق ، ومن الحد الأدنى للالتزام المسلكي بهما .

***

(١) نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص : ٣١ .

(٢) النفثة ـ كالنفحة لفظاً ومعنى بزيادة ما يمازج النفس من الريق عند النفخ .

(٣) نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص : ٣٧٤ .

في بعض كلماته بين الامام جانباً من الأسباب الموجبة لهـذا التشريـع ، فقال :

« فرض الله الأمر بالمعروف مصلحة للعوام ، والنّهي عن المنكر ردعاً للسّفهاء »[1] .

فعامة الناس الذين قد يقعون في اثم ترك الواجبات لأنهم لا يعرفونها على وجهها أو يجهلونها ، يمكّـنهم الأمر بالمعروف من التعلّـم والتفقّـه ، بالاضافة الى أولئك الذين يقعون في إثم ترك الواجب وهم يعرفون الواجب والحرام حيث يردّهم الأمر بالمعروف الى جادّة الصواب والاستقامة ، كما يرد اليها السفهـاء الذين يتجاوزون في لهوهم وعبثهم حدود الله .

***

وللأمر بالمعروف والنهـي عن المنـكر مراتـب متدرجـة من الأدنـى الى الأعلى ، فهي فريضة مرنة تستجيب للحالات المتنوعة ، وللأوضاع المختلفة . فرب انسان تنفع في ردعه الكلمة ، وربّ انسان لا ينفع في شأنه إلا العنف .

ولكل حالة طريقة أمرها ونهيها التي يقدّرها الآمر والناهـي العـارف ، ويتصرف بقدرها فلا يتجاوزها الى ما فوقها حيث لا تدعو الحاجـة اليه ، ولا ينحط بها الى ما دونها ، حيث لا يؤثر ذلك في ردع السفيه عن غيّـه وحمله على الاستقامة والصلاح .

وثمة حالات من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بدّ فيها من القتال ، وهذه حالات تحتاج الى أن يقود عملية الأمر والنهي فيها الحاكم العادل . وفي هذه الحالات الخطيرة جداً لا يجوز لآحاد الناس أو جماعاتهم أن يقوموا بها دون قيادة حاكم شرعي عادل .

---

(١) نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص : ٢٥٢ .

وإذا كانت مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتدرج صاعدة من الأنكار بالقلب الى الانكار باللسان الى الانكار باليد ، وللانكار باللسان درجات ، وللانكار باليد درجات . . .

وإذا كانت الحالات العادية للأمر والنهي تتفاوت في خطورتها وأهميتها بما يستدعي هذه المرتبة من الانكار أو تلك . . .

فإن الحالات الكبرى التي لا بدّ فيها من تدخل الحاكم العادل والأمة كلها قد تبلغ درجة من الخطورة لا بدّ فيها من الانكار بالقلب واللسان وأقصى حالات الانكار باليد ـ أعني القتال .

وهذا هو ما كان يواجهه المجتمع الاسلامي في عهد الامام عليه السلام ، متمثلاً تارة في ناكثي البيعة الذين خرجوا على الشرعية واعتدوا على مدينة البصرة ، ولم تفلح دعوته لهم بالحسنى في عودتهم الى الطاعة واضطروه الى أن يخوض ضدهم معركة الجمل في البصرة . أو المتمردين على الشرعية في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان الذي رفض جميع الصيغ السياسية التي عرضها عليه الامام ليعود من خلالها إلى الشرعية . أو المارقين الخوارج على الشرعية والذين رفضوا كل عروض السلام التي قدمت لهم ، وأصروا على الفتنة ومارسوا الارهاب ضد الفلاحين والآمنين والأطفال والنساء . .

في هذه الحالات وأمثالها على المسلم المستقيم أن يبرأ من الانحراف في قلبه ، وأن يدينه علناً بلسانه ، وأن ينخرط في أيّ حركة يقودها الحاكم العادل لتقويم الانحراف بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك .

قال عليه السلام ، فيما يبدو أنه تقسيم لمواقف الناس الذين كان يقودهم من المنكر المبدئي الخطير الذي كان يهدد المجتمع الاسلامي كله في استقراره ، وتقدمه ووحدة بنيه :

« فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه ، فذلك المستكمل لخصال الخير . ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتّارك

بيده فذلك متمسّك بخصلتين من خصال الخير . ومنهم المنكر بقلبه والتّارك بيده ولسانه فذاك الذي ضيّع أشرف الخصلتين من الثّلاث وتمسّك بواحدة . ومنهم تارك لانكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميّت الأحياء »[1] .

ونلاحظ أن الامام سمّى التارك ، في هذ الحالة الخطيرة ، لجميع مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « ميّت الأحياء » ونفهم صدى هذا الوصف إذا لاحظنا أن إنساناً لا يستشعر الأخطار المحدقة بمجتمعه ، ولا يستجيب لها أيّ استجابة ، حتى أقل الاستجابات شأناً وأهونها تأثيراً ، وأقلها مؤ ونة وهي الانكار بالقلب الذي يقتضيه مقاطعة المنكر واعتزال أهله - ان انساناً كهذا بمنزلة الجثة التي لا تستجيب لأيّ مثير ، لأنها خالية من الحياة التي تشعر وتستجيب .

ويقول عبد الرحمان بن ابي ليلى الفقيه ، وهو ممّن قاتل مع الامام في صفين ، أن الامام كان يقول لهم حين لقوا أهل الشام :

« أيّها المؤمنون . إنّه من رأى عدواناً يعمل به ، ومنكراً يدعى اليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه . ومن أنكره بالسّيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظّالمين هي السّفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطّريق ، ونوّر في قلبه اليقين »[2] .

ونلاحظ هنا أن الامام وضع للانكار بالسيف - وهو أقصى مراتب الانكار باليد - شرطاً ، هو أن تكون الغاية منه إعلاء كلمة الله لا العصبية العائلية أو العنصرية ، ولا المصلحة الخاصة ، ولا العاطفة الشخصية . وهذا شرط في

---

(١) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص : ٣٨٠ .

(٢) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص : ٣٧٩

جميع أفعال الانسان ، وفي جميع مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلاّ أن الامام عليه السلام صرّح به في هذه المرتبة لخطورة الآثار المترتبة على القيام بها من حيث انها قد تؤدي الى الجرح والقتل .

***

ويقدّر الامام أن كثيراً من الناس يتخاذلون عن ممارسة هذا الواجب الكبير فلا يأمرون بالمعروف تاركه ولا ينهون عن المنكر فاعله بسبب ما يتوهمون من أداء ذلك الى الاضرار بهم : أن يعرضوا حياتهم للخطر ، أو يعرضوا علاقاتهم الاجتماعية للاهتزاز والقلق ، أو يعرضوا مصادر عيشهم للانقطاع . . وما إلى ذلك من شؤون .

وقد لحظ الشارع هذه المخاوف ، فجعل من شروط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدم ترتب ضرر معتدّ به على الآمر والناهي .

ولكن كثيراً من الناس لا يريدون أن يمسّهم أي أذى أو كدر . وهذا موقف ذاتي وأناني شديد الغلوّ لا يمكن القبول به من إنسان يفترض فيه أنه ملتزم بقضايا مجتمعه كما هو شأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر . فهو انسان يستبدّ به القلق لأيّ انحراف يراه ، ويدفعه قلقه وأخلاقه الى أن يتصدّى للانحراف بالشكل المناسب ، وهو الذي قال فيه الامام في النص السابق « المستكمل لخصال الخير » .

لقد نبه الامام ـ في موضعين من نهج البلاغة على أن التخاذل عن الأمر والنهي خشية التعرض للأذى ناشىء عن أوهام ينبغي أن يتجاوزها المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه ، فلا يجعلها هاجسه الذي يشلّه فيحول بينه وبين الحركة المباركة المثمرة . فقال الامام فيما خاطب به أهل البصرة في إحدى خطبه ، وقد كانوا بحاجة الى هذا التوجيه ، لما شهدته مدينتهم ، وتورط فيه كثير منهم من فتنة الجمل :

« وإنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لخلقان من خلق

الله سبحانه ، وانّـهما لا يقرّبان من أجل ، ولا ينقصان من رزق »[1] .

ونوجّـه النظر الى قوله عليه السلام أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله عزّ وجلّ ، فالله هو الآمر بكل معروف ، والناهي عن كل منكر ، وإذن ، فإن المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه الواعي للأخطار المحدقة به ، يمتثل ـ حين يأمره الله تعالى ويتبع سبيله الأقوم .

وقال الامام في موقف آخر :

« وإنّ الأمر بالمعروف والنّـهي عن المنكر ، لا يقرّبان من أجل ولا ينقصان من رزق »[2] .

***

قلنـا ان احياء هذه الفريضـة ، وجعلهـا إحـدى هواجس المجتمـع الدائمة ، وإحدى الطاقات الفكرية الحيّـة المحركة للمجتمع كان من شواغل الامام الدائمة .

وكان يحمله على ذلك عاملان .

أحدهما أنه امام المسلمين ، وأمير المؤمنين ، ومن أعظم واجباته شأناً أن يراقب أمته ، ويعلّـمهـا ما جهلـت ، ويعمّـق وعيهـا ممـا علمـت ، ويجعـل الشريعة حيّـة في ضمير الأمة وفي حياتها .

وثـانيهما هو قضيتـه الشـخصية في معاناتـه لمشـاكل مجتمعـه الـداخلية والخارجية في قضايا السياسة والفكر .

فقد كان الامام يواجه في مجتمعه حالة شاذة لا يمكن علاجها والتغلب

(١) نهج البلاغه ـ رقم الخطبة ١٥٦ .
(٢) نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص ٣٨٠ .

عليها إلا بأن يجعل كلّ فرد بالغ في المجتمع ـ والنخبة من المجتمع بوجه خاص ـ من قضيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في كل موقف تدعو الحاجة اليهما وخاصة في المواقف الخطيرة ، قضية التزام شخصي واعٍ وصارم .

لقد شكا الامام كثيراً من النخبة في مجتمعه ، وأدان هذه النخبة بأنها نخبة فاسدة في الغالب لأنها لم تلتزم بقضية شعبها ووطنها وإنّما تخلّت عن هذه القضية سعياً وراء آمال شخصية ، وغير أخلاقية . . .

أكثر من هذا : لقد اتهم الامام هذه النخبة مراراً بأنها خائنة . ومن مظاهر عدم التزامها بقضية شعبها أو خيانته هو تخليها الذي لا مبرّر له عن ممارسة واجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وإذ يئس الامام من التأثير الفعّال في هذه النخبة فقد توجّه بشكواه رأساً الى عامة الشعب محاولاً أن يحركه في اتجاه الالتزام العملي بقضيته العادلة ، موجهاً وعيه نحو الأخطار المستقبلية ، محذراً له من تطلّعات نخبته .

نجد هذا التوجه نحو عامة الشعب مباشرة ظاهراً في الخطبة القاصعة التي تضمنت ألواناً من التحذير ، النابض بالغضب ، من السقوط في حبائل النخبة

وكانت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ فيما يبدو ـ والتراخي أو اللاّ مبالاة التي تظهرها النخبة نحو هذه القضية ـ إحدى أشد القضايا الحاحاً على ذهن الامام وأكثرها خطورة في وعيه .

وكان أسلوب التنظير بالتاريخ إحدى الوسائل التي استعملها الامام في تحذيره لشعبه ، وفي تعليمه الفكري لهذه الفريضة .

لقد كانت شكواه وتحذيراته المترعة بالمرارة والألم نتيجة لمعاناته اليومية القاسية من مجتمعه بوجه عام ومن نخبة هذا المجتمع بوجه خاص .

ولا بدّ أن هؤلاء وأولئك قد سمعوا من الامام مراراً كثيرة مثل الشكوى

التالية التي قالها في أثناء كلام له عن صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل :

« إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالاً ، ويموتون ضلّالا . ليس فيهم سلعة أبور[1] من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أعلى ثمناً من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه ، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر »[2] .

***

كان النهج الذي سار عليه الامام في حكمه نهج الاسلام الذي يستجيب لحاجات عامة الناس في الكرامة ، والرخاء والحرية .

وكان هذا النهج يتعارض ، بطبيعة الحال ، مع مصلحة طبقة الأعيان وزعماء القبائل الذين اعتادوا على الاستمتاع بجملة من الامتيازات في العهد السابق على خلافة أمير المؤمنين علي (ع) .

وقد كان لهذه الطبقة ذات الامتيازات أعظم الأثر في الحيلولة بشتى الأساليب دون تسلّم الامام للسلطة في الفرص التي مرّت بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وبعد وفاة أبي بكر ، وبعد وفاة عمر . ولكنه بعد وفاة عثمان تسلّم السلطة على كراهية منه لها ، وعلى كراهية من النخبة له ، فقد قبلت به مرغمة لأن الضغط الذي مارسته الأكثرية الساحقة من المسلمين في شتى حواضر الاسلام شلّ قدرة النخبة المالية وطبقة الأعيان على التأثير في سير الأحداث ، فتكيّفت مع الوضع الجديد الذي وضع الامام علياً ـ بعد انتظار طويل ـ على رأس السلطة الفعلية في دولة الخلافة .

---

(١) أبور ـ على وزن أفعل ـ من البور ، الفاسد ، بار الشيء أي فسد ، وبارت السلعة أي كسدت ولم تنفق ، وهذا هو المراد هنا : أن العمل الحق بالقرآن كاسد لا يقبله الناس ولا يتعاملون معه .

(٢) نهج البلاغة .

وقد كشفت الأحداث التي ولدت فيما بعد عن أن هذا التكيّف كان مرحلياً ، رجاء أن تحتال في المستقبل ، بطريقة ما ـ لتأمين مصالحها وامتيازاتها .

وحين يئست طبقة الأعيان هذه من امكان التأثير على الامام وتبدّدت أحلامها في تغيير نهجه في الادارة وسياسة المال وتصنيف الجماعات تغييراً ينسجم مع مصالحها فيحفظ لها مراكزها القديمة ، ويبوّئها مراكز جديدة ويمدّها بالمزيد من القوة والسلطان على القبائل والموالي من سكان المدن والأرياف . . . حين يئست هذه الطبقة من كل هذا وانقطع أملها . . . مع كثير من أفراد هذه الطبقة بتطلّعاته الى الشام ومعاوية بن أبي سفيان ، فقد رأوا في نهجه وأسلوبه في التعامل مع أمثالهم ما يتفق مع فهمهم ومصالحهم . . . وتخاذل بعض أفرادها عن القيام بواجباتهم العسكرية في مواجهة النشاط العسكري المتزايد الذي قام به الخارجون عن الشرعية في الشام ، هذا النشاط الذي اتخذ في النهاية طابع الغارات السريعة وحرب العصابات .

وكان تخاذلاً لا يمكن تبريره بجبنهم فشجاعتهم ليست موضع شك على الاطلاق .

ولا يمكن تبريره بقلّتهم ، فقد كانت الأمة قادرة على أن تزوّد حكومتها الشرعية بجيوش جرارة وجنود أقوياء مدربين جعلت منهم طبيعتهم ، وثقافتهم ، وحروب الفتح التي خاضوها على مدى سنين طويلة من خيرة المقاتلين في العالم .

ولا يمكن تبريره بنقص في التسليح وعدة الحرب وعتادها ، فقد كانت معامل السلاح نشطة لتأمين احتياطي ضخم من السلاح لمجتمع كان لا يزال محارباً .

ولا يمكن تبريره بسوء الحالة الاقتصادية ، فقد كان المال العام وفيراً بعد أن أصلحت الادارة المالية في خلافة الامام .

لم يكن إذن ثمة سبب للتخاذل سوى الموقف السياسي غير المعلن الذي

صممت النخبة من الأعيان وزعماء القبائل على التمسك به ، والتصرّف في القضايا العامة وفقاً له ، الى النهاية ، وذلك بهدف تفريغ حكومة الامام علي من قوة السلطة ، وجعلها عاجزة عن الحركة بسبب عدم توفر الوسائل الضرورية لها ، وهذا ما يؤدي في النهاية الى انتصار التمرّد على الشرعية .

كان هذا الموقف السياسي غير المعلن هو سبب التخاذل .

وقد كان هذا الموقف غير معلن ، بل كان قادة هذه النخبة يوحون باخلاصهم وتفانيهم ، لأن هذه الطبقة كانت تخاف ، إذا أعلنت موقفها وكشفت عن نواياها وأهدافها البعيدة وأمانيها المخزية ، من جمهور الأمة أن يكتشف لعبتها ضد آماله ومصالحه ، فيدينها ويعاقبها .

وقد حفظ لنا الشريف في نهج البلاغة نصوصاً كثيرة يلوم فيها الامام نخبة مجتمعه لوماً قاسياً مراً على تراخيهم وتخاذلهم عن القيام بالتزاماتهم العسكرية في الدفاع عن الشرعية ، ولا شك أن الامام في آخر عهده كان مضطراً للاكثار من هذا اللوم والتقريع ، كقوله في إحدى خطبه :

« ألا واني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً واعلاناً ، وقلت لكم : أغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم[1] ألاّ ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم[2] ، حتى شنّت[3] عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان . . . . . . « فيا عجباً ! عجباً والله يميت القلب ، ويجلب الهمّ ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرّقكم عن حقكم ! فقبحاً لكم وترحاً[4] حين صرتم غرضاً يرمى : يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغْزَوْنَ ولا

---

(١) عقر دارهم : أصل دارهم ، والعقر : الاصل ، ومنه : العقار للنخل ، كأنه أصل المال .

(٢) تواكلتم : من وكلت الامر اليك ووكلته الي ، أي لم يتوله أحد منا ، ولكن أحال به كل واحد على الاخر .

(٣) شنت الغارات : فرقت ، أي نشبت الحروب الصغيرة في أماكن متعددة ، (حرب العصابات) .

(٤) دعاء عليهم بالخزي والسوء : القبح ، والترح .

تغزون ، ويعصى الله وترضون » .

« فإذا أمرتكم بالسّير اليهم في أيّام الحرّ قلتم : هذه حمّارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحرّ[1] ، وإذا أمرتكم بالسير اليهم في الشتاء قلتم : هذه صبّارة القرّ[2] كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون ، فأنتم والله من السّيف أفرّ » .

« يا أشباه الرّجال ولا رجال ! حلوم الأطفال ، وعقول ربّات الحجال[3] لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة ـ والله ـ جرّت ندماً وأعقبت سدما[4] .

« قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني نغب التّهمام أنفاساً[5] وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان ، حتّى لقد قالت قريش : ان ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب ، لله أبوهم وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وهأنذا قد ذرّفت[6] على السّتّين ! ولكن لا رأي لمن لا يطاع »[7] .

***

(١) حمارة القيظ : شدّة حره . ويسبخ عنا الحر : بمعنى يخف ، ويلطف الهواء .

(٢) صبارة الشتاء : بتشديد الراء ـ شدة برد الشتاء . وهذه هي الأعذار التي كانوا يبرّرون بها تخاذلهم ويلوذون بها دون كشف موقفهم السياسي الذي بيناه .

(٣) الحجال : جمع حجلة ، وهي بيت يزين بالستور ، والثياب ، والأسرّة .

(٤) السدم : الحزن والغيظ

(٥) النغب : جمع نغبة : وهي الجرعة ، والتهام : الهمم ، أنفاساً : جرعة بعد جرعة .

(٦) ذرفت : زدت على الستين .

(٧) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم : ٢٧ .

بهذه المرارة ، وبهذا الغضب ، وبهذه السخرية ، وبهذا الاحتقار كان الامام يواجه هذه النخبة التي تخاذلت عن القيام بواجبها ، أو خانت قضية شعبها .

ويبدو أن هذه الطبقة ـ أو فريقاً منها ـ كانت تحاول ، ستراً لمواقفها التي عمل الامام على فضحها ، أن تتظاهر في بعض الحالات بالغيرة والحمية الدينية ، فتتخذ مواقف لفظية آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر دون أن تترجم ذلك الى أفعال وممارسة عملية ، شأنها في ذلك شأن الكثيرين ممّن يسترون خياناتهم وأنانيتهم ، وحرصهم على المتاع الدنيوي بالمواقف الأخلاقية اللفظية .

ولكن الامام عليّاً كان يعرف هؤلاء ، ومن السهل معرفتهم في كل زمان ، وكان يفضح هذه المواقف المنافقة بقسوة ، لأنها تضيف الى جريمة الخيانة السياسية رذيلة النفاق والتمويه على بسطاء الناس ، فيقول مبصراً مجتمعه بفساد العلاقات الناشيء من فساد النخبة :

« . . . وهل خلّفتم إلاّ في حثالة[1] لا تلتقي بذمّهم الشّفتان ، استصغاراً لقدرهم ، وذهاباً عن ذكرهم ، فإنّا لله وإنّا اليه راجعون » .

« ظهر الفساد فلا منكر مغيّر ، ولا زاجر مزدجر . أبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه ، وتكونوا أعزّ أوليائه عنده ! هيهات ! لا يخدع الله عن جنّته ، ولا تنال مرضاته إلاّ بطاعته .

« لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والنّاهين عن المنكر العاملين به »[2] .

***

(١) الحثالة : الرديء من كل شيء .

(٢) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ١٢٧ .

وإذا كانت مصلحة الحكم المستبد الطبقي او الفئوي تقضي بأن يصمت الشعب ولا يرتفع منه صوت اعتراض أو احتجاج ، أو إدانة مهما أصابه من مظالم ، ومهما حل بحقوقه من انتهاكات ، فإن مصلحة الحكم الشعبي الملتزم بالمصالح الحقيقية للناس العاديين البسطاء هي على العكس من ذلك . . ان مصلحة هذا الحكم الذي يستمدّ فاعليته وقوته من مجموع الشعب هي في أن يتكلّم الناس في الشأن السياسي مؤ يدين أو منتقدين لحماية مصالحهم الحقيقية في مواجهة البنى العليا في المجتمع التي تتبع سياسات مضادة لمصالح مجموع الشعب على المدى القريب أو البعيد ، والتي تعمل باستمرار لتكوين حالات اجتماعية ، ومشاغل واهتمامات فكرية تصرف فئات الشعب عن مصالحها الجوهرية[1] وتقعد بها عن مساعدة الحكم الشعبي الذي يمثل هذه المصالح ويعمل لتخفيفها ، هذا إذا لم تفلح هذه البنى العليا في أن تؤلّب بعض فئات الشعب ـ نتيجة للتضليل ـ ضد هذا الحكم .

وسكوت الشعب في حالة النشاط المعادي الذي تقوم به البنى العليا ، أو عدم مبالاته ، يترك الساحة خالية أمام هذه القوى لتفسد على الحكمُ الشعبي سياساته المستقبلية دون أن تخشى عقاباً ، لأن الحكم في هذه الحالة يقف في مواجهة تلك القوى وهو أعزل ، وهذا يمنعها من التغلب عليه أو من تجاوزه . وهذا ما كان يحدث في كثير من الحالات في عهد الامام عليه السلام ، وكان يثير غضبه على النخبة لفسادها ، ويحمله على كشف عيوبها أمام أعين الناس .

لقد كان الامام عليه السلام حريصاً أشدّ الحرص على أن يحرك الجماهير ويدفع بها دوماً الى أن تعبّر عن رأيها ، وتعلن عن مواقفها .

وتعكس لنا النصوص إدراك الامام العميق للأهمية الكبرى والحاسمة

(١) في المؤتمر الذي عقده الخليفة عثمان بن عفان ، عند تعاظم موجة الاحتجاج والتذمر ـ وجمع الولاة والعمال الكبار ـ لمعالجة الموقف المتفجر بالغضب والنقمة على سياسة الدولة ـ كان اقتراح عبد الله بن عامر ، حاكم ولاية البصرة ، أن تحبس الجيوش حيث هي (تجمر) ولا يؤذن لها بالعودة ليشغل الجنود بمشاكل حياتهم اليومية عن النشاط السياسي ـ ومن المؤسف أن هذا الاقتراح هو الذي تمّ العمل به فأدى الى الفتنة الكبرى .

التي تتبوئها هذه المسألة في عمله السياسي ، وذلك في مظهرين :

الأول :

كثرة المناسبات التي أثار فيها الامام موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتنوّع الأساليب التي شرحه بها . وهذا أمر ملفت للنظر بالنسبة إلى حكم شرعي ثابت في القرآن الكريم والسنّة النبوية ويعتبره الفقهاء من الأحكام القطعية الضرورية ان هذا الالحاح المستمر على مسألة الأمر والنهي يكشف عن ان الامام كان يواجه في المجتمع حالة غفلة عن الحكم الشرعي بوجوب الأمر والنهي ، وحالة تراخ عن القيام بهذه الفريضة الاسلامية على وجهها ، وهذه الغفلة وهذا التراخي حملاه على أن يذكر المسلمين بفريضة الأمر والنهي ما استطاع .

الثاني :

عنف الاسلوب الذي عبّر به الامام عن أفكاره وعن معاناته حين كان يوجّه خطاباته الى المسلمين في هذا الموقف أو ذاك مقرّعاً لائماً ، أو مشجعاً حاثاً لهم على أداء هذه الفريضة . . . وهو ما يكشف عن أن الامام كان يعاني من قلق عميق وغضب مكبوت نتيجة لما يراه في المجتمع من إهمال وتراخٍ .

***

وقد حثّ الامام المسلمين على الالتزام العملي بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياتهم العامة وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية بأساليب متنوعة ، ونظر اليها من زوايا متعددة .

ومن جملة الأساليب التي اتبعها في تعليمه الفكري والسياسي بالنسبة الى هذه الفريضة أسلوب التنظير التاريخي ، فمن ذلك قوله في الخطبة القاصعة :

« وإنّ عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه ، وأيّامه
ووقائعه ، فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه ، وتهاوناً

ببطشه ، ويأساً من بأسه ، فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم ، الاّ لتركهم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فلعن الله السّفهاء لركوب المعاصي ، والحلماء لترك التناهي » .

نلاحظ أن الامام عبّر في هذا النص ، كما في نصوص أخرى - عن أفكاره بشأن ما يراه في مجتمعه من تهاون وتراخٍ في امتثال فريضة الأمر والنهي ، بأسلوب شديد الوقع يتجاوز النصيحة الرقيقة الهادئة الى الانذار الشديد ، والتحذير من أهوال كبرى مقبلة ، واستعان على تصوير ذلك بالتذكير بما حلّ في القرن الماضي من اللعن نتيجة لاهماله هذه الفريضة أو تراخيه عن القيام بها .

واللعن هنا ليس عقاباً روحياً وأخروياً فقط ، انه هنا يأخذ معنى سياسياً ، ان اللعن هو البعد عن رحمة الله ورعايته ، وهذا يعني أن الملعون يتعرّض للنكبات السياسية والاجتماعية التي تؤدي بهم في النهاية الى الانحطاط والانهيار .

والظاهر ان الامام يعني بالقرن الماضي الاسرائيليين ، فإن في كلامه هنا قبساً من الآية الكريمة :

﴿ لُعِنَ الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[1] .

***

في النص التالي اتّبع الامام أسلوب التنظير بالتاريخ أيضاً في تعليمه الفكري لمجتمعه بشأن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، معيداً الى

---

(١) سورة المائدة (مدنية) الاية : ٧٨ - ٧٩ .

أذهان مستمعيه قصة قوم ثمود القرآنية ، والنكبة المرعبة التي أبادتهم حين عصوا أمر الله تعالى اليهم في شأن ناقة نبيهم صالح (ع) .

وليس من همنا هنا عرض الحادث التاريخي القرآني ، وإنّما نبغي الكشف عن استخدام الامام للتاريخ في تعليمه الفكري .

والامام في التنظير الوارد في النص التالي يثير مسألة ذات أهمية بالغة في العمل السياسي ، وهي ان حركة التاريخ تقودها دائماً جماعة قليلة العدد من الناس تملك القدرة على الحركة فتبادر الى اتخاذ المواقف ، في حين أن غيرها من الناس يكون في حالة سكون ، فتكوّن بحركتها وقائع جديدة تحمل الناس على قبولها ، وتضع السلطة أمام أمر واقع .

وحين تكون هذه الجماعة المتحركة القليلة العدد ملتزمة بقضايا مجتمعها ، عاملة في سبيل مصلحته ، فإن واجب المجتمع أن يساندها ويقدم لها العون المعنوي والمادي في جهادها .

أمّا حين تعمل هذه الجماعة ضد مصالح المجتمع العليا والحقيقة ـ رغم ما توشّي به عملها من ألوان خادعة ـ فإن على المجتمع أن يتحرك ويقف في وجهها ، ويلجم اندفاعها ذوداً عن مصالحه .

أمّا سكوت المجتمع وسكونه وسلبيته تجاه مواقف هذه الجماعة فإنه جريمة يرتكبها في حق نفسه ، لأن الكارثة حين تقع في النهاية نتيجة لأعمال هذه الجماعة المتحركة لا تميّز بين المسببين لها وبين الساكتين عنهم . انها حين تقع تصيب بشرورها المجتمع كلّه ، بل لعلّها ، في قضايا السياسة والفكر ، تصيب الساكتين عنها أكثر ممّا تصيب المسببين لها ، والذين تكمن مصلحتهم في الانحراف والتزوير .

ومن هنا فإن ما اصطلح عليه في لغة السياسة في هذه الأيام باسم الأكثرية الصامتة ، هذه الأكثرية التي لا تبدي فيما يجري أمامها وعليها ولا تعيد ، وإنما تقبل ما يقوم به الأخرون مختارة أو مرغمة ، راضية أو ساخطة ، . . . هذه

الأكثرية الصامتة بموقفها هذا تقوم بدور الخاذل للحق أو المتواطىء على الجريمة .

وذلك لأن الصمت في هذه الحالات ليس علامة على البراءة والطيبة ، وإنّما هو علامة الجبن والغفلة والفرار من المسؤولية .

وهذه السلبية التي هي في مستوى الجريمة لا تعفي من العقاب ، والعقاب في هذه الحالة لا تقوم به السلطة وإنّما تقوم القوانين الاجتماعية التي تصنع الكارثة ، يقوم به القدر الذي لا يميّز بين الساكن والمتحرك وإنّما يجرف الجميع ، يقوم به الله تعالى الذي يؤاخذ الجميع بذنوبهم : المتحركين بذنب المعصية ، والساكتين بذنب توفير أجواء الجريمة أمام المجرمين ليرتكبوا جرائمهم .

ولذا ، فإن الأكثرية الصامتة ، من هذا المنظور ، لا تضمّ أبرياء ، وإنّما تضمّ متواطئين وجبناء ، سببوا ، بإيثارهم للسلامة الشخصية العاجلة ، كوارث عامة مستقبلية ، وجبنهم الذي يكشف عن أنانيتهم الرخيصة والذليلة يكشف عن أنهم ليسوا جيلاً صالحاً لأن يبني حياة مزدهرة .

إن الكوارث الاجتماعية ، كالكوارث الطبيعية ، تجرف في طريقها ، حين تقع، النبات النافع والنبات الضار ، ولا تميّز بينهما في الدمار .

قال عليه السلام :

« أيّها النّاس . إنّما يجمع النّاس الرّضاء والسّخط ، وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد ، فعمّهم الله بالعذاب لّما عمّوه بالرّضا »(١) .

***

وقد حذّر الامام مجتمعه في إحدى استبصاراته نحو المستقبل من وضعية

---

(١) نهج البلاغة ـ رقم النص ١٩٩ .

فكرية وثقافية تؤدي الى هجر الأصول الثقافية والفكرية التي تكوّن روح المجتمع الاسلامي وتسمه بطابعه الخاص المميز له عن سائر التجمعات الثقافية ـ الحضارية ، وتعطيه دوره المميّز والخاص في حركة التاريخ العالمي وبناء الحضارة ـ . . . وتؤدي به ـ نتيجة لانبثاقه عن أصوله ـ الى أن يكون نسخة من ثقافة أخرى ، ووحدة من وحدات حضارة أخرى ، وتغدو الأصول الثقافية التي ترجع كلها الى الكتاب والسنّة مجرّد أشكال يتداولها الناس دون أن يكون لها دور في تكوين المفاهيم ، وبناء الشخصية ، ورسم طريق العمل .

إن المسلمين أنفسهم ، يومئذٍ ، سينبذون الكتاب باعتباره مصدراً للمفاهيم الفكرية ، ويتجهون نحو منابع غريبة عن ثقافتهم وحضارتهم ، وعقيدتهم وشريعتهم ، وتاريخهم ، يستمدون منها الغذاء العقلي والنفسي ، والتوجيه السلوكي .

وننبه هنا الى أن الاغتراب الثقافي الناشيء عن هجر الأصول ـ وهو ما حذّر الامام منه ـ غير الانفتاح الثقافي ـ الحضاري الذي يتولّد من الطموح الى التفاعل مع الآخرين واكتشاف صيغهم الحضارية والتعرّف على فتوحهم الفكرية مع الحفاظ على الأصول ، والأمانة للذات ومقوّماتها . . . فهذا الانفتاح أمر مطلوب ومرغوب ، وقد مارسه المسلمون وكانوا سادة فيه حين أنشأوا الحضارة الاسلامية العظيمة التي انفتحت على كل الانجازات الخيّرة في الحضارات الأخرى ، فاكتشفوها وكيّفوها وفقاً لقيم الاسلام ، ومفاهيم الاسلام ، وأخلاقيات الاسلام المستمدة من الكتاب والسنّة والفقه .

قال عليه السلام :

« . . . وإنّه سيأتي عليكم بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ ، ولا أظهر من الباطل ، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله ، وليس عند أهل ذلك الزّمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته ، ولا أنفق منه إذا حرّف عن

مواضعه ، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر ، فقد نبذ الكتاب يومئذٍ حملته ، وتناساه حفظته فالكتاب يومئذٍ وأهله طريدان منفيّان ، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤ ويهما مُؤوٍ . . . . فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ومعهم وليسا معهم ، لأن الضلالة لا توافق الهدى وان اجتمعا . . . »[1] .

وتصور الفقرة الأخيرة من هذا النص أبلغ تصوير واقع الانفصال بين الأمة وبين قيادتها الفكرية نتيجة لاغترابها الثقافي ، وانفصالها ـ في مجال تكوين المفاهيم والتوجيه ـ عن أصولها الفكرية .

وهذا الاغتراب الثقافي ـ الحضاري الناشيء عن هجر الأصول ـ وليس عن التفاعل مع الآخرين ـ يؤدي الى موقف في المنكر والمعروف خطير ، فإن ثمة مقياسين للقيم والمثل الأخلاقية . أحدهما المقياس الموضوعي ، والآخر المقياس الذاتي .

المقياس الموضوعي هو الذي يجعل شريعة المجتمع وعقيدته منبعاً للقيم الأخلاقية ففي مجتمع اسلامي ، مثلاً ، يكون منبع القيم هو العقيدة والشريعة الاسلاميتان . وكذلك الحال في مجتمع مسيحي مثلاً أو بوذي .

وهذا المقياس يقضي بأن يكون المجتمع ملتزماً بعقيدته وشريعته في مؤسساته ونظمه وعلاقاته بدرجة تجعله تعبيراً عن تلك العقيدة والشريعة .

والمقياس الذاتي هو الذي يجعل منبع القيم الأخلاقية شخص الانسان ، فالانسان في هذه الحالة هو الذي يخترع أخلاقياته وقيمه التي تكيّف سلوكه تجاه المجتمع وعلاقاته في داخل المجتمع ، ويستبعد هذا المقياس أي مصدر للقيم خارج الذات للقيم والأخلاقيات .

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ١٤٥ .

وحينئذٍ يقع التعارض بين عقيدة المجتمع الرسمية وشريعته ، وبين أخلاقيات وقيم أفراده وفئاته ، ففي مجتمع اسلامي ، مثلاً ، أو مسيحي أو بوذي ، لا بدّ أن نكتشف ـ في حالة شيوع المقياس الذاتي للقيم بين الأفراد ـ أن التزام المجتمع بعقيدته وشريعته التزام شكلي يرافقه الالحاد العملي .

والأثر الذي يترتب على التزام المقياس الموضوعي للقيم في المجتمع أو المقياس الذاتي هام جداً .

أولاً :

يؤدي اعتماد المقياس الموضوعي الى نمو الفرد دون عقد وتمزقات داخلية ، لأنه يوفّر حالة التجانس والتكامل بين محتوى الضمير والعقل وبين التعبير السلوكي في العلاقات مع المجتمع وفي داخله .

أمّا اعتماد المقياس الذاتي فإنه يؤدي الى خلاف ذلك ، لأن اتباع المقياس الذاتي يحدث للفرد تمزقات داخلية وعقداً في نفسه ، لأنه يجعله دائماً في حالة تعارض وتجاذب بين الزام العقيدة والشريعة وبين رغبات الذات باعتبارها مصدراً للقيم ، ويؤدي ذلك الى انعكاسات لا تقتصر على الأفراد ، وإنّما تتجاوزهم الى المجتمع نفسه .

وثانياً :

إن المقياس الموضوعي بما يوفّره من تجانس في داخل الفرد بين أخلاقياته من جهة ومعتقده وشريعته من جهة أخرى يؤدي الى تلاحم واسع النطاق داخل المجتمع ، ويكوّن لدى المجتمع نظرة واحدة الى المشكلات ، ويؤدي أيضاً الى تكوين مواقف واحدة أو متقاربة بين الجماعات تجاه التحديات التي تواجه المجتمع .

أمّا اعتماد المقياس الذاتي فإنه يؤدي الى العكس من ذلك . إنه يؤدي الى تخلخل البنية الاجتماعية ، وتعدّد الفئات ذات المنازع الفكرية والسياسية المختلفة ، ويكوّن مناخاً ملائماً لتولّد المشاكل الاجتماعية وتعاظمها ، لأنّ

المقياس الذاتي لدى الأفراد والجماعات شديد التنوّع والاختلاف .

وهـذا التشرذم يؤدي : إمّـا الى العجـز عن اتخـاذ مواقف موحّـدة على الصعيد القومي أو الوطني نتيجة لتعدّد الارادات والميول ، وإمّـا الى الاستسلام للدعاوة السياسية التي يخطط لها وينفذها فريق من ذوي الأغراض والغـايات الخاصة يخضع عقول الناس لمفاهيمه وقناعاته ، ويحملها على قبول اختيارات قد لا تنسجم مع المصالح الحقيقية للأمة ، وإنّـما تنسجم مع مصالح هذا الفريق الذي يملك وسائل الدعاية والاعلان والاعلام ، وهذا هو ما يحدث في العصر الحديث ، ويؤدي الى كوارث كبرى على الأصعدة الوطنية في بعض الحالات ، وعلى الصعيد العالمي في بعض الحالات الأخرى ، حيث يعرّض سلام العالم كله أو سلام قارّة بكاملها لمطامح ومطامع حفنة صغيرة من الناس تكيّـف عقول شعوب بكاملها ، دافعة بها الى اتخاذ مواقف سياسية تناقض مصالحها الوطنية ، ومصالح جميع الشعوب ، وقضية فلسطين أكبر شاهد على ما نقول .

لقد نبّـه الامام عليه السلام الى هذا الخطر ، وحذّر منه مجتمعه ، فقال :

« فيا عجباً ، وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفـرق على اختـلاف حججهـا في دينهـا . لا يقتصّـون أثـر نبيّ ، ولا يقتدرون بعمل وصيّ ، ولا يؤمنون بغيب ، ولا يعفّـون عن عيب . يعملون في الشّـبهات ويسيرون في الشّـهوات . المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا . مفزعهم في المعضلات الى أنفسهم وتعويلهم في المهمات على آرائهم ، كأنّ كلّ امرىء منهم إمام نفسه ، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات »[1] .

***

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ٨٨ .

وأخيراً ، لقد بلغ من خطورة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الامام علي (ع) انه جعلها إحدى وصاياه البارزة الهامّة لإبنيه الامامين الحسن والحسين .

وقد تكرّرت هذه الوصية مرتين . إحداهما لإبنه الامام الحسن في وصيته الجامعة التي كتبها اليه بحاضرين عند انصرافه من صفين . والأخرى في وصيته للامامين الحسن والحسين في وصيته لهما وهو على فراش الاستشهاد بعد أن ضربه ابن ملجم المرادي بالسيف .

قال عليه السلام في الوصية الأولى :

« . . . . وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله بجهدك ، وجاهد في الله حقّ جهاده ولا تأخذك في الله لومة لائم »[1] .

وقال عليه السلام في الوصية الثانية :

« . . . أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي . . . وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإيّاكم والتدابر والتقاطع ، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فيولّى عليكم شراركم ، ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم »[2] .

***

سلام الله على علي في الخالدين .

---

(1) نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ رقم النص : ٣١ .

(2) نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ رقم النص : ٤٧

التاريخ في مجال السياسة

التاريخ في مجال السياسة

تمهيد

السياسة لدى رجل العقيدة ورجل الدولة الحاكم القائد ـ وهو ما كانه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ أداة للتغلّب على سلبيات الماضي والحاضر من أجل التوصل الى أوضاع حياتية أفضل في المستقبل لأكبر قدر من الناس .

والسياسة ، في الوقت نفسه ، أداة للمحافظة على إيجابيات الماضي والحاضر أمام عواصف التغيير والتقلّبات المفاجئة التي قد تحمل للمجتمع السياسي في ثناياها نذر كارثة .

السياسة ، إذن ، ليست فنّ التغيير فقط ، إنها فنّ الثبات أيضاً .

إن السياسي الأمين على قضية مجتمعه ، يعيش في أبعاد الزمان كلها ـ ماضيه وحاضره ومستقبله ـ ويتعامل مع حقائق الماضي ، وواقع الحاضر ، وآمال ومخاوف ومطامح المستقبل ، يقود ، بحذر لا يبلغ الجمود ومغامرة لا تبلغ التهور ، مجتمعه نحو آفاق جديدة دون أن يبتر استمراريته وبعده في الماضي .

نقول هذا في مواجهة دعاة التغيير منا في عصرنا هذا ، التغيير الذي يستهدف استئصال جذورنا لقذفنا في الفراغ تحت شعار : ريادة المستقبل ، جاعلين منا ساحة لتجربة النظريات والأفكار التي توضع في مراكز الحضارة الحديثة في أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي .

نقول هذا داعين الى إعادة النظر في هذا النهج لمصلحة نهج آخر أقل

غلوّاً ، وأكثر واقعية ، وأوثق صلة بتكويننـا العقيدي والحضـاري والثقـافي ، وأشدّ مُواءَمةً لمصالحنا في الحاضر والمستقبل ، وأوفق بدورنا الذي نطمـح الى استعادته لنساهـم به في إنقاذ الانسـان الحـديث بتقـويم الحضـارة الحديثـة ، وتصحيح مسارها نحو وضعية ملائِمَةٍ لتكوين الانسان .

***

لقد كانت سياسة أمير المؤمنين علي (ع) ـ كما سنـرى وجوهـاً منهـا في الفصول التالية ... محكومة بهاجس واحد كبير ونبيل : تكوين الانسان المسلم المتكامل القوي السعيد ، والمجتمع المسلم المتكامل القوي السعيد ، الانسان والمجتمع المؤهلين ليكونا قوّة خيّـرة في العالم ، يمثلان طموح الانسانية الدائم المتوهج نحو مثل أعلى .

وقد كانت ، لذلك ، سياسة لا تستمد مقوّماتها من الحفاظ على الذات وعلى مصالح الحاكم وأسرته ، فلقد كانت أسرة أمير المؤمنين علي أكثر الناس حرماناً من خيرات حكمه ، وكان هو عليه السلام أكثر حرماناً من أسرته .

وكانت سياسته تستضيء بنور الفكر ، وتستهدي تعليم الله ، وتنطلق من قيم الأخلاق والمناقب التي تشرّف الانسان ، ولذا فقد كانـت سياسـة الامـام انسانية بكل ما لهذه الكلمة من محتوى .

لـم تكن أبـداً سياسـة الأفعـال وردود الأفعـال ، وحسابـات الأربـاح والخسائر للحاكم وآله وبطانته ... هذه السياسـة التـي تحمـل روح الطـين والغريزة ، وتوجّـه بعقلية مزيج من روح الغاية وروح التجارة .

وقد كان أمير المؤمنين علي في سياسته أميناً لعقيدته ، أميناً لشريعته ، فلا ينحرف عنهما أبداً ،ولا يتجاوزهما ـ كما لا يقصّـر عنهما ـ في أمر من الأمور أو في حالة من الحالات .

أميناً لأخلاقياته القرآنية ـ النبوية ، ولذا فقد جعل من العمل السياسي

ممارسة رفيعة للمناقب ، أميناً لمجتمعه ، فيشركه في اتخاذ القرارات بعد أن يبصّره بعواقب سوء الاختيار :

« .... ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً[1] ونسبهم أهل الجهل فيه الى حسن الحيلة . ما لهم ! قاتلهم الله ! قد يرى الحوّل القلّب[2] وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حريجة[3] له في الدّين »[4] .

وقال في موقف آخر :

« والله ما معاوية بأدهى منّي ، ولكنّه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن كل غدرة فجرة ، وكل فجرة كفرة » « ولكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة »[5] والله ما استغفل بالمكيدة ، ولا أستغمز[6] بالشديدة »[7] .

***

وبعد هذا التمهيد ، كيف تعامل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع التاريخ في مجال تعليمه السياسي .

---

(١) الكيس : الفطنة والذكاء .

(٢) الحول القلب : هو البصير بتحويل الأمور وتقليبها .

(٣) الحريجة : التحرج والتحرز من الآثام .

(٤) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم : ٤١ .

(٥) حديث مروى عن النبي (ص) .

(٦) لا استغمز على البناء للمجهول ـ لايستضعفني الرجل القوي . والغمز ـ بفتح الميم ـ الرجل الضعيف .

(٧) نهج البلاغة ـ رقم النص : ٢٠٠ .

- ١ -

حركة التاريخ
في مظهر التفاعل الاجتماعي الثوري

البشر يتحركون دائماً في الزمان والمكان : يبدعون ، ويتواصلون بالتجارة والصداقة تارة ، وبالعداوة والحرب تارة ، وبالفكر دائماً .

ويتعاملون مع الطبيعة دائماً . يكيّفونها ويتكيّفون معها ، ويحبّونها ويهربون منها في بعض الأحيان .

وهم يواجهون الاخفاق وخيبات الأمل في حالات ، ويسعدون بنشوة النصر في حالات أخرى . ويشلّهم اليأس عن الحركة في بعض الحالات ، ولكن سرعان ما يؤجّج الأمل في التقدم والمستقبل الأفضل في قلوبهم جذوة الرغبة في التغيير فيعودون الى الحركة من جديد .

وهكذا يصنع البشر تاريخهم باستمرار . ينسجونه خيطاً فخيطاً ، ويبنونه ذرّة فذرّة من ملايين الآمال الصغيرة ، والمخاوف الصغيرة ، والأحقاد الصغيرة ، والشهوات الصغيرة ، التي تنكّرهم كلها وتتراكم فتتكوّن منها عجينة التاريخ .

ولكنها لن تكون تاريخاً ما لم تأخذ قواماً معيناً وما لم تتشكل بهيئة معينة . . . ما لم تتضمن فكرة تغيير ، وروح تغيير ، وعزيمة تغيير ، تجعل من

آحاد الآمال والمخاوف والأحقاد والشهوات التي تبلغ الملايين شيئاً واحداً كبيراً تنبض فيه روح واحدة تلفّ بوهجها كل المجتمع والجماعة ، وتدفع بهم - لا في طريق الحركات الأحاديّة المبعثرة - في طريق حركة واحدة متدفقة هادرة ، تحدوها رؤ يا واحدة أو رؤ ى متقاربة تلتقي على التغيير . حينئذٍ تنشد حركة التاريخ التي كانت هادئة وأمينة ، وتتعاظم ، وتلد الأحداث الكبيرة ، ويدخل المجتمع والجماعة في منعطف من التاريخ جديد .

قد يتمّ هذا التفاعل في حال السلم والاستقرار الاجتماعي فتكون الفترة الزمنية التي يستغرقها التغيير - بعد فترة الاعداد والاختمار - طويلة نسبياً ، لأن التغيير التاريخي يتم في هذه الحالة وفقاً لمعادلات السلم والاستقرار التي تجعل الانسان أكثر أناة وتؤ دة في حركته ، وأكثر قدرة على الاختيار .

وقد يتم هذا التفاعل في حال الغليان الاجتماعي والقلق العام . في هذا الحال تنشأ ظاهرتان :

الأولى - ظاهرة رفض وتمرّد في الجماهير ، يغذيها ويؤ جحها اليأس من العدالة الرسمية ، وينعشها الأمل في مستقبل أفضل لهذه الجماهير يتوصل اليه دعاة التغيير .

الثانية - تقابل الأولى وتتولّد منها ، وهي إجراءات القمع التي تلجأ إليها السلطة الرسمية من أجل أن تضمن سيادة وثبات نظامها وقيمها .

إن هذا القمع يعزز روح اليأس والغضب ، ويدفع الى مزيد من التمرّد والرفض ، ويرصّ - بدرجة أعلى من الصلابة والتماسك - ملايين الآمال والمخاوف والأحقاد والشهوات ، ويؤ جج روح الغضب ، ويدفع الجماهير ، أكثر فأكثر ، نحو العنف باتجاه التغيير . . . .

في هذه الحالة تقصر نسبياً ، الفترة الحاسمة التي يستغرقها التغيير - بعد فترة الاعداد والاختمار - . . . إن الأحداث تتسارع ، ويتعاظم حجمها ، وتتسع مساحة الفئات الاجتماعية التي تشارك فيها ، وتتصاعد الى أن تبلغ

الذروة التي ينهار عندها العهد التاريخي الذي كان سائداً ، ويدخل المجتمع في منعطف من تاريخه الجديد .

***

إذن البشر لا يتوقفون عن صنع التاريخ ، ولكنهم قد يصنعون تاريخهم في حال السلم ، وقد يصنعونه في حال الغليان والتوتر الاجتماعي ، كما قد يصنعونه بالحرب .

وقد لاحظ الامام علي عليه السلام حركة التاريخ في مظهرها الثاني لأن الظروف السائدة في مجتمعه كانت تدفع بهذا المجتمع نحو هذا المسار الدامي في مواجهة مستقبله المكفهر ، الحافل بالأنواء .

***

لقد تسببت أخطاء الحكم في عهد الخليفة عثمان بن عفان في خيبة آمال فئات واسعة من المسلمين وغضبها . كما تسببت ـ الى جانب ذلك ـ في انبعاث كثيرمن القيم والأخلاق والمطامح الجاهلية التي نشطت للعمل من خلال ممثليها ورموزها في قمة السلطة في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع . وقد أدّى انبعاث هذه القيم الجاهلية الى تعارض في المصالح بين ممثلي هذه القيم وبين أكثرية المسلمين الذين كانت تغتذي نفوسهم بالآمال التي تولدها قيم الاسلام في العدالة الخالصة والمساواة . . . هذا التعارض المأساوي الذي ما فتئت تغذيه أخطاء الحكم وسياسات الرموز الجاهلية العائدة ، فتعمّقه ، وتزيده حدّة ، وتدفع به الى مزيد من الاتساع والانتشار .

وقد تراكم كل ذلك على مدى سنين ، واتّسع الى أن شمل حواضر الدولة كلها ، وأدى في النهاية الى عاقبته الوخيمة وثمرته المرة : ثورة شارك فيها الأغنياء والفقراء ، السّاخطون بلا حقد والحاقدون من علية القوم . وأدّت الثورة الى مقتل الخليفة عثمان ، والى دخول المسلمين في منعطف من تاريخهم

جديد طلبوا من علي بن أبي طالب أن يقودهم فيه ، ولكنه رفض طلبهم ، لأنه أدرك ـ وهو الراعي للتاريخ وأفاعيله وآلية حركته ـ أن حجم الحاجات التي يفتقر اليها الناس والآمال التي تعمر قلوبهم أكبر بكثير من حجم الامكانات التي توفرها مؤسسات الدولة ، وأن حجم المعوقات التي يمثلها رموز العهد الماضي وقواه التي شلّتها الثورة فاضطرت الى الانكماش . . . . حجم هذه المعوّقات كبير وخطير ، لأنها مستشرية في جميع مراكز السلطة ، وقد قال لهم معلناً رفضه :

« دعوني والتمسوا غيري ، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول[1] . وإنّ الآفاق قد أغامت[2] ، والمحجّة قد تنكّرت[3] . واعلموا أنّي ان أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ الى قول القائل وعتب العاتب ، وان تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلّي اسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً ، خير لكم مني أميراً »[4] .

وقد ذكّر الامام ، فيما بعد ، بموقفه هذا في مناسبات كثيرة ، منها قوله في كلام له عند خروج طلحة والزبير عليه :

« فأقبلتم إليّ اقبال العوذ المطافيل على أولادها[5] ، تقولون : البيعة البيعة ! ! قبضت كفّي فبسطتموها ،

---

(١) لا تقوم له القلوب : لا تجترىء عليه . لا تثبت عليه العقول : لا تكاد تفهمه وتحققه ، يومىء بذلك الى المشكلات الاجتماعية والأزمات التي عصفت بالمجتمع كله .

(٢) أغامت : حجبها الغيم ، كناية عن صعوبة ايجاد الحلول المقبولة من الجميع .

(٣) المحجة : الطريق الواضحة ـ وتنكرت : التبس أمرها على الناس .

(٤) نهج البلاغة ـ رقم النص : ٩٠ .

(٥) العوذ المطافيل : الابل والضباء ذات الأولاد ، وهي جمع عائذة ، ومطفل كناية عن اللهفة التي توجهوا بها اليه طالبين منه قبول بيعتهم ، كما اللهفة التي تقبل بها أم الطفل على ولدها .

ونازعتكم يدي فجاذبتموها[1] .

ومنها قوله لطلحة والزبير أيضاً :

« والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ، ولا في الولاية أربة[2] ، ولكنّكم دعوتموني اليها ، وحملتموني عليها . . . »[3] .

وقال في موقف آخر :

« . . . وبسطتم يدي فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ثمّ تداككتم عليّ[4] تداكّ الأبل الهيم[5] على حياضها يوم ورودها ، حتّى انقطعت النّعل ، وسقط الرداء ، ووطىء الضّعيف ، وبلغ من سرور النّاس ببيعتهم إيّاي أن أبتهج بها الصّغير ، وهدج اليها الكبير[6] ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت[7] اليها الكعاب »[8] .

لماذا أبى علي بن أبي طالب أن يستجيب . . .

لعلّه كان يأمل أن يمر المجتمع ـ بعدما أصاب علاقاته من اهتزاز وتشويه في العهد الماضي ـ في مرحلة انتقال يقوده فيها رجال لا تتألّب عليهم مراكز القوى الجديدة التي تمثل قيم الجاهلة . . .

(١) نهج البلاغة ـ رقم النص : ١٣٥ .
(٢) الاربة : الغرض والرغبة .
(٣) نهج البلاغة ـ رقم النص : ٢٠٣ .
(٤) التدارك الازدحام ـ تصوير لحالهم في الاقبال على البيعة .
(٥) الهيم : العطاش : تصوير لرغبتهم العارمة في إنجاز البيعة .
(٦) الهدج : مشي الضعيف . بيان لاقبال الجميع على البيعة ، حتى أولئك الذين لهم من سنهم العالية أو مرضهم عذر يعفيهم من مشقة التزاحم الى البيعة .
(٧) الكعاب : جمع كاعبة : الفتاة حين ينهد ثدياها . وحسرت كشفت عن وجهها كناية عن اقبال الناس جميعاً وفرحتهم بالبيعة .
(٨) نهج البلاغة ـ رقم النص : ٢٢٧ .

ولكن تيار الرغبة كان عارماً ، كما تعكسه لنا النصوص الآنفة الذكر ، ولم يكن من الممكن تحويل ولاء الجماهير وثقتها الى بديل . لقد كان الرفض يعني الكارثة ، لأن القوى الجاهلية كانت قادرة ـ إذا استمر الفراغ في السلطة ـ أن تعود من جديد بعد أن تكتّل قواها المبعثرة ، وحينئذٍ يحرم المجتمع الاسلامي حتى من تجربة تكون في المستقبل نموذجاً وملهماً . . .

ولا نعدم في نهج البلاغة نصوصاً تضيء هذه المسألة ، وتوحي بقوّة أن الامام كان يفكر على هذا النحو ، وذلك كقوله في كلام له عنونه الشريف الرضي بـ « . . . يبين سبب طلبه الحكم ويصف الامام الحق » :

« . . . اللّهم انك تعلم انه لم يكن الذّي كان منّا منافسة في سلطان ، ولا التماس شيء من فضول الحطام ، ولكن لنردّ المعالم في دينك ونظهر الاصلاح في بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطّلة من حدودك »[1] .

وقوله في كتاب منه الى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولّاه امارتها :

« . . . ولكنّني آسى[2]، أن يلي[3] أمر هذه الأمّة سفهاؤها وفجّارها ، فيتخذوا مال الله دولاً[4] وعباده خولاً[5] والصالحين حرباً[6] ، والفاسقين حزبا . . . »[7] .

وهكذا استجاب علي بن أبي طالب للرغبات الملحّة المتلهفة ، فقبل

---

(١) نهج البلاغة ـ رقم النص : ١٢٩ .

(٢) آسى : أحزن . الماضي منه . أسيت بمعنى حزنت .

(٣) يلي : يكون والياً وحاكماً على الأمة .

(٤) دولاً : جمع دولة ، يعني : لئلا يكون المال العام بأيدي السفهاء والفجّار يتداولونه بينهم لمصالحهم مهملين مصالح الأمّة فيه . والعبارة تومىء الى قول الله عزّ وجلّ (لئلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ـ سورة) .

(٥) خول : عبيد ، يعني لئلا يستعبدوا الناس ويذلوهم .

(٦) حرباً ـ أعداء يحاربونهم .

(٧) نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ رقم النص : ٦٢ .

كارهاً ـ على ما يبدو ـ أن يتولى السلطة ويقود الأمة . وقد تبلورت وتحددت باستجابته وتوليه للسلطة ثلاث قوى سياسية ـ فكرية ، هي :

١ ـ **النهج الاسلامي الصافي النبوي** : تمثله السلطة الشرعية (الخلافة) وعلى رأسها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .

والهدف الآني المباشر والملحّ لهذا النهج كان تصحيح الأوضاع السياسية والادارية والاقتصادية في المجتمع الاسلامي الذي يتطلّع بلهفة الى تغييرات تحقق آماله . كما كان هذا الهدف يستبطن هدفاً آخر هو إعادة الاعتبار النظري والعملي للمفاهيم والقيم الاسلامية .

٢ ـ **النهج الجاهلي المموّه بالاسلام** . وقد كان هذا النهج يتمتع بسلطة واسعة وثابتة في المنطقة السورية . وكانت له جيوب في الحجاز ، والعراق ، ومصر ، وغيرها من بلاد الاسلام .

وقد بدا منذ اللحظة الأولى أن قائد هذا النهج هو معاوية بن أبي سفيان ، والهدف الآني والنهائي لهذا النهج هو تثبيت الأوضاع القديمة ، وإجهاض النهج النبوي أو قمعه بإثارة المشاكل والفتن في وجهه .

إنه الثورة المضادّة . . انه قطع الطريق على حركة التغيير .

. . . . وقد عبّر الامام عن قادة هذا النهج بأنهم « أرادوا ردّ الأمور على أدبارها » وذلك في كلام له عن أصحاب الجمل :

« إنّ هؤلاء قد تمالأوا[١] على سخط[٢] أمارتي ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، فإنّهم ان تمّموا علي فيالة[٣] هذ الرّأي انقطع نظام المسلمين ، وإنّما طلبوا هذه الدّنيا حسدا

(١) تمالأوا : تواطئوا واتفقوا وتعاونوا .
(٢) السخطة : البغض والنفرة .
(٣) فيالة الرأي : ضعفه وسخفه .

لمن أفاءها[1] الله عليه ، فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها . ولكم علينا العمل بكتاب الله ، تعالى ، وسيرة رسول الله ﷺ ، والقيام بحقه ، والنّعش[2] لسنّته »[3] .

٣ ـ الموقف المتردد الحائر ـ إذا صح أن يسمى التردد موقفاً ـ.

وتمثل هذا الموقف بعض القيادات الثانوية : (سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن عمر . . . وآخرون) .

هذا النهج لم يبلغ من الصفاء والوعي درجة تحمله على أن ينضوي في النهج النبوي ، وكانت مصالح رجاله من جهة وآثاره من التقوى في أنفس بعضهم من جهة أخرى ، قد حملتا هؤلاء الرجال على التزام جانب الحيطة والحذر من النهج الجاهلي فلم ينحازوا اليه في هذه المرحلة، وان كان بعضهم قد والى هذا النهج في النهاية .

هؤلاء قال عنهم الامام : (ع)

« خذلوا الحقّ ، ولم ينصروا الباطل »[4] .

ولما قال له الحارث بن حوط : أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة ؟ قال له الامام :

« ياحارث إنّك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت ، إنّك لم تعرف الحقّ فتعرف من أتاه ، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه » .

---

(١) أفاءها الله . . . أرجعها اليه ، من فاء بمعنى رجع .
(٢) النعش ، من نعش ينعش : بمعنى رفع السنة الى مقام العمل والتطبيق .
(٣) نهج البلاغة ـ رقم النص : ١٦٧ .
(٤) نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم : ١٨

فقال له الحارث بن حوط : فاني أعتزل مع سعد بن مالك وعبد الله بن عمر . . . فاجابه الامام قائلاً :

« ان سعدا وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق ، ولم يخذلا الباطل » [1] .

وكان بعض ممثلي هذا الموقف يتمتعون باحترام محدود في قواعدهم القبلية ، وهذا الاحترام لم ينبع من ولاء فكري بل من ولاء قبلي ، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسلمين نابع من صحبتهم للنبي (ص) ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على الساحة السياسية .

***

وقد ادرك الامام منذ اللحظة الأولى صعوبة موقفه ، فكشف للأمة عن ان حركة التاريخ قد عادت ذات نبض جاهلي ، فقد عاد التاريخ السابق على النبوة . . كما صارح الأمة بان المواجهة مع القيم البائدة العائدة تقتضي الحكمة ان يكون قوياً وصارماً . . . كما صارحهم بان الآمال في تغيير سريع وكامل نحو الافضل ينبغي ان تتضامن قليلا ليتاح للسلطة الشرعية ان تواجه قوى الجاهلية بمرونة .

هذه الرؤية السياسية عبّر عنها الامام خطبة خطبها في اول خلافته ، في المدينة ، أو هي ـ حسب رواية الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ـ أول خطبة خطبها بالمدينة ، قال فيها حسب رواية الجاحظ عن ابي عبيدة :

« ألا لا يرعينّ مرع الاّ على نفسه [2] شغل من الجنّة والنّار امامه . ساع مجتهد ينجو ، وطالب يرجو ، ومقصّر في النّار . . . » .

---

(١) نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم : ٢٦٢

(٢) لا يرعين . . أي لا يبقين ، أرعيت عليه اي أبقيت : يقول : من سالم سالم وهدأ فانما سلّم نفسه وأبقى عليها .

« اليمين والشمال مضلّـة ، والوسطى الجادّة [١] منهج عليه باقي الكتاب والسّـنة وآثار النبوّة . انّ الله داوى هذه الأمـة بدوائين : السّوط والسّيف ، لا هوادة [٢] عند الامام فيهما . استتروا في بيوتكم [٣] وأصلحوا ذات بينـكم ، والتّوبـة من ورائكم . من أبدى صفحته للحق هلك [٤] . . . انظروا : فان انكرتم فانكروا ، وان عرفتـم فآزروا . . . وقلّـما أدبـر شيء فأقبل . ولئن رجعت اليكم اموركم انكم لسعداء واني لأخشى ان تكونوا في فترة ، وما علينا الاّ الأجتهاد . . . » [٥] .

حذرهم ، أولا ، من اثارة القلاقل والاضطرابات .

ثم اثار في عقولهم وقلوبهم عقيدة البعث واليوم الآخر .

ثم بيّـن لهم ان الانحراف عن منهج الكتاب والسّـنة الى اليمين او الى الشمال يؤدي بصاحبه الى الضلال والتّيـه ، ولذا فان نبض الجـاهلية العائـد ضلال .

ثم كشف لهم عن ان المرحلة تقتضي الحكم أن يكون صارما (السـوط والسيف) . ولذا، فان على الناس ألاّ يخوضوا في أيّ شأن يزيد الوضع سـوءاً باثارة العصبيات القبلية والنزعات العشائرية ، داعياً اياهم الى ان يكفوا ويتوبوا عما سلف منهم من افساد .

---

(١) الجادة : الطريق المستقيمة الواضحة .

(٢) الهوادة : الرفق والصلح ، وأصله اللين .

(٣) استتروا في بيوتكم : لا يريد منع التجول كما يقولون في ايامنا ، وانّـما يريد النهي عن التجمعات ذات الطابع التحزبي القبائلي التي تدفع اليها العصبية القبلية كما انه لا ينهاهم عن النقد السياسي لانه قال (فان انكرتم فانكروا) .

(٤) الصفحة : جانب الوجه ، أو هي الوجه . يريد الامام ان من تعرض للحق بمخالفته وتجاوزه يهلك ، لأنه سيعاقب .

(٥) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ . ورواها الشريف الرضيّ في نهج البلاغـة بتغيير بعض العبارات ، انظر الخطبة رقم ١٧٦ : « ومن خطبة له عليه السلام في الشهادة والتقوى ، وقيل : انه خطبها بعد مقتل عثمان في اول خلافته .

ثم اعطاهم حق الرقابة ، وطالبهم بحقه في تأييدهم ومؤ ازرتهم .

ثم ابدى تشاؤمه من المستقبل وشكه في عودة النهج النبوي الى سابق قوّته (قلّما ادبر شيء فأقبل) ، ولكنه ، مع ذلك ، لم يفقد الأمل في تحسن الاوضاع (لئن رجعت اليكم اموركم انكم لسعداء) .

ثم حذرهم من أن على الآمال المشرقة في التغيير نحو الأحسن . . . نحو النهج النبوي الصافي ، ان تضامن نفسها ، وان يعود اصحابها الى شيء من الواقعية في تطلعاتهم : (. . . واني لأخشى ان تكونوا في فترة) .

قال ابن ابي الحديد في شرح هذه الفقرة :

« الفترة هي الأزمنة التي بين الأنبياء اذا انقطعت الرسل فيها ، كالفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله ، لانه لم يكن بينهما نبي ، بخلاف المدة التي كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام لانه بعث فيها انبياء كثيرون . فيقول عليه السلام : اني لأخشى ألاّ أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم ، فتكونوا كالأمم الذين في أزمنة الفترة لا يرجعون الى نبي يشافههم بالشرائع والاحكام . وكأنه عليه السلام كان يعلم ان الأمر سيضطرب عليه .

« ثم قال : (وما علينا الا الاجتهاد) يقول : أنا أعمل ما يجب عليّ من الاجتهاد في القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وامراء الفساد عن المسلمين ، فان تمّ ما أريده فذاك ، والا كنت قد أعذرت » [1] .

***

ان الامام عليه السلام قبل الحكم ، اذن ، بمزيج من التشاؤم والأمل ، ولكن سرعان ما تسرب الذبول الى شعلة الأمل ، فان القوى المترددة سرعان ما أخذت تنحاز رويداً رويدا نحو المعسكر المناهض للنهج النبوي، ان لم يكن في العلن ففي السر . . . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى راحت الجماهير

---

(١) المصدر السابق : ١/ ٢٨١ .

الغاضبة ، المترعة قلوبها بآمال التغيير تضغط في سبيل التغيير دون ان تقدّر ظروف المرحلة . وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيوية لئلا ينفجر المجتمع من الداخل بانحياز قوى موالية للنهج النبوي ، ولكنها غير واعية وغير ناضجة ، نحو معسكر الثورة المضادة .

***

وهكذا ، فبعد الصدمة التي شلّت قوى الثورة المضادة ، وبعد فترة الانتظار التي مرّت بها الفئات الأخرى من الأمة ، تفجّر الموقف من جديد ، وعاد الغليان الى المجتمع ، وعادت حالة الاختلاط والاضطراب المحمومة .

وظهرت للامام علي في هذه المرحلة التي بلغت فيها ازمة الحكم وازمة الفكر الذروة ـ ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تاريخ المستقبل للأمة الاسلامية حافلاً بالاهوال والمآسي ، وبكل ما فيه من ظلام ودماء ، وتمزقات وانهيارات ، تتخللها هنا وهناك ، في بعض الاحيان ، لمعات نور وحالات سلام عارضة ، وآمال مضيئة ملهمة ، وخيبات أمل قاسية .

لقد رأى ، رأى بحدس يضيؤه نور نبوي ، وعقل مستوعب لحركة التاريخ وآليتها التي تكاد ان تكون رياضية ـ رأى الفتنة آتية بكل ظلامها ، وحيلها ، وتلبيسها الحق بالباطل .

ورأى بعدها انتصار حركة الردة بقيمها الجاهلية ، بلبسها للاسلام (لبس الفرو مقلوباً) .

ورأى بعد ذلك معاناة الأمة : سمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الذين تسحقهم انيابها الوحشية ، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدماء من ضحاياها ، وأحس باعمق اعماق كرامته الانسانية ذل الانسان المسلم في مجتمع الردة ، وبكى بحرارة ومرارة لكل ما سيصيب الناس بعده .

ورأى بعد ذلك نار الثورة تحرق كل شيء ، وتهدم كل شيء ، تستلهم

حقد الناس ومرارتهم . . . ولكنها ثورة تقع في اخطاء الفتنة في أحيان ، وفي مهاوي الردة في احيان ، وقلما تهتدي الطريق الوسطى . . .

ورأى اخيراً ، في البعيد البعيد . . . بعد طول عذاب وعناء ، نور الأمل الآتي في النهاية . . . نور الخلاص .

ـ ٢ ـ
الفتنة

فتنة : تعبير قرآني يدلّ ، حين يسند الى الله تعالى ويصدر عنـه ، تارة على الاختبار والامتحان الرباني بالنعمة ، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى :

﴿ واعلموا انّـما اموالكم وأولادكم فتنة وانّ الله عنده أجر عظيم ﴾ [١] .

أو يدلّ في موارد أخرى على الاختبـار والامتحـان الربانـي بالمصاعـب والشدائد ، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى :

﴿ أحبَّ النّـاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّـا وهم لا يفتنون .
ولقد فتنّـا الذين من قبلهم فلنعلمـنّ الذين صدقوا ولنعلمنّ الكاذبين ﴾ [٢] .

وهذه الفتن ذات وظيفة تربوية تعزز صلابة المؤ منـين ، وترفـع درجـة وعيهم ، وتميز عنهم الدخلاء والمنافقين .

هذا التعبير القرآني ذو المضمون التربوي الايجابي ، غدا عند الامام علي مصطلحـاً سياسياً ـ تاريخياً ذا مدلـولات متنوعـة يتصـل بالحـركة التـاريخية للمجتمعات في الحاضر وفي المستقبل .

---

(١) سورة الانفال (مدنية ـ ٨) الاية ٢٨١ ـ وورد آية اخرى مماثلة في سورة التضامن (مدنية ـ ٦٤) الاية : ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت (مكيّة ـ ٢٩) الاية : ٢ ـ ٣ .

وهو ذو مدلول سلبي بالنسبة الى حركة التقدم النبوية .

ان الفتنة عند الامام ـ باعتبارها ظاهرة سياسية ـ معوّق لحركة التقدّم ، ونكسة في سير حركة النبوّة ، وهي ، والحال هذه ، ليست من صنع الله تعالى ، وانّما هي من صنع البشر .

***

قسم الامام الفتنة الى قسمين :

أحدهما الفتنة بالمعنى القرآني التربوي ، واعتبر ان الفتنة بهذا المعنى ذات دور ايجابي ، بشرط ان تكون استجابة الانسان لها بروح ايماني ملتزم ، ووعي اخلاقي مسؤول ، ولذا فلا معنى للاستعاذة بالله من الفتنة بهذا المعنى فان ذلك سخف ، لأنها تلازم طبيعة الحياة ووجود الانسان ، فلا توجد حياة مكتملة دون ان توجد معها فتنة بهذا المعنى .

وثانيهما الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسية ، وهذه هي الفتنة التي يحذر منها ويستعاذ منها ، وهي التي اعطاها الامام في تعليمه الفكري مدلولاتها السياسية ـ التاريخية . وسماها (مضلات الفتن) .

وقد شرح الامام ذلك بقوله :

« لا يقولنّ أحدكم : اللّهم انّي أعوذ بك من الفتنة ، لأنّه ليس أحد الاّ وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلاّت الفتن ، فانّ الله سبحانه يقول : ﴿ واعلموا أنّما اموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ومعنى ذلك انه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد ليتبيّن السّاخط لرزقه والرّاضي بقسمه ، وان كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب ، لأن بعضهم يحب الذّكور ويكره الاناث ، وبعضهم يحبّ تثمير الأموال ويكره انثلام الحال » [1] .

***

(١) نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص : ٩٠ .

وليس من أهداف هذه الدراسة البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحاً تربوياً ، وانّما الهدف منها هو البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحاً سياسياً ـ تاريخياً ، فلنر فيما يأتي تقسيم الامام لها باعتبارها ظاهرة سياسية ، وتحليله لآلية حركتها : كيف تبدأ وتنمو وتنتشر ، وتوجيهه في شأن الموقف الذي ينبغي اتخاذه حين تقع . ولنر دور علي في مواجهة الفتنة التي بدأت طلائعها في عهده ، واخيراً رؤيته لفتنة بني أميّة بعده .

***

يبدو من تحليل النصوص التي اشتمل عليها نهج البلاغة بشأن الفتنة والمقارنة بينها أن ثمة ثلاثة أنواع من الفتن :

١ ـ الفتنة الشاملة .
٢ ـ الفتنة العارضة .
٣ ـ الفتنة الغالبة .

وهذه التسميات وضعناها نحن ، ولم ترد في كلمات الامام علي ، على ضوء ما لاحظناه عن اتساع المساحة الفكرية التي تطبعها الفتنة بطابعها ، وتؤثر بالتالي على الوضعية السياسية والعلاقات الاجتماعية والانسانية داخل المجتمع .

أ ـ الفتنة الشاملة

تكون الفتنة شاملة حين تكون نظاماً فكرياً يسود مجتمعاً من المجتمعات ذات الحضارة أو البدوية ـ الرعوية ، فالحضارة التي تقوم الحياة فيها على قيم الضلال في الفكر والاخلاق والضياع ، وتنبني مؤسساتها السياسية والاجتماعية على الاعتبارات التي تنشأ من هذه القيم ، وتحكم المجتمع السياسي فيها علاقات فاسدة . . . هذه الحضارة تكون فتنة شاملة تصل الى كل انسان ، وتنشر ظلالها خارج حدودها . انها الجاهلية قديمها وحديثها في ذلك سواء .

وكذا الحال فيما اذا كان نظام فكري كهذا يكوّن روح وعقل مجتمع بدوي ـ رعوي ، لم يبلغ مرحلة الحضارة ذات الانجازات في مجال التعامل مع الطبيعة والمؤسسات التنظيمية .

وقد صور الامام عليه السلام هذه الفتنة الشاملة في حديثه عن حال العالم ، والعرب بوجه خاص ـ قبل بعثة رسول الله (ص) قال :

« . . . وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالدّين المشهور ، والعلم المأثور ، والكتاب المسطور . . . والناس في فتن انجذم [1] فيها حبل الدين ، وتزعزعت سواري اليقين [2] واختلف النجر [3] وتشتت الأمر ، وضاق المخرج ،

---

(١) انجذم : انقطع .

(٢) السواري : جمع سارية ، وهي الدعامة .

(٣) النجر : الأصل .

وعمي المصدر ، فالهدى خامل ، والعمى شامل . عصي الرّحمان ، ونصر الشيطان ، وخذل الايمان فانهارت دعائمه وتنكّرت معالمه ، ودرست سبله [1] وعفت شركه [2] ، أطاعوا الشّيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله [3] ، بهم سارت أعلامه وقام لواؤه ، في فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها [4] وقامت على سنابكها [5] ، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون ، في خير دار وشر جيران . نومهم سهود ، وكحلهم دموع ، بارض عالمها ملجم ، وجاهلها مكرم » [6] .

في هذا النص فصّل الامام علي نظرته الى نموذج من نماذج الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسية لمجتمع ما .

والسّمات التي تميّز الفتنة الشاملة فيما يفيده هذا النص هي :

١ ـ مجتمع لا يحكمه نظام أخلاقي ، وخال من الحياة الروحية السليمة . وهذا لا ينفي ان يتمتع المجتمع المذكور بنظام سياسي .

وهذه السّمة يدل عليها قول الامام « انجذم فيها حبل الدين » فالمجتمع منقطع الصلة بالوحي ، ومن ثم فهو لا يتمتع بنظام روحي واخلاقي .

٢ ـ مجتمع تسيطر على افراده وفئاته روح الشك . ويتبع فيه ـ في مجال القيم ـ المقياس الذاتي ، لأنه لا يتمتع بمقياس موضوعي نتيجة لخلوه من النظام الاخلاقي والحياة الروحي .

---

(١) درست : انطمست .

(٢) عفت شركه : عفت : امحت ، وشركة جمع شراك : الطريق .

(٣) المناهل : جمع منهل ، هو مورد النهر .

(٤) الخف للبعير ، والظلف للبقر والشاء : كالقدم للانسان .

(٥) السنابك جمع سنبك : طرف الحافر .

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة رقم ٢ .

وهذه السّـمة الثانية يدل عليها قول الامام في النص الآنف « تزعزعت فيها سواري اليقين » .

٣ ـ مجتمع منقسم على نفسه الى شيع وأحزاب ، تمزقه الصراعات والنزاعـات وتجعله خالياً من روح التضامن والتكافل . ومن ثم فلا توجه حركته آمال متحدة وهدف اخلاقي كبير ، وانّـما توجهه الرغبات الفردية والفئوية بسبب عدم وجود نظام اخلاقي من جهة ، وانتشار روح الشك واتبـاع المقياس الذاتي في القيم من جهة اخرى .

وهذه السّـمة يدل عليها قول الامام « واختلف النجر ، وتشتت الأمر ، وضاق المخرج وعمي المصدر . . . » .

هذه هي السمات التي تميّـز الفتنة الشاملة ، وتطبع المجتمعات المفتونة بطابعها . وما جاء من أوصاف للمجتمع في الفقرات التالية من النص الآنف هي نتائج لهذه السمات الثلاث الكبـرى : فقـدان النظـام الاخلاقـي والحياة الروحية / شيوع روح الشك واتباع المقياس الذاتي في القيم / الانقسامـات الـطبقية والفئـوية والعـائلية ، وعـدم وجـود هدف عظيم ونبيل يوجّـه حركة المجتمع التاريخية

هذه هي الفتنة الشاملة .

وتسميتنا لهذه الفتنة بـ (الشاملة) ناشيء من ملاحظة انها مستوعبة لكل المجتمع بحيث لا يخلو منها أيّ مستوى من مستوياته وأي مظهر من مظاهر الحياة فيه ، فهي روحه وعقله : روحه الملهمة ، وعقله الموجّـه .

ب ـ الفتنة العارضة

الفتنة العارضة : عثرة تعترض سير المجتمع أثناء حركته التقدمية فتشيع الحـيرة والالتبـاس في بعض المواقف ، وتعـرّض بعض الأشخــاص القياديين وبعض فئات المجتمع لاختبارات حرجة ، وتحفز بعض القيم القديمة للتعبـير

عن نفسها ، ولكن قوّة اندفاع المجتمع في حركته التقدمية ، وقوة المبادىء التي تحكم سيره في قلوب وعقول أفراده ـ تحول بين الفتنة وبين ان تنتشر وتتعمق وتضرب بجذورها في ثنايا المجتمع ، فسرعان ما ينكشف وجه الحق فيها ، وتذبل حركتها ، ويخفت صوت الداعين اليها بين الناس ، بل يغدون موضعاً للنقد والتجريح ، وتجف الروافد الرجعية التي تمدّها بالحياة والحركة ، ويتعافى المجتمع من نكسته ، ويخرج من التجربة اكثر وعياً ويقظة .

وقد مرّت على المسلمين في عهد رسول الله (ص) بعض الفتن العارضة التي تجاوزوها ، بتوجيه رسول الله (ص) ، بنجاح ، وخرجوا منها دون أن تؤثر على حركة المجتمع الاسلامي المندفعة الى الامام .

ولعلّ أشدّ هذه الفتن العارضة التي واجهت المجتمع الاسلامي في عهد النبي (ص) خطورة كانت فتنة الافك ، في سنة ست للهجرة ، في اعقاب غزو رسول الله (ص) والمسلمين لبني المصطلق من خزاعة .

وقبل الافك ما حدث أثناء العودة من الغزوة المذكورة ، حين أدّى تزاحم على الماء في بعض منازل الطريق بين أجير لعمر بن الخطاب من بني غفار اسمه (جهجاه) ، وبين أحد حلفاء الخزرج واسمه (سنان ابن وبر الجهني) ، واقتتلا ، فصرخ حليف الخزرج : « يا معشر الانصار » وصرخ أجير عمر بن الخطاب « يا معشر المهاجرين » . ونشط المنافقون ، وعلى رأسهم (عبد الله بن أبي سلول) ، لاستغلال التوتر الذي ولّده هذا النزاع البسيط بين المهاجرين والأنصار ، وهدّد ابن أبي سلول بأنهم اذا عادوا الى المدينة (ليخرجن الأعز منها الأذل) ، وكادت الفتنة ان تجرف كثيرين . . .

ولكن حكمة رسول الله (ص) قضت على الفتنة في مهدها .

وأنزل الله في شأن هذه الفتنة الصغيرة العارضة سورة المنافقين (رقم ٦٣ في المصحف) فضح فيها نوايا المنافقين وأساليبهم ، وجعل منها درساً تربوياً ايمانياً وسياسياً للمسلمين عمق وعيهم ، وزاد يقظتهم ، وعزّز صلابتهم امام اساليب النفاق .

أمّا فتنة الافك فكانت أشد خطورة وأوسع انتشارا .

لقد كانت مرتعاً خصباً للمنافقين يوهنون من خلالها مقام رسول الله (ص) ، ويشوّهون سمعته ، ويلقون ظلال من الريبة على طهارة بيته ، في مجتمع يقوم على قيم صارمة فيا يتعلق بالطهارة الجنسية ، بما يؤدي اليه الهمس الخفي في شأن كهذا في مجتمع كهذا من سخريات وظنون واشاعات تضعف التأثير النفسي لتوجيهات رسول الله (ص) .

وما هو أشد خطورة في دسّ المنافقين واستغلالهم للامكانات التي يتيحها الافك ، هو ان الفتنة أدّت الى تصدّع تلاحم المسلمين أنفسهم ، حيث استغل زعماء قبيلة الأوس تورط بعض افراد قبيلة الخزرج في اشاعة الحديث عن الافك ، للتعبير عن أحقاد قبلية جاهلية تحت ستار الغيرة على رسول الله (ص) ، والتمسك باهداب الدين .

فقال رئيس الأوس (أسيد بن حضير) مخاطباً رسول الله (ص) حين وجّه عتاباً رقيقاً للذين روجوا الاشاعة الكاذبة ، دون ان يسمي أحداً :

« يا رسول الله : إن يكونوا من الأوس نكفكهم ، وان يكونوا من اخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله انهم لأهل ان تضرب أعناقهم » .

فقال سعد بن عبادة زعيم الخزرج رادّاً عليه :

« كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم . أمّا والله ما قلت هذه المقالة الا انت عرفت انهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . . » .

فقال أسيد بن حضير :

« كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل من المنافقين . . . » .

وتساور الناس [1] حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شرّ » [2] .

---

(١) تساور الناس : قام بعضهم الى بعض ليتقاتلوا .

(٢) تراجع سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا ورفيقيه (الطبعة الثانية) ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م / القسم الثاني ـ ص : ٢٨٩ ـ ٣٠٧ .

وهكذا وجدت القيم الجاهلية القديمة متنفساً تعبر به عن نفسها من خلال هذه الفتنة ، متسترة بشعارات اسلامية .

ولكن حكمة رسول الله (ص) ، ووعي المجتمع ، ورسوخ المبادىء والقيم الاسلامية في نفوس النخبة حصرت الفتنة في نطاق ضيّق ، وحالت دون تأثير في احداث تفاعلات سيئة بالنسبة الى حركة التقدم النبوية . وجاء الوحي بعد ذلك فقضى على الفتنة ، حيث أنزل الله تعالى في هذا الشأن سورة النور (السورة رقم ٢٤ في المصحف) وجعل منها درساً تربوياً ، ومناسبة لسن تشريعات تتعلق بالعلاقات بين الجنسين داخل المجتمع الاسلامي ، في نطاق الحياة الزوجية ـ من حيث العلاقات الزوجية وغيرها ـ وخارج الحياة الزوجية .

***

هذان نموذجان للفتنة العارضة في المجتمع الاسلامي في عهد رسول الله (ص) وقد واجه المجتمع الاسلامي بعد وفاة الرسول (ص) فتنة عارضة ذات طابع سياسي محض هي فتنة السقيفة .

وقد بدأت هذه الفتنة حين تجاوز بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وصية رسول الله (ص) باسناد الخلافة بعده الى الامام علي ابن ابي طالب ، لانه كان الشخصية الاسلامية الوحيدة التي تجمّعت فيها المواهب والمؤهلات التي جعلتها قادرة على قيادة الأمة الاسلامية بعد وفاة رسول الله (ص) .

وقد حسم النزاع على منصب الخلافة بين المهاجرين والانصار ، في سقيفة بني ساعدة [1] ، بمعزل عن الامام علي بن ابي طالب ، لمصلحة قبيلة قريش ، بمبايعة الخليفة الأول (أبي بكر) على اثر مناورات سياسية استخدم

(١) سقيفة بني ساعدة ، مكان مسقوف بسعف النخل في المدينة (يثرب) ، وكانت مجمع الأنصار بعد الاسلام ، ودار ندوتهم لفصل القضايا واجراء المناورات .

فيها منطق قبلي ، وكادت تؤدي الى انشقاق خطير داخل المجتمع الاسلامي الوليد [1] .

وقد كان العامل الاكبر والأبعد أثرا في التغلب على فتنة السقيفة وآثارها الخطيرة هو موقف علي بن ابي طالب .

فقد كان الامام علي بمؤهلاته المتفوقة بشكل مطلق على نخبة الصحابة ، وبمواهبه النادرة الفريدة ، وبالنص عليه من رسول الله (ص) خليفة من بعده . . . كان لذلك كله رجل الشرعية الاسلامية الأصيل .

وكان هذا الوضع الحقوقي المؤاتي بالنسبة اليه يخوّله حق المعارضة ، ونقض القرار والانجاز الذي اتخذ خارج الشرعية في اجتماع السقيفة ، سعياً وراء حقه في تسلّم السلطة .

ولكن هذا الوضع الحقوقي النظري بالنسبة اليه ، كان يواجه وضعاً اجتماعياً وسياسياً واقعياً .

فمن ناحية كان المجتمع الاسلامي الوليد لا يزال مجتمعاً هشّاً من حيث التلاحم الداخلي الناشيء عن العقيدة الواحدة ، لأن القيم الجاهلية كانت لا تزال سائدة في الحياة العامة للقبائل التي دخلت في الاسلام في عام الوفود قبل وفاة النبي (ص) بسنة وأشهر ـ أو اقل من سنة بالنسبة الى اسلام بعض هذه القبائل ـ وكانت هذه القيم الجاهلية في أحسن الحالات مستكنّة تحت قشرة رقيقة من الاسلام ، وكان لا بدّ من مضيّ وقت طويل قبل أن تذبل هذه القيم الجاهلية وتفقد حرارتها وفاعليتها .

وفي حالة كهذه كان أيّ عمل سياسي يتّسم بطابع العنف سيؤدي في الراجح الى تصدع خطير في بنية المجتمع الاسلامي وتماسكه ، وقد يؤدي الى ردّة واسعة النطاق في أوساط حديثي العهد بالاسلام .

---

(١) يراجع للمؤلف : نظام الحكم والادارة في الاسلام . كما يراجع للمؤلف ايضاً : ثورة الحسين ـ ظروفها الاجتماعية وآثارها الانسانية (الطبعة الخامسة) الفصل الاول .

ومن ناحية أخرى كان فريق من القبائل قد ارتدّ فعلاً عن الاسلام ، واتبّع بعض أدعياء النبوّة ، وغدا يشكل تهديدا حقيقياً للاسلام حين انتشرت ظاهرة التنبؤ واتجه قادتها الى تحالف يوحّد قواهم ، فسيطروا على اليمن تقريباً في الجنوب ، وعلى مساحات واسعة من الحجاز ونجد في الشمال .

وقد اتجه الامام علي الى المعارضة والاحتجاج أول الأمر . ورفض الاعتراف بالنتيجة التي اسفر عنها اجتماع السقيفة ، واعتصم في منزله ، بدا بوضوح أن موقفه سيثير تفاعلات خطيرة في وجه اختيار السقيفة داخل المدينة وخارجها . . . ولكن الامام عليّاً سرعان ما واجه الواقع السياسي والاجتماعي للمجتمع الاسلامي الوليد ، والاخطار التي ربما تعرض لها الاسلام نفسه نتيجة لهذا الموقف .

ولو لم يكن علي بن ابي طالب رجل العقيدة الأول ، ورجل الرسالة الأول ، الاكثر وعياً والأعظم شعوراً بالمسؤولية ، لما ألقى بالا الى الواقع السياسي والاجتماعي للاسلام ، ولمضى في معارضته الى نهايتها ، مستغلاً الواقع السياسي والاجتماعي في سبيل نجاح مسعاه للوصول الى السلطة .

ولكنه كان بالفعل رجل العقيدة الأول ، ورجل الرسالة الأول ، وأعظم المسلمين اطلاقاً شعوراً بالمسؤولية تجاه الاسلام ، واعظمهم حرصاً على ازدهاره وانتشاره وتعمقه في العقول والقلوب .

ومن المؤكد ان الحكم عنده لم يكن مطلباً شخصياً ، بل وسيلة الى بلوغ غاية تتجاوز الاشخاص والاجيال والمصالح الخاصة لتعمّ وتشمل ما بقي من عمر الدنيا ، وما تضمره القرون المقبلة من أجيال في كل الاوطان وفي كل الامم .

ان عليّاً ، بعد رسول الله (ص) - كان أب الاسلام . وقد تصرّف تصرف الاب الحريص ، فتحمّل بصبر جميل نبيل جراحه الشخصية وحرمانه في سبيل قضية حياته الكبرى ، قضية الاسلام .

ولا شك في أن جميع المسلمين كانوا يعرفون هذه الحقائق في شخصية وضمير الامام علي ، ويبدو ان منافسيه السياسيين قاموا بمغامرتهم الناجحة [1] معتمدين على جملة معطيات من جملتها ثقتهم بأن الامام سيقدم مصلحة الاسلام العليا على مصالحه الخاصة .

لقد أشار الامام في كتاب له بعث به الى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاّه امارتها ، الى العامل السياسي الذي حال دون مضيه في المعارضة فقال :

« . . . فامسكت يدي [2] حتّى رأيت راجعة النّاس [3] قد رجعت عن الاسلام ، يدعون الى محق دين محمّد (ص) ، فخشيت ان لم أنصر الاسلام وأهله أن أرى فيه ثلما [4] أو هدما تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي انّما هي متاع أيّام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السرّاب ، أو كما ينقشع السّحاب فنهضت في تلك الأحداث حتّى زاح [5] الباطل وزهق [6] ، واطمأنّ الدّين وتنهنه [7] » . [8]

وقد خيّب موقفه المبدئي الرسالي آمال كثيرين ممّن كان اسلامهم موضع شك أو كانوا مسلمين مخلصين ولكنهم ينظرون الى مسألة الحكم من زاوية المصالح القبلية والعائلية نتيجة لافتقارهم الى النضج والوعي .

---

(١) مما يوحي بشعور الجميع آنذاك بخطورة الاجراء الذي اتخذوه واشتماله على درجه كبيرة من المغامرة قول الخليفة عمر بن الخطاب في خلافته في تحذير غير مباشر وجهه الى الطلحة والزبير وغيرهما لما نمي اليه عنهم من آراء تتصل بطريقه انتقال السلطة على الاسلوب الذي تمّ في السقيفه (كانت بيعة ابي بكر فلته وقى الله شرها) .

(٢) امسكت يدي : توقفت عن المشاركه في الموقف الراهن .

(٣) راجعه الناس : الراجعون عن الاسلام ، المرتدون .

(٤) ثلما : خرقا وانتهاكا .

(٥) زاح : ذهب وزال .

(٦) زهق : مات ، يعني هنا : زال الباطل تماماً .

(٧) تنهنه : انتعش .

(٨) نهج البلاغة ، باب الكتب ، رقم النص : ٦٢ .

وقد حاول بعض هؤلاء وهؤلاء أن يحملوه على تغيير موقفه المبدئي الرسالي ، ولكنه رفض محاولاتهم ، مصرّحاً بأن الموقف موقف فتنة ، داعياً الى النظر في الموقف وفقاً لمقياس عقيدي اسلامي مبدئي ، والابتعاد عن المنظور الجاهلي القبلي الذي بدت سماته في تلك المحاولات .

وقد صرّح بذلك في مواقف كثيرة ، منها قوله مخاطباً الناس حين دعاه أبو سفيان بن حرب والعباس بن عبد المطلب الى أن يبايعا له بالخلافة :

« أيّها النّاس ، شقّوا أمواج الفتن بسفن النّجاة ، وعرّجوا عن طريق المنافرة [١] وضعوا تيجان المفاخرة . أفلح من نهض بجناح ، أو استسلم فأراح . هذا ماء آجن [٢] ، ولقمة يغصّ بها آكلها . ومجتني الثمرة لغير وقت ايناعها [٣] كالزّارع بغير أرضه » [٤] .

***

والسمات التي تميز الفتنة العارضة ، فيما نستفيده من جملة ما ورد عن الامام علي في هذا الشأن ، ومن الدراسة التاريخية ، . . أربع :

١ ـ تتولّد ازمة سياسية ، قد تكون بسبب أحداث صغيرة ، تكون غالباً غير مخطط لها بل عرضية ، ولكن سرعان ما تدخلها بعض القوى الاجتماعية ذات الاهداف السرية المخالفة لنظام المجتمع في نطاق خططها للاستفادة منها ومن تلك الأزمة السياسية ، في سبيل الوصول الى أهدافها .

---

(١) عرج عن الطريق : تنحى عنها . يعني تنحوا عن الاسلوب الجاهلي في الصراع السياسي وهو المنافرة والمفاخرة .

(٢) الاجن : الماء الذي تغيّر لونه وفسدت رائحته ولم يعد صالحاً للشرب ، يعني بذلك الاسلوب السياسي الجاهلي .

(٣) الايناع : النضج والصلاحية للاكل .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة رقم ٥ .

وقد تتولّـد الأزمة السياسية بسبب احداث ذات شأن كبير ومخطط لها ـ كما حدث في السقيفة ـ ولكن الجماعات التي تصنع الحدث لا تستثمره لأهـداف مخالفة لنظام المجتمع العام والسائد ، بل تكون عازمة على الانسجام مع نظام المجتمع ، ساعية الى تعزيزه وفقاً لفهمها الخاص ، عاملة على أن يكون ذلك من خلال سلطتها هي .

٢ ـ في الحالتين الأنفتين تحرك الفتنة العارضة بعض القيم القديمـة التـي قضى عليها النظام الجديد ، امّـا بسبب ضعف رقابة النظـام لانشغـال اجهزتـه بالمشكلات السياسية الأنية ، أو بسبب التسامح مع بعض القوى السياسية غير الواعية لأجل كسب ولائها في الصراع السياسي الدائر . ولـكن هذه القيم القديمة ، في جميع الحالات ، لا تعود سافرة صريحـة ، وانّـما تعـود مموّهة بشعارات جديدة .

٣ ـ (في الغالب) تتولّـد الأحداث التي تكوّن مناخ الفتنة من مشكلات يثيرها اشخاص عاديون أو ذوو قيمة ثانوية في السلم الاجتماعي ، كما أنها تقع على اشخاص من هذا القبيل كما هو الحال في فتنة النزاع على الماء بين الغفاري والجهني ، ولكن علاقات الدم والصداقة والمصالح والمطامـح سرعـان ما (تسيّس) الأحداث وتستغلهـا . وقـد يحـدث ان تتـولّـد الأحـداث من مشـكلات يثيرهـا اشخـاص ذوو شأن كبـير في المجتمـع أو تصيب هذه الأحداث اشخاصاً من هذا النوع ، كما هو الحال في حادثـة الافـك وفي أحداث السقيفة .

٤ ـ تواجه القيادة الحقيقية الشرعية هذه الفتنة بسياسة تتّسم بالهدوء ، وروح المسـؤ ولية العـالية ، وتتجنـب اتخـاذ اية اجـراءات او مواقف انفعـالية وانتقامية ، لما يؤ دي اليه ذلك من عواقب خطيرة تزيد الموقف تعقيداً والفتنة استحكاماً ، وتتيح للقوى الخفيّة المعادية للنظام (المنافقـون ، مثـلاً ، في المجتمع الاسلامي) أن تستغل الوضع الطارىء لتحقيق أهدافها (لاحظ السمة رقم ١) .

وبدلا من مواجهة أحداث الفتنة العارضة بالعنف والانفعال ، تحرص القيادة على مواجهتها بأسلوب يعطي الاولوية في الحل لمصلحة القضايا المبدئية والعامة ، لا للجانب الشخصي والعائلي .

هذه هي ، فيما نرى ، أبرز سمات الفتنة العارضة .

ج ـ الفتنة الغالبة

هذا النوع الثالث من انواع الفتنة هو ، كما يدّل عليه الوصف الذي اخترناه له ، دون الفتنة الشاملة ، وفوق الفتنة العارضة .

وقد تنشأ الفتنة الغالبة من تدهور سياسي عقيدي ـ تشريعي كبير يحلّ بالمجتمع أثناء حركته الانبعاثية ، أو بعد بلوغه الذروة .

كما قد تنشأ من فتنة عارضة تهمل القيادة جانب الحكمة في مواجهتها ، أو تغفل عنه ، فتتعاظم عثرة المجتمع ، وتتغذّى الحالة الانحرافية بالتناقضات المستكنّة في اعماق التركيب الاجتماعي ، كما انها تتغذى بالقيم القديمة التي اجبرها النظام الجديد على ان تنسحب من دائرة العمليات الاجتماعية الى الظلام .

وتفشل النخبة في علاج العثرة بسبب عجز هذه النخبة ، أو بسبب تناحر اجنحتها وانحياز بعض الأجنحة الى خط الانحراف .

وعامل الزمن في مصلحة الانحراف ، فكلّما مضى على الانحراف يوم دون ان يوضع له حد ودون ان يقوّم ، يزداد رسوخاً وتمكنّا ، ويستوعب مساحة جديدة من المجتمع ، ويكوّن لدى مزيد من الناس قناعات في صالحه بينما تزداد النخبة عجزاً ، وعزلة ، وتفقد مزيداً من مواقعها .

وقبل مضيّ زمن طويل على الانحراف الذي أنشب مخالبه في كيان المجتمع ، وفشلت النخبة في القضاء عليه ـ يشيع هذا الانحراف ، ويطبع كثيراً

من أوجه الحياة ، ويغدو عرفاً أو قانوناً أو سنّـة متبعة ، تحميه وتصونه قناعات تتأصل في الثقافة ، وتغدو جزء من تكوين المجتمع الثقافي .

قلنا : ان هذا يحدث قبل مضي زمن طويل على حدوث الانحراف ، لأن الانحراف عادة يكون الى جانب اليسر والسهولة والحياة الهيّنة وهذا ما يغري بالاتباع لأنه أوفق بهوى النفوس ، وأبعد عن التبعة والتضحية .

ولكن الانحـراف (الفتنـة) لا يبلـغ درجـة الشمـول واستيعـاب كل مؤسسات المجتمع ، ولا يستطيع أن يغيّـر بنيته الثقافية من جميع وجوهها ، ولا يقدر على ان يستوعب في مفاهيمه وقيمه الجديدة المبتدعة او القديمة المحياة ـ كلّ الفئات الاجتماعية ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقضي نهائياً على حركة المجتمع التقدمية . انه يعوّقـها ولكنه لا يعطّـلها ، يشوّهها ولا يمسخها ، انه لا يبلـغ درجة الفتنة الشاملة ، وانّـما يكون فتنة غالبة .

تبقى مع الانحراف الغالب روح الطهارة والاصالة شائعة في المجتمـع بوجه عام ، تغذي حركته التقدمية في اكثر من وجه من وجوه حياته ونشاطاته ، وان كانت هذه الروح تتعرض دائماً للنكسات بالنسبـة الى عامـة المجتمـع ، ولكنها تبقى على وهجها الكامل وفاعليتها الكاملة في جماعات قد تكون محدودة وصغيرة ، منبثة في ثنايا المجتمع سلمت من الانحراف فلم ينل منهـا شيئـاً ، وبقيت ثابتة على الصراط المستقيم .

هذه الجماعات الاصيلة الطاهرة هي طليعة الكفاح ضد الفتنة الغالبة في داخل المجتمع . . هي التي تحول بين الفتنة وبين ان تستوعـب كل المجتمـع وتغدو شاملة ، وهي التي بكفاحها الدائب الصبور تحـول بـين الفتنـة وبـين التمكّـن والاستقرار ، وتجعلها في حالة حرب مستمرة .

ومن هنا فان المجتمع في حالة الفتنة الشاملة يتمتع باستقرار وثبات نتيجة لتناغم المؤسسات مع القيم مع القناعات الشعبية مع الثقافة العامة ، فهذه كلها تتكامل وتتساند ، وتتوفـر نتيجة لذلك حالة من التوازن توفّـر بدورها استقراراً وثباتاً .

أمّا في الفتنة الغالبة فان الأمر على خلاف ذلك ، لانه يوجد تنافر قليل أو كثير بين المؤسسات والقيم والقناعات والثقافة ، وهذا يؤدي الى ان يعاني المجتمع باستمرار من القلق والفوران والتمزق ، نتيجة لوجود القوى المناهضة للفتنة ، هذه القوى التي تضطرّ حركتها الاصيلة المناهضة نظام الفتنة الى ان يتحرك ضدها .

***

والفتنة الغالبة ، في عالم الاسلام ، هي الفتنة التي استفحلت في آخر عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وقاد الامام علي بن ابي طالب حركة التصدي لها طيلة السنّي الاخيرة من حياته . . . واستمرت بعد استشهاده ، وزادت ضراوة وعنفاً حين فترت الهمم وتقاعست العزائم عن التصدي الفعّال لها ، فانتصرت وسادت ـ قبل عهد الثورات ـ حركة الردّة .

ومن هنا فقد كثر كلام الامام علي عن هذه الفتنة من جميع وجوهها : نعرض أسباب وبدايات حدوثها ، وآلية حركتها ، والموقف منها .

ـ أ ـ
كيف تبدأ الفتنة ؟

كيف تبدأ الفتنة ؟ . قال عليه السلام :

« انما بدء وقوع الفتن أهواء تتبّع ، وأحكام تبتدع ، يخالف فيها كتاب الله ، ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين الله . فلو أن الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين [1] ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين [2] ولكن يؤخذ من هذا ضغث [3] ومن هذا ضغث فيمزجان فهنالك يستولي الشّيطان على اوليائه ، وينجو الذين سبقت لهم منّا الحسنى » [4] .

هذا النص يكشف عن عاملين يكوّنان الفتنة الغالبة

أحدهما :

تغليب المقياس الذاتي في القيم على المقياس الموضوعي « أهواء تتبع » فبدلاً من ان يكون المرجع في القيم النظام العقيدي والتشريعي للمجتمع ،

---

(١) المرتاد : الطالب .

(٢) اللبس : الملابسة والمخالطة .

(٣) الضغث من الحشيش القبضة منه . يعني يخلط شيء من الحق بشيء من الباطل فيشتبه امرها وتحصل الفتنة .

(٤) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ٥٠ .

يتجاوز رواد الفتنة هذا النظام فيرجعون الى النوازع الذاتية والعاطفية والمصلحية فتكون هي المقياس المعتمد ، والمرجع الأخير في القيم والسلوك ، وعلى ضوء ما تمليه تتخذ المواقف من الاحداث والاشخاص .

ثانيهما :

سقوط القانون وانتهاك حرمته على الصعيد العملي : « . . . وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله » ، وتغلّب العامل الشخصي بالاحتيال على الشرعية القانونية التي يحتفظ لها المفتونون بالاحترام النظري ، ويتظاهرون بتطبيقها ، بينما هي على الصعيد العملي تنتهك كلّما تمكن الاقوياء من انتهاكها .

هذان العاملان : سقوط المقياس الموضوعي في القيم على صعيد الأخلاق والعلاقات الاجتماعية والسياسية ، وسقوط الشرعية القانونية على صعيد المؤسسات العامة والعلاقات والوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . . هذان العاملان هما جوهر الفتنة الغالبة .

ويحدث حينئذ أن تتكوّن القناعات الموالية للفتنة الغالبة لدى فئات اجتماعية جديدة : « . . . ويتولّى عليها رجال رجالا على غير دين الله » يتعزز بها موقع الانحراف في المجتمع ، ويعمّق رسوخه في القلوب والعقول ، ويتسع مداه فيشمل مساحات جديدة من الحياة .

ولكن الفتنة ـ كما ذكرنا آنفاً ـ لا تبلغ درجة الشمول ، بل يبقى للحق في المجتمع سلطان ، ويبقى للشرعية في المجتمع أعوان ، هم « الذين سبقت لهم منا الحسنى » وهم الذين يقودون حركة الكفاح ضد الباطل والفتنة من اجل الحق الخالص الذي لا يلتبس بالباطل .

***

ـ ب ـ
كيف تتحرّك الفتنة وتنمو ؟

ويصف الامام في نص آخر كيف تبدأ الفتنة ، ويصور آلية حركتها وانتشارها في المجتمع ، وذلك في سياق وصفه للفتنة الغالبة التي كانت نذرها تطلّ على المجتمع الاسلامي في عهده :

« . . . ثمّ انّكم معشر العرب أغراض بلايا قد اقتربت ، فاتّقوا سكرات النّعمة ، واحذروا بوائق النقمة [١] ، وتثبّتوا في قتام العشوة [٢] واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها ، وظهور كمينها ، وانتصاب قطبها ومدار رحاها . تبدأ في مدارج خفيّة ، وتؤول الى فظاعة جليّة . شبابها كشباب الغلام [٣] ، وآثارها كآثار السّلام [٤] يتوارثها الظّلمة بالعهود ، أوّلهم قائد لآخرهم ، وآخرهم مقتد بأوّلهم . يتنافسون في دنيا دنيّة ، ويتكالبون على جيفة مريحة [٥] . وعن قليل يتبرّأ التّابع من المتبوع ، والقائد من المقود ، فيتزايلون بالبغضاء [٦] ويتلاعنون عند اللقاء » [٧] .

في هذا النص صور الامام آلية حركة الفتنة ، ونموّها وانتشارها في المجتمع ، فابرز الملامح التالية :

---

(١) البوائق : جمع بائقة ، وهي الواهية ، والمصيبة الكبيرة .
(٢) القتام : الغبار ، والعشوة الظلام . يعني ان الموقف الاتي شديد الالتباس لانه مظلم في نفسه ويثور مع ذلك حوله الغبار ، ويعني بذلك الفتنة الاتية .
(٣) شباب الغلام : فتوته وعنفوانه ، والفتنة تبدأ هكذا ذات عنفوان .
(٤) السلام الحجارة الصم ، واثرها في الابدان الجرح والكسر .
(٥) مريحة : منتنة .
(٦) يتزايلون : يتفارقون وينفصل بعضهم عن بعض .
(٧) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٤٩ .

١ ـ ان شيوع روح الترف في المجتمع ، واستغراق النخبة في الترف يؤ ديان بالمجتمع الى أن يفقد روحه النضالية الرسالية ، ويحرص على حياته الهيّنة الناعمة ، وعلى توفير الوسائل الملائمة لبلوغ مستوى من الحياة اكثر نعومة ولينا .

كما أن النخبة في هذه الحالة تصاب بالترهّل والعجز والجبن .

وشيوع هذه الروح ، روح الترف ، في مجتمع لا يزال في مرحلة تكوين نفسه ، ومحاط بالقوى المضادة الخائفة ، ويحتوي تركيبه الداخلي على نقاط ضعف ناشئة من كونه يضم جماعات لم تتمثل بعد بدرجة مرضية وعميقة رسالته التي يعتنقها ويبشر بها . . . ـ شيوع هذه الروح في مجتمع كهذا ـ وهو ما كانه المجتمع الاسلامي في ذلك الحين ـ يجعله مهيئاً لنموّ روح الفتنة فيه وانتشارها .

لقد حذّر الامام من هذا بقوله (احذروا سكرات النعمة . . .) .

٢ ـ تقع في الحياة العامة احداث ، أو يواجه المجتمع حالات معينة ، تسبّب هذه أو تلك التباسا في طريقة التعامل مع بعض المفاهيم الرسالية ومفاهيم المعتقد على ضوء الواقع الذي حصل (مثلاً : التغيّرات التي نشأت نتيجة لتوسّع حركة الفتح في ايران والمستعمرات البيزنطية . . والاحتكاك بالحضارتين الايرانية ، والرومانية ـ الشرقية . . ـ أو الحيرة التي نشأت نتيجة لمقتل الخليفة عثمان بن عفان) . . في هذه الحالات قد تتخذ النخبة أو القيادة السياسية للمجتمع قرارات مرتجلة ، وتخضع لالية الفعل ورد الفعل ، بعيداً عن التزوّي (مثلاً : كالذي حدث عند مطالبة الامام علي بعد البيعة فوراً بأن يقبض على المتهمين بقتل عثمان ويعاقبهم ، فقد قال له قوم من الصحابة : لو عاقبت قوماً ممن أجلب [١] على عثمان ؟ فقد أجابهم الامام جواب رجل الدولة المسؤ ول الناظر الى عواقب الأمور ، البعيد عن الانفعال :

---

(١) أجلب عليه : أعان عليه .

« يا اخوتاه ! انّـي لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لي بقوّة والقوم المجلبـون على حدّ شوكتهـم [1] يملكوننـا ولا نملكهم ! وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، والتفّـت اليهـم أعرابكم [2] وهم خلالـكم [3] يسومونـكم ما شاؤا [4] وهـل ترون موضعـاً لقـدرة على شيء « ان هذا الأمـر أمـــر جاهلية ، وانّ لهؤلاء القوم مادة [5] .

« انّ النّـاس من هذا الأمر اذا حرّك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا . فأصبروا حتى يهدأ النّاس ، وتقع القلوب مواقعها [6] وتؤخذ الحقوق مسمحة [7] .

« فاهـدأوا عنـي ، وانظـروا ماذا يأتيكم به أمـري ، ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منّـة [8] ، وتـورث وهناً وذلة . وسأمسك الأمر ما استمسك ، واذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكيّ » [9] .

وهـكذا نرى الامـام يطلـب الى هؤلاء المتعجلـين أن يلزمـوا جانـــب التروّي ، وأن يتركوا له اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، وألاّ يخضعوا لمنطق الفعل وردّ الفعـل لأن هذا يؤدي الى التبـاس في المفـاهيم ، وتخبـط في

---

(١) على حد شوكتهم : الشوكة الشدة ، أي لم يضعف هيجانهم .
(٢) التفت . . . انضمت اليهم واختلطت بهم .
(٣) وهم خلالكم . . أي بينكم .
(٤) يسومونكم . . يكلفونكم بما يريدون من الافعال والمواقف .
(٥) مادة : مددا وانصارا .
(٦) تقع القلوب مواقعها : تهدأ وتستقر بعد اضطرابها بسبب هيجان الفتنة .
(٧) مسمحه : أي سهلة ميسرة وهذا حين تهدأ العواطف ، ويثوب الناس الى المنطق والقانون .
(٨) المنة : القوة والقدرة ، ينهاهم عن الاعمال المرتجلة المتسرعة التي تسبب انشقاقا وتمزقاً في المجتمع يضعفه ويوهن قوته .
(٩) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٦٦ .

المواقف ، وأخطاء في القرارات تجعل المناخ العام اكثر ملاءمةً لروح الفتنة . وقد اشار الامام الى ذلك بقوله « وتثبتوا في قتام العشرة . . . » .

٣ ـ حين يتهيأ المناخ الملائم نتيجة للعاملين الأنفي الذكر تبدأ الفتنة بظواهر انحرافية بسيطة وهيّنة ، يقابلها المجتمع بوجه عام ، ونخبته السياسية والفكرية بوجه خاص ، بالتسامح واللاّمبالاة ، وهذا ما يوفّر لهذه الظواهر الانحرافية مناخ الامان وفرص الاتساع والنمو . وهذا ما عبّر عنه الامام بقوله : « تبدأ في مدارج خفيّة ، وتؤدي الى فظاعة جليّة » .

٤ ـ وعلى خلاف وضع الفتنة حين تبدأ خفيّة حييّة ، تلوذ المبرّرات وتغطي نفسها بشعارات خادعة ، فانها حين تنمو وتتسع « وتؤول الى فظاعة جليّة « يكون لها عنفوان وتسلّط وبطش ، وتبدأ بطبع آثارها العميقة في بنية المجتمع ، وهذا ما عبّر عنه الامام بقوله « شبابها كشباب الغلام ، وآثارها كاثار السّلام » .

٥ ـ بعد انتشار الفتنة ، واتساع المساحات التي تستوعبها من فئات المجتمع ، تكوّن قناعات تجعلها اشد رسوخاً في الذهنية العامة ، وتغدو ثقافة شائعة ترتكز اليها السلطة التي تقود حركة الفتنة ، وتوجّه المجتمع وفقاً لقوانينها ، وهذا ما عبّر عنه الامام بقوله : « يتوارثها الظلمة بالعهود ، أولهم قائد لآخرهم ، وآخرهم مقتد بأولهم . . . » .

٦ ـ ولكن الوضع السياسي لقادة الفتنة ـ بعد انتشارها ، وتأصّلها في بنية المجتمع ـ لا يبقى موحداً ومتلاحماً ، وانّما تبرز التناقضات والسمات الشخصية لكل فئة ، والمطامع والمخاوف الخاصة بكل جماعة . وحينئذ تنقسم قيادة الفتنة الى فئات متخاصمة متناحرة ، وتجرّ المجتمع ورائها الى التخاصم والتناحر والحروب الاهلية ، وهذا ما عبّر عنه الامام بقوله : « . . . وعن قليل يتبرأ التّابع من المتبوع ، والقائد من المقود ، فيتزايلون بالبغضاء ، ويتلاعنون عند اللقاء » .

***

وهذا نص يصرّح فيه الامام لأصحابه بما ينتظرهم من الفتنة وويلاتها من بعده ، محملاً اياهم مسؤ ولية نشوء الفتنة وانتشارها وما يترتب على ذلك من شرور ، لأنهم كانوا سلبيين امام مظاهر تسرّب روح الفتنة الى مجتمعهم السياسي وبنيتهم الثقافية ، وهذا ما وفّر للفتنة اجواء النموّ والانتشار ، وكانوا متخاذلين ، مهملين لواجبهم ، لم يتحملوا مسؤ وليتهم في نصرة قضيتهم ، وحماية نظامهم الشرعي العادل :

« أيّها النّاس ، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحقّ ، ولم تهنوا عن توهين الباطل ، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ، ولم يقو من قوى عليكم . لكنكم تهتم متاه بني اسرائيل ، ولعمري ليضعفنّ لكم التّيه من بعدي اضعافا ، بما خلفتم الحقّ وراء ظهوركم ، وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد . . . » [1] .

- ج -
ما موقف المسلم من الفتنة حين تبدأ ؟

ما موقف المسلم من الفتنة حين يذرّ قرنها ؟

في الفتنة ـ كما رأينا ـ يختلط الحق بالباطل ، ويلتبس الصواب بالخطأ ، فلا يتميّز أحدهما من الآخر .

وفي هذه الحالة يكون الموقف الأسلم والأوفق بالشرع هو الابتعاد عن الفتنة والامتناع عن المشاركة مع هذا الطرف أو ذاك ، اذ لا يأمن المشارك من أن يقع في الباطل وهو يرى انه ينصر الحق ، او يحارب الحق وهو يرى انه يحارب الباطل .

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم : ١٦٤ . ويومىء في الجملة الاخيرة الى انهم اتصلوا بمعاوية وتخلّوا عن الحاكم الشرعي .

وهذا هو الموقف الذي نصح الامام بالتزامه حين تقع الفتنة ، ويلتبس فيها الحق بالباطل ، فقد قال :

« كن في الفتنة كابن اللّبون . لا ظهر فيركب ، ولا ضرع فيحلب » [1] .

ولكن هذا الموقف يكون صواباً حين لا يكون الامام العادل موجوداً ، ولا يتاح للمسلم أن يتبيّن الحق من الباطل في الأحداث والمواقف التي تجري امامه ، أمّا حين يكون الامام العادل موجوداً ، ويتخذ من الفتنة موقفاً ، فان على المسلم ان ينسجم في مواقفه مع مواقف الامام العادل ، وليس له ان يبقى على السلبية متذرعاً بانه يخشى الوقوع في الباطل ، وانّما يكون موقفه هذا ، في هذه الحالة ، جبناً وخذلاناً للحق ، بل انه يكون ، من بعض الوجوه ، خيانة ومساهمة في الفتنة ، لأنه بسلبيته غير المبرّرة قد يضلّل آخرين يجدون في سلبيته تبريراً لمواقفهم .

وقد واجه الامام اثناء فترة حكمه العاصفة مثل هذه المواقف الجبانة السلبية الخائنة من قبل بعض القيادات في مجتمعه تجاه الفتنة التي اثارتها قوى الثورة المضادة ، فقال مرة يخاطب الناس :

« أيّها النّاس ، ألقوا هذه الأزمّة [2] التي تحمل ظهورها الاثقال من ايديكم ، ولا تصدعوا [3] على سلطانكم ، فتذمّوا غبّ فعالكم [4] ولا تقتحموا ما استقبلتم من فور نار

---

(١) نهج البلاغة : ـ باب الحكم ـ رقم ١ . وابن اللّبون هو ابن الناقة اذا كمل له سنتان . وهو في هذه الحالة لا ينفع للركوب لانه لا يقوى على حمل الأثقال ، وليس له ضرع ليحلب ، كنى الامام بذلك عن ان الانسان الواعي في الفتنة يقف على الحياد فلا يكون ذا نفع لايّ طرف من اطرافها .

(٢) الازمة ، جمع زمام ، كنى عن قضايا الفتنة بالنياق التي يمسك اصحابها بأزمتها ، وهي تحمل على ظهورها الاثقال . يقول لهم : اتركوا قفا الفتنة ولا تخوضوا فيها لتتخلصوا من آثارها .

(٣) لا تصدعوا : لا تتفرقوا عن الحاكم الشرعي .

(٤) غب فعالكم : عواقبها .

الفتنة [١] ، واميطوا عن سننها [٢] واخلّوا قصد السَّبيل لها [٣] ، فقد لعمري يهلك في لهبها المؤمن ، ويسلم فيها غير المسلم .

« انّما مثلي بينكم كمثل السرّاج في الظّلمة ، يستضيء به من ولجها . . . » [٤] .

فالامام هنا ينهي جمهوره عن المشاركة في الفتنة ، ولكنه لا يقرهم على الموقف السلبي منها ، وانّما يأمرهم بالتصدي لها .

ان الشاركة فيها تعني التآمر معها ، والسلبية امامها تعني عدم التصدي لها ، وكلاهما خطأ . الموقف السليم هو مواجهتها مع الامام الحاكم العادل ، لان الحق - بوجوده - بيّن ظاهر ، فهو الهادي ، وهو الدليل الذي لا يضلّل ، وهو « السراج في الظلمة » ، ظلمة الفتنة ، وكل ظلمة .

وقد حدث أن بعض المسلمين في بدايات خلافة أمير المؤمنين علي التبس عليهم الأمر في الفتنة التي أثارها خروج طلحة والزبير ، وعصيان معاوية نتيجة لموقف ابي موسى الأشعري الّذي قال للنّاس في الكوفة حين دعوا الى قمع عصيان طلحة والزبير : ان الموقف موقف فتنة ، وأن الموقف السليم منها هو الامتناع عن المشاركة فيها .

وقد أوضح الامام اذ ذاك أن الموقف من الفتنة التي يلتبس فيها الحق بالباطل هو هذا ، ولكن الأمر يختلف حين يتّضح جانب الحق بوجود الامام العادل او بأية وسيلة اخرى ، فان السلبية في هذه الحالة تكون خيانة .

ومن هنا فقد سمّى الامام خروج طلحة والزبير فتنة ، ودعا الناس الى

---

(١) فور النار : تعاظمها وارتفاع لهبها .

(٢) أماط : نحى وأزل . والسنن : الطريق . يعني تنحوا عن طريق الفتنة وابتعدوا .

(٣) قصد السبيل : الطريق . أي اتركوا الفتنة تسير في طريقها ولا تشاركوا فيها .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٨٥ .

مواجهتها وقمعها ، لأن وجه الحق فيها بيّـن ، فقد كتب الى أهل الكوفة عند مسيره الى البصرة :

« . . . وأعلموا أنّ دار الهجرة [1] قد قلعت بأهلها وقلعوا بهـا [2] ، وجاشـت جيش المرجـل [3] ، وقامـت الفتنـة على القطـب [4] ، فأسرعـوا الى امـيركم ، وبـادروا جهـاد عدوكّم » [5] .

ـ د ـ

موقف الامام علي من فتنة عصره

ما دور الامـام علي ، ومـا موقفـه من الفتنـة التـي عصفـت بالمجتمـع الاسلامي في عهده ؟ .

نظرة الى التاريخ السياسي والفكري للاسـلام تكشف بوضـوح عن أن الامام علياً كان المنقذ الأكبر للاسلام من الشوّه والمسخ بالفتنة التي عصفـت رياحها المجنونة بالمسلمين منذ النصف الثاني من خلافة عثمان .

ولولا توجيه علي الفكري ، ومواقفه السياسية ، ومواجهتـه العسـكرية للفتنة في شتّـى مظاهرهـا الفـكرية والسياسية والعسـكرية لتشـوّه الاسـلام ، وانمسخ ، وتقلّـص . ولكن الامام عليا ، بموقفه الواضح الصريح الرافض لأية مساومة ، كان المنقذ الذي كشف الفتنة ودعاتها ، ووضع المسلمين جميعاً امام

---

(١) دار الهجرة : هي المدينة المنوّرة .

(٢) قلع المكان بأهله : نبذهم وطردهم . وقلع فلان بمكانه : نبذه وابتعد عنه .

(٣) جاشت : اضطربت ، والمرجل : القدر : يعني ان دار الهجرة قد اضطربت بأهلها بسبب الفتنة التي نشبت فيها وانطلقت منها .

(٤) قامت الفتنة على القطب : وجدت من يوجهها ويرعاها ويغذيها بالافكار والقـوى ، فاشتـدت وعظـم خطرها .

(٥) نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ الكتاب رقم ١ .

الخيار الكبير : مع الفتنة أو ضدها ؟ .

ولا يهم بعد ذلك ان الفتنة حازت الى جانبها جمهوراً كبيراً من الناس ، المهم أنها افتضحت ، وبافتضاحها سلم الاسلام من التشوّه ومن خطر التزوير ، وكان على الذين انحرفوا ان يجدوا لأنفسهم مبرّرات .

وقد كان توقع نشوء الفتنة ، والخوف منها ومن افاعيلها وعواقبها ، هاجساً عاماً عند المسلمين . يكشف عن ذلك السؤ ال عنها ، وعن الموقف الصواب منها ، وكثرة حديث الامام عن اخطارها وملابساتها .

وقد كان الامام علي بروحانيته العالية السّامية ، واسلاميته الصّلبة الصافية ، وروحه الرسالية التي تفوّق بها على جميع معاصريه ، وحكمته وشجاعته ، وسيرة حياته الناصعة التي ابتدأت بالاسلام . . . كان هو الرجل الوحيد المرصود لمواجهة الفتنة ، وانقاذ الاسلام منها .

لقد أعلمه رسول الله (ص) بذلك ، وادرك هو دوره من خلال رصده لحركة المجتمع التاريخية .

وهذا نص عظيم الأهمية يكشف لنا عن الدور المرصود للامام علي في مواجهة الفتنة ، يتضمن الرؤ ية النبوية لمستقبل الحركة التاريخية من جهة ، والرؤ ية النبوية لدور الامام علي في هذه الحركة .

وقد اورد الشريف الرضي هذا النص ، كما اورده ابن ابي الحديد في شرحه (٩/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧) برواية الشريف وبرواية اخرى اكثر بسطاً . ويبدو ان الرواية الأخرى تقريرية حدّث بها الامام ، ورواية الشريف خطابية ، جاءت جواباً منه على سؤ ال ، فقد قام اليه رجل ـ وهو يخطب ـ فقال : يا أمير المؤ منين : اخبرنا عن الفتنة ، وهل سألت رسول الله (ص) عنها ؟ فقال عليه السلام :

« انّـه لما أنزل الله سبحانه قوله ﴿ آلم . أحسب النّاس ان يتركوا ان يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ﴾ علمت ان الفتنة لا

تنزل بنا ورسول الله (ص) بين اظهرنا . فقلت : يا رسول الله ما هذه الفتنة التي اخبرك الله تعالى بها ؟ فقال : (يا عليّ ، ان أمتي سيفتنون بعدي) ، فقلت : يا رسول الله ، أوليس قد قلت لي يوم احد حيث استشهد من استشهد من المسلمين ، وحيزت [1] عنّي الشّهادة ، فشقّ ذلك عليّ ، فقلت لي : (ابشر ، فانّ الشّهادة من ورائك) فقال لي : (انّ ذلك لكذلك ، فكيف صبرك اذن ؟) فقلت : يا رسول الله : ليس هذا من مواطن الصّبر ، ولكن من مواطن البشرى والشكر . وقال : يا علي ، انّ القوم سيفتنون بأموالهم ، ويمنّون بدينهم على ربّهم ، ويتمنّون رحمته ، ويأمنون سطوته ، ويستحلّون حرامه بالشّبهات الكاذبة ، والأهواء السّاهية ، فيستحلّون الخمر بالنبيذ ، والسّحت بالهديّة ، والربا بالبيع) . قلت : يا رسول الله : فبأيّ المنازل أنزلهم عند ذلك ؟ أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة ؟ فقال : (بمنزلة فتنة) » [2] .

واذن ، فقد كان الامام مرصوداً لمواجهة الفتنة وفضحها .

لقد كان منقذ الاسلام بعد رسول الله (ص) من التزييف والتحريف ، فحقّق بمواجهته للفتنة صيغة الاسلام الصافي ، في المعتقد والفكر والتشريع والعمل ، وغدت الفتنة أزمة في داخل الاسلام ، ولم تفلح في أن تكون هي الاسلام .

وقد عبّر الامام في اكثر من مقام عن دوره العظيم الفريد في التاريخ ، من حيث كونه القيادي الوحيد الذي استطاع ان يواجه الفتنة ويفضحها ، فقال ممّا قال :

---

(١) حاز عنه الشيء : أبعده عنه .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٥٤ .

« . . . فانّـي فقأت عين الفتنة [١] ، ولم يكن ليجترىء عليها احد غيري ، بعد ان ماج غيهبها [٢] واشتدّ كلبها [٣] »

***

لقد حدثت داخل الاسلام فتن كثيرة ، ولكن أعظم هذه الفتن خطورة وأشدها تخريباً فتنة بني أميّـة التي عصفت رياحها السوداء الشريرة بالمجتمع الاسلامي منذ النصف الثاني من عهد عثمان، وتعاظمت خطورتها بعد مقتله . واستغرقت مواجهتها الفكرية والسياسية والعسكرية معظم جهود امير المؤمنين علي في السنين الأخيرة من حياته .

وقد كان الامام يغتنم كل فرصة سانحة ليحدّث مجتمعه عن هذه الفتنة ، ويبيّـن له اخطارها الآنية والمستقبلية من اجل ايجاد المناعة النفسية منها ، والوعي العقلي لأخطارها ، والعزم العملي على مواجهتها وقمعها ، والتصميم على رفضها حتى بعد انتصارها .

قال عليه السلام :

« انّ الفتنة اذا أقبلت شبّهت [٤] ، واذا أدبـرت نبّهـت ، ينكرن مقبلات ، ويعرفن مدبرات ، يحمن حوم الـريّـاح ، يصبن بلداً ، ويخطئن بلدا . ألا وان أخـوف الفتـن عنـدي عليكم فتنة بني أميّـة ، فانهّـا فتنـة عمياء مظلمـة ، عمّـت خطتها [٥] وخصّـت بليّتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمي عنها » [٦] .

---

(١) فقأت عين الفتنة : تغلبت عليها .

(٢) الغيهب : الظلمة . يعني اني واجهتها في عنفوانها وقوتها .

(٣) الكلب : داء معروف يصيب الكلاب . يعني انه واجهها وهي في هذه الحالة عن الأذى والشر الشديدين . والخطبة في نهج البلاغة ، رقم : ٩١ .

(٤) شبهت : اشتبه فيها الحق بالباطل ، واذا أدبرت وخلص الناس منها تميز حقها من باطلها .

(٥) عمت خطتها : يعني انها فتنة غالبة تصيب ببلائها اهل الحق .

(٦) نهج البلاغة : الخطبة رقم : ٩١ .

فهي فتنة عمّـت بليتها لان رواد ها الحكام أنفسهم ، ومن ثم فشرورها السياسية والفكرية تشمل المجتمع كله .

وهي فتنة خصّـت بليتها لأن أعنف ضرباتها ستوجّـه الى الصفوة المؤمنة الواعية التي بقيت سليمة من داء الفتنة ، ووضعت نفسها في مواقع كفاح الفتنة الغالبة .

والمسؤولية في هذه الفتنة ملقـاة على المبصرين فيهـا ، الـذين يعرفونهـا ويعرفون وجه الحق ويجبنـون عن مواجهتهـا ، أو يتواطئـون ، ضد الحـق ، معها .

اما من عمي عنها ، وجهل ابعادها واخطارها فهو معذور بجهله .

- ٣ -

انتصار حركة الردّة

لا نعني بالردّة هنا الردّة الدينية عن الاسلام ، فقد سبق أن رأينا التوجيه النبوي لعلي حين سأل رسول الله ﷺ : فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك ؟ أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة ؟ فقال ﷺ بمنزلة (فتنة) .

وإنّما نعني الردّة السياسية والفكرية . فإن الفتنة حين انتصرت سياسياً بعد استشهاد أمير المؤمنين علي راحت تمكّن لنفسها بفرض قيمها الفكرية والاجتماعية في الثقافة العامة ، وتطبع العلاقات في داخل المجتمع بطابعها .

***

لقد كان الامام يرى ببصيرته النافذة أن الفتنة ستنتصر ، وكانت هذه الرؤ ية إحدى مسببات ألمه العميق .

وكان يرى أن الفتنة لا تقاوم الا بالكفاح ، أما السكوت عنها ومهادنتها فيتيحان الفرصة أمامها لكي تنتصر .

وكان يؤ رقه أن مجتمعه ، لاسباب شتى ، آثر أن يواجه الفتنة بالسكوت عنها ، أو ـ بعبارة أخرى ـ آثر ألا يواجه الفتنة الاتية .

وكان يقارن بين أصحابه وبين أصحاب رسول الله ﷺ ، فيريهم أن التوجيه الثقافي واحد ، وان القيادة واحدة ، ولكنه كان يرى أن درجة

الاخلاص متفاوتة :

« . . . والله ما أسمعكم الرّسول شيئاً إلاّ وها أنا ذا مسمعكموه ، وما أسماعكم اليوم بدون أسماعكم بالأمس ، ولا شقّت لهم الأبصار ، ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك الزّمان ، إلاّ وقد أعطيتم مثلها في هذا الزّمان . ووالله ما بصّرتم بعدهم شيئاً جهلوه ، ولا أصفيتم به وحرموه[1] ، ولقد نزلت بكم البليّة جائلاً خطامها[2] ، رخوا أبطانها[3] فلا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور ، فإنّما هو ظلّ ممدود الى أجل معدود »[4] .

وقد تكرّر منه المقارنة بين حال أصحابه وحال أصحاب رسول الله ﷺ في عدة مواقف . وكان يرى في طريقة مواجهة أصحابه للفتنة الآتية نذر انتصار هذه الفتنة من بعده ، وقد كشف عن رؤ يته هذه لمجتمعه في عدة مواقف ، منها قوله :

« . . . أما والّذي نفسي بيده ، ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحقّ منكم ، ولكن لاسراعهم الى باطل صاحبهم ، وإبطائهم عن حقي . ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيّتي ، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ،

---

(١) أصفيتم . . حفصتم به دون غيركم .

(٢) الخطام ما جعل في أنف البعير ليقاد به ، فإذا لم يكن ثمة قائد تاه البعير ولم يسلك طريق السلامة ، كنى بذلك عن الفتنة التي تعيث فساداً في المجتمع .

(٣) البطان : حزام يجعل تحت بطن البعير ليحفظ استقرار ما عليه من راكب أو حمل فإذا استرخى أدّى ذلك الى خطر السقوط . كنى بذلك عن أخطار الفتنة .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ٨٧ .

ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا »[1] .

ويكشف هذا النص ـ كغيره من النصوص المماثلة له ـ عن أن انتصار الفتنة لم يكن في تقدير الامام عليه السلام وتحليله ناشئاً من قدر غيبي ، وإنما نشأ من توفّر الأسباب الموضوعية على أرض الواقع السياسي والاجتماعي الذي كانت عوامله تتفاعل في المجتمع السياسي المواجه للفتنة .

لقد فقد هذا المجتمع فاعليته ، وتخلى عن روح الكفاح في مواجهة الفتنة ، وانفصل عملياً عن قيادته فسقط في السلبية ، وآثر الحياة السهلة الخالية من تبعات الرسالة والجهاد .

ومن ذلك قوله عليه السلام :

« . . . ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف[2] ، والقاصمة الزّحوف[3] ، فتزيغ قلوب بعد استقامة ، وتضلّ رجال بعد سلامة ، وتختلف الأهواء عند هجومها ، وتلتبس الاراء عند نجومها[4] من أشرف لها قصمته[5] ومن سعى فيها حطمته ، يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة[6] قد اضطرب فيها مفقود الحبل ، وعمي وجه الأمر . تغيض فيها الحكمة[7] ، وتنطق فيها الظلمة ، وتدقّ أهل البدو

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبه رقم : ٩٥ .

(٢) الرجوف : شديد الرجفان والاضطراب ، تدخل الاضطراب والقلق على المجتمع .

(٣) القاصمة : الكاسرة ، والزحوف : المتحركه التي تسعى للانتشار في المجتمع .

(٤) نجوم الاراء ظهورها يعني أن الفتنة تسبب البلبلة الفكريه في المجتمع ، فتمكن للشعارات الدخيله من التسرب والشيوع .

(٥) أشرف لها : تعرض لها ، قصمته : كسرته .

(٦) يتكادمون . . . ينهش بعضهم بعضاً ، والعانة هي الجماعة من الحمر الوحشية ، بقي أن سلطان القانون ، في حالة انتصار الفتنة ، يسقط ، ويسود سلطان الغريزة .

(٧) تغيض . . . تختفي ، غاض الماء : غار تحت الارض .

بمسحلها [1] وترضّـهم بكلكلها [2] . . . فلا تكونـوا أنصـاب الفتن [3] وأعلام البدع ، والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة ، وبنيت عليه أركان الطّاعة » [4] .

في هذا النص بيّـن الامام بعض سمات انتصار الفتنة :

١ ـ استيلاء الفتنة على مساحـات جديدة في المجتمـع : « تضـل رجـال بعـد سلامة » وتتعمق الأفكار المنحرفة « تزيغ قلوب بعد استقامة » .

٢ ـ تلف المجتمع حيرة شديدة نتيجة للانتصار غير المتوقع الذي فرض مفاهيم جديدة لم تكن مألوفة .

٣ ـ تحطم الفتنة ـ في أوج انتصارها ـ كل من يتصدى لها مواجهة .

وفي نص آخر بيّـن الامام وجوهاً أخرى لانتصار الفتنة :

« . . . فعند ذلك أخذ الباطل مآخـذه ، وركب الجهـل مراكبه ، وعظمـت الطّـاغية ، وصـال الدّهـر صيال السّبـع العقور [5] ، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم [6] وتراخى النـاس على الفجور ، وتهاجروا على الدّين ، وتحابّـوا على الكذب ، وتباغضوا على الصّـدق ، فإذا كان ذلك كان الولد غيظـاً [7] والمطر قيظاً [8] وتفيض اللئام فيضاً وتغيض الكرام غيضاً [9] .

---

(١) دق : فتت وطحن . والمسحل : المبرد أو المطرقة ، يعني أن شرورها الاجتماعية تصل الى أهل البدو ـ مع بعدهم عن يد السلطة ـ فتحطم علاقاتهم ، وتهدد أمنهم .

(٢) الرضى : الهشيم ، والكلكل : الصدر ، يعني أنها تطبق عليهم ، فتشل حركتهم وتحطم مقاومتهم .

(٣) انصاب : علامات .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ٤٩ .

(٥) صال . . . هجم للفتك والاعتداء .

(٦) الفنيق : الفحل من الابل ، والكظوم الصمت والسكون . يعني أن الباطل بعد أن كان ذليلاً صامتاً ، غدا ، في الفتنة ، عالي الصوت هادراً .

(٧) بسبب الفتنة تفسد أخلاق الاجيال الشابة فيكونون سبباً لغيظ أهلهم .

(٨) القيظ : شدة الحر . يعني أن الأمور والسياسات تقع في غير مواقعها فلا تفيد بل تضر .

(٩) غاض الماء في الارض : اختفى وغار فيها . يعني يندر في الفتنة حين تغلب وجود ذوي الاخلاق الكريمة في مراتبهم الاجتماعية لانهم يخفون انفسهم ويبتعدون عن الاضواء .

وكان أهل ذلك الزّمان ذئاباً ، وسلاطينه سباعاً ، وأوساطه أكّالاً ، وفقراؤه أمواتاً ، وغار الصّدق ، وفاض الكذب ، واستعملت المودّة باللّسان ، وتشاجر الناس بالقلوب ، وصار الفسوق نسباً ، والعفاف عجباً ، ولبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً »[1] .

في هذا النص فصّل الامام ملامح الفتنة عندما تنتصر ، وتغلب على المجتمع ، فتتسلّط على مؤسساته ، وتعمق جذورها فيه ، وتبسط مفاهيمها وقيمها عليه .

ويمكن تلخيص هذه الملامح في النقاط التالية :

١ ـ تأصل روح الطغيان في الحكم ، ونزعة التجبر والاستبداد في الحاكمين ، وانحسار الروح الرسالية في مؤسسات الحكم .
٢ ـ فساد العلاقات الانسانية داخل المجتمع ، وتدني المستوى الأخلاقي ، وشيوع أخلاق المنفعة بين الناس . وما أروع قوله في تصوير جانب من هذه الظاهرة (واستعملت المودّة باللسان ، وتشاجر الناس بالقلوب) .
٣ ـ إنحطاط مؤسسة الأسرة ، وشيوع الاباحة الجنسية .

ويلخص ذلك كله قوله عليه السلام : (ولبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً) وهذا كقوله في نص آخر :

« أيّها الناس ، سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بما فيه »[2] .

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ١٠٦ .
(٢) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٠١ .

- ٤ -

المعاناة

تنتصر الفتنة فتأتي بحكم غير عادل ، لا يرى في الأمة إلاّ موضوعاً لتسلّطه ومصدراً للمال .

وهي غير أخلاقية ، لأن قادتها يتبعون في سياسة الناس منطق الغريزة ، لا منطق القانون والعدالة . ومن هنا وهناك فلا بدّ أن يكون لها ضحايا كثيرة .

من ضحاياها خصومها السياسيون الذين حاربوها في الماضي ، وغلبوا على أمرهم في النهاية .

ومن ضحاياها حلفاؤها الذين ساندوها في أيام ضعفها ، واستغنت عنهم في أيام قوتها .

ومن ضحاياها الغافلون عن شرورها وأخطارها ، الذين كانوا محايدين في المعركة الدائرة بينها وبين أهل الحق ، ثم دهشوا عند انتصارها ، فاحتجوا أو أظهروا معارضتهم لها .

وأكبر ضحاياها الأمة كلها حين تحولها الفتنة المنتصرة الى موضوع للتسلط ، ومصدر لصنع الثروات ، وتوفير أسباب الترف واللهو لنخبتها ، وجهازها القمعي ، وحلفائها .

وهكذا تبدأ معاناة الأمة من الفتنة ، من ظلمها وتسلطها ، من عدوانها

الذي ينتشر كالوباء ، فيصيب كل فئة من المجتمع المغلوب على أمره بشتى ألوانه : العدوان الأخلاقي ، والعدوان السياسي ، والعدوان الاقتصادي .

وقد صور الامام علي وجوهاً من معاناة الأمة وعذاباتها بعد انتصار الفتنة في لوحات معبّرة تكاد تنطق بالحركة الحية .

من ذلك قوله عليه السلام :

« . . . وايم الله لتجدنّ بني أميّة لكم أرباب سوء بعدي ، كالنّاب الضّروس[1] تعذم بفيها[2] ، وتخبط بيدها ، وتزبن برجلها[3] وتمنع درّها[4] .

« لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلاّ نافعاً لهم ، أو غير ضائر بهم . ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ كانتصار العبد من ربّه ، والصّاحب من مستصحبه . ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية[5] ، وقطعاً جاهليّة ، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى »[6] .

وهكذا يعاني الناس من الفتنة بعد انتصارها ألواناً من الشر :

١ ـ حكم الطغيان الذي يقضي على كل معارضة له بالرأي والمذهب ، وهو لا يقضي عليه بهوادة ولين ، وإنما بالعنف والقسوة .

٢ ـ والإذلال الذي يمحق كرامة الانسان ويشوّه روحه ، فيحوله الى عبد لا يجرؤ على رفع صوته والتعبير عن رأيه ، وإنما يخضع بالطاعة العمياء الصمّاء

---

(١) الناب : الناقة المسنة ، والضروس : الناقة السيئة الخلق .

(٢) عذم الفرس : إذا أكل بجفاء ، أو عض .

(٣) تزبن : تضرب برجلها من يقترب منها .

(٤) الدرّ : اللبن . يعني انها غير ذات فائدة مع كونها مصدراً للتخريب والاضرار . فالفتنة شر كلها ، ولا خير فيها .

(٥) شوهاء : قبيحة المنظر ، ومخشية : مخوفة مرعبة .

(٦) العلم : الدليل الهادي في متاهات الصحراء . نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ٩٣ .

التي لا خيار فيها ولا تنبثق من قناعة وإنما يفرضها الخوف من العذاب .

***

ومن ذلك قوله عليه السلام :

« والله لا يزالون حتّى لا يدعو لله محرّماً إلاّ استحلّوه ، ولا عقداً إلاّ حلّوه ، وحتّى لا يبقى بيت مدر ولا وبر [١] إلاّ دخله ظلمهم ، ونبا به سوء رعيهم [٢] ، وحتّى يقوم الباكيان ، يبكيان : باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه ، وحتّى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيّده ، إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه ، وحتّى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظنّاً ، فإن أتاكم الله بعافية فاقبلوه ، وان ابتليتم فاصبروا ، فإنّ العاقبة للمتقين » [٣] .

في هذا النص يكشف الامام عن وجوه أخرى من المعاناة والعذاب :

١ ـ سقوط حرمة القانون عند الطغمة الحاكمة التي يفترض فيها ، وهي تحكم باسم الدين ، أن تحافظ عليه من حيث التطبيق .

٢ ـ انتشار الظلم ، وعدم اقتصاره على الحواضر والمدن ، بل يشمل جميع مستويات الأمة فيعاني منه سكان المدن وبدو الصحراء .

٣ ـ الإذلال ، وهدر كرامة الانسان الذي يتحوّل ، لطول ما يعاني من الاذلال ، الى ما يشبه اخلاق الرقيق .

إن هذا الواقع يجعل المعاناة شاملة في قضايا الدين وقضايا الدنيا ، ويكون أشد الناس بلاء ومعاناة أكثرهم وعياً ، وأصلبهم عوداً في مواجهة اغراء الفتنة وإرهابها .

---

(١) بيت المدر : ما بني بالحجارة ، وبيت الوبر : الخيمة . يعني أن شرّ الفتنة لا يقتصر على سكان المدن وإنّما يشمل الريف والبدو .

(٢) نبا به سوء رعيهم : شرد الناس ، وأقلق حياتهم . من (نبا به المنزل) : إذا لم توافقه .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ٩٦ .

ولكن الامام يوصي هذه الفئة المستنيرة التي لم تستهلكها الفتنة بالصبر ، لأن الفتنة في هذه المرحلة لا تقاوم ، وكل جهد يبذل في مقاومتها جهد ضائع مهدور يزيد الشرعية ضعفاً ووحدة وعزلة دون أن يؤثر على الفتنة ، وهي في أوج انتصارها شيئاً .

***

ومن ذلك قوله عليه السلام :

« راية ضلال قد قامت على قطبها[1] وتفرّقت بشعبها[2] تكيلكم بصاعها[3] ، وتخبطكم بباعها[4] ، قائدها خارج من الملة ، قائم على الضلّة ، فلا يبقى يومئذٍ فيكم إلاّ ثفالة كثفالة القدر[5] أو نفاضة كنفاضة العكم[6] تعرككم عرك الأديم[7] ، وتدوسكم دوس الحصيد[8] وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطّير الحبة البطينة[9] من بين هزيل الحبّ »[10].

في هذا النص يتابع الامام الكشف عن وجوه المعاناة :

---

(١) استحكم أمرها كالرحاحين تستقر على قطبها .

(٢) الشعب : الفروع . يعني أن الفتنة تغلغلت في جميع ثنايا المجتمع .

(٣) تشمل الناس بشرها دون تمييز كما يكال الحب بالصاع .

(٤) تضرب بذراعها جميع الأمة فلا يمتنع منها أحد ، مأخوذ من (خبط الشجرة) ضربها بالعصا ليسقط ثمرها أو يتناثر ورقها .

(٥) الثفل : نفاية الشيء ، وما لا خير فيه منه ، وثفالة القدر ما يبقى فيه من هذا القبيل .

(٦) النفاضة ما يسقط من الثوب أو البساط بالنفض ، والعكم : العدل الذي يجعل على الدابة ويحمل فيه المتاع .

(٧) العرك : الدلك الشديد ، والأديم : الجلد .

(٨) الحصيد : الغلات المحصودة .

(٩) البطينة : السمينة .

(١٠) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٠٦ .

سيادة حكم الطغيان بسبب أن الشريعة مهملة من حيث التطبيق لأن الراية راية ضلال ، ولذا فإن هذا الحكم يتصرف بوحي الغريزة على ضوء القانون ، ونتيجة ذلك ان الحكم يدوس الأمة ويسحقها ، ويذهب بكل صلابة وعنفوان فيها ليحولها الى كيان مطواع لا إرادة له ولا اختيار ، كالجلد الذي سحق وعرك حتى لأنَ تفقد كل صلابة ، وكالحصيد الذي ديس حتى تفتت .

ولكن الفتنة ، مع ذلك ، لا تفلح في القضاء على كل شيء ، فرغم الظلم المادي والمعنوي ، والتشويه الثقافي تبقى نخبة النخبة محافظة على ذاتها ، انها تكون قليلة العدد حقاً ، ولكنها أصيلة ، صافية ، منيعة على الطغيان ، والتشويه والاغراء والارهاب .

***

ومن ذلك قوله عليه السلام :

« تغيض فيها الحكمة[١] وتنطق فيها الظلمة ، وتدقّ أهل البدو بمسحلها[٢] وترضّهم بكلكلها[٣] يضيع في غبارها الوحدان[٤] ، ويهلك في طريقها الرّكبان ، ترد بمرّ القضاء ، وتحلب عبيط الدّماء[٥] وتثلم منار الدين[٦] وتنقض عقد اليقين . يهرب منها الأكياس[٧] ويدبّرها الأرجاس[٨] مرعاد مبراق كاشفة عن ساق ، تقطع فيها الأرحام ، ويفارق عليها

(١) تغيض : تختفي ، يعني أن الحكمه في الفتنه تختفي في الناس فلا يتعاملون بما تقضي به من لهداله وأخلاق .

(٢) السحل : المبرد أو المطرقه .

(٣) الرّض : التهشيم . والكلكل : الصدر .

(٤) الوحدان : جمع واحد ، يعني المتفردون .

(٥) عبيط الدماء : الطري منها .

(٦) الثلم : الكسر ، يعني أنها تنتهك الدين وتقلص نفوذه وولايته بترك العمل به وظلم أهله والداعين اليه .

(٧) الكيس : الحاذق العاقل .

(٨) الارجاس : الاشرار .

الاسلام ، بريّها سقيم ، وظاعنها مقيم . . بين قتيل مطلول[1] ، وخائف مستجير ، يختلفون بعقد الايمان[2] . . . »[3] .

يبرز الامام في هذا الفصل ـ كما في النص الثاني من هذا الفصل ـ شمول الظلم لأهل البدو ، وهذا يعني ـ بملاحظة التركيب الاجتماعي ، والوضع الثقافي للمجتمع الاسلامي في ذلك الحين ـ أقصى درجات الشمول للظلم والطغيان ، فأهل البدو ـ بسبب طريقة حياتهم ـ بعيدون عن متناول السلطة وأجهزتها ومن ثم فهم يتمتعون بفرص أكثر من أهل المدن للنجاة من كثير من شرور الطغيان السياسي . ولكن هذه الفتنة المنتصرة يبلغ من قوتها وعنفها أن هؤلاء البدو ـ أهل الوبر ـ لا يسلمون منها ، بل تسومهم سوء العذاب .

كما أبرز الامام في هذا النص الوجوه الأخرى للمعاناة : الاذلال ، وسياسة القمع ، وتجاوز الشريعة والقانون ، وانحطاط العلاقات الانسانية .

***

وقال عليه السلام :

« . . فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلاّ وأدخله الظّلمة ترحة[4] ، وأولجوا فيه نقمة ، فيومئذٍ لا يبقى لهم في السّماء عاذر ، ولا في الأرض ناصر . أصفيتم بالأمر غير أهله[5] وأوردتموه غير مورده ، وسينتقم الله ممّن ظلم ، مأكلاً بمأكل ، ومشرباً بمشرب ، من مطاعم العلقم ، ومشارب

---

(١) قتيل مطلول : مهدور الدم ، لا دية له ولا قصاص .

(٢) الختل : الخداع ، يعني يخدعون الناس بحلف الايمان وإظهار شعار الاسلام .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٤٩ .

(٤) ترحة : حزن وألم .

(٥) أصفيت فلاناً كذا : أعطيته إياه خالصاً ، يعني أعطيتم السلطة السياسية في الاسلام الى غير أهلها .

الصّبر والمقر[1] ، ولباس شعار الخوف ودثار السّيف[2] ، وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام[3] »[4] .

في هذا النص بين الامام أيضاً طابع الشمول لهذه الفتنة . وذكر جمهور الناس في كل عصر بالسبب الموضوعي الذي ولّدها ، ومكن لها ، وهو تجاوز الشرعية في الحاكم والنظام ، والانسياق وراء المصالح الخاصة ، والانانيات الفردية والقبلية ، وعدم تحمل مسؤوليات الصراع ضد الباطل وأهله .

***

ومن ذلك قوله عليه السلام مخاطباً الخوارج ، مخبراً لهم بما سيكون عليه حالهم في نظام الفتنة الآتي حيث لا يجدون الإنصاف والعدل ، والتفهم لأوضاعهم وآمالهم التي يجدونها في نظام العدل الذي يقوده الامام :

« أما انكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ، وأثرة[5] يتخذها الظالمون فيكم سنّة »[6] .

***

تنتصر الفتنة ، ويعظم سلطانها ، وتسود مفاهيمها ، وتفرض على المجتمع قيمها ، وتمضي على ذلك السنون ، والفتنة تزداد قوة ومناعة وتسلطاً ، ويمتد سلطانها لينفذ في كل زاوية وعلى كل صعيد في المجتمع ، ويسود الاعتقاد بأن كل شيء قد انتهى ، وبأن التاريخ قد استقر على هذه الصيغة الى النهاية ، وتنشأ على هذا الاعتقاد أجيال بعد أجيال .

---

(١) الصبر : عصارة شجر مر ، والمقر : السم .
(٢) الشعار من الملابس ما يكون عليه الجلد ، والدثار ما يكون عليه الثياب .
(٣) الزاملة : الناقة أو الدابة التي يحمل عليها المتاع .
(٤) نهج البلاغة ، الخطبة رقم ١٥٦ .
(٥) الأثرة : الاستبداد بالخيرات دون الاخرين .
(٦) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ٥٨ .

ولكن هذا الاعتقاد خاطىء ، فحركة التاريخ لا تتوقف عند صيغة بعينها ، بل هي دائبة التقلب والتغير ، وسيكون لانتصار الفتنة واستقرار سلطانها نهاية قد لا تنتهي بها الفتنة ، ولكنها تواجه مقاومة جديدة .

تنشأ هذه المقاومة من حق استعاد بعضاً من حيويته فهو لا يطيق السكوت ، فيعبّر عن نفسه بالثورة ، لا لينتصر ، فقد يكون انتصار الحق بعيد المنال في هذه المرحلة من التاريخ ، ولكن ليكسر من غلواء الفتنة ، ويعطل جانباً من عملها التخريبي في عقيدة الأمة وشخصيتها ، وذلك حين يسلب الفتنة الشعور بالاستقرار والأمان ، فيحملها على اتخاذ موقف الدفاع عن نفسها والتخلي عن بعض مناهجها التخريبية ، ويحملها على أن ترتد ولو قليلاً الى الصواب .

أو تنشأ هذه المقاومة من أزمات داخل الفتنة نفسها ، تولّد فتناً تزعج أهل السلطان القديم ، وتأتي الى سدة السلطان بقوم آخرين ، ويكون بين أولئك وهؤلاء فرج لأهل الايمان ، ونهضة لأهل الحق في غفلة أهل السلطان .

قال عليه السلام :

« حتّى يظنّ الظّان أنّ الدّنيا معقولة على بني أميّة[1] ، تمنحهم درّها[2] ، وتوردهم صفوها ، ولا يرفع عن هذه الأمة سوطها ولا سيفها ، وكذب الظّان لذلك ، بل هي مجّة[3] من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ، ثم يلفظونها جملة »[4] .

وقال عليه السلام في نص آخر يخاطب بني أمية :

---

(١) معقولة : مقصورة عليهم ، دائمة لهم ، من عقل الناقة إذا حبسها بالعقال في مكان بعينه .

(٢) الدر : اللبن ، يعني خيرات الدنيا ولذاتها .

(٣) مجّة : مصدر مرة ، من مج الشراب من فيه ، يعني أنها لا تدوم لهم كما يتوهم الناس وإنما يمجونها ويلفظونها رغماً عنهم .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ٨٥ .

« فما أحلولت لكم الدّنيا في لذّتها ، ولا تمكّنتم من رضاع أخلافها[1] إلاّ من بعد ما صادفتموها جائلاً خطامها[2] ، قلقاً وضينها[3] ، قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السّدر المخضود[4] ، وحلالها بعيداً غير موجود ، وصادفتموها والله ، ظلاً ممدوداً الى أجل معدود . فالأرض لكم شاغرة[5] ، وأيديكم فيها مبسوطة ، وأيدي القادة عنكم مكفوفة ، وسيوفكم عليهم مسلّطة ، وسيوفهم عنكم مقبوضة . ألا وان لكلّ دم ثائراً ، ولكلّ حق طالباً . وانّ الثائر في دمائنا كالحاكم في حق نفسه ، وهو الله الذي لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب . فأقسم بالله يا بني أميّة : عمّا قليل لتعرفنّها في أيدي غيركم ، وفي دار عدوّكم . . . »[6] .

وقال عليه السلام :

« . . . فأقسم ثمّ أقسم لتنخمنها أميّة من بعدي كما تلفظ النّخامة[7] ، ثمّ لا تذوقها ولا تتطعم بطعمها أبداً ما كرّ الجديدان[8] »[9] .

***

(١) الأخلاف جمع خلف : حلمة ضرع الناقة .

(٢) الخطام : ما يوضع في أنف البعير ليقاد به ، يعني أن تخاذل أهل الحق عن نصرة الحق مكن لاهل الباطل من الانتصار .

(٣) الوضين : حزام عريض يشد به الرحل على الناقة ، وهو كناية عن تخاذل أهل الحق الذي مكن لأهل الباطل من النصر .

(٤) السدر : شجر النبق ، والمخضود : المقطوع شوكه . يعني أنكم انتصرتم بأقوام يستحلون حرام الله ، ولا يتورعون من شيء .

(٥) شاغرة : خالية ، يعني لم يقاومكم أحد .

(٦) نهج البلاغة : الخطبة رقم : ١٠٣ .

(٧) نخم : أخرج النخامة من صدره ، وهي المواد المخاطية ، كنى بذلك عن سلطان بني أمية .

(٨) الجديدان : الليل والنهار . يعني أنهم لا يعودون الى السلطة أبداً .

(٩) نهج البلاغة ، الخطبة رقم : ١٥٥ .

وهكذا يرى الامام ببصيرته التي تضيء آفاق المستقبل الملفّح في ظلمات الزمان إلا في حركة التاريخ الهادرة ، والقوى السياسية التي يحبل بها المجتمع في الحاضر وسيلدها في الآتي من الأيام ، لتحرم الفتنة من لذات انتصارها ، وتتراجع الى مواقع الدفاع عن نفسها ، وتبدل القوى الحاكمة بقوى جديده ، عادلة أو ظالمة .

ـ ٥ ـ

الثورة

الفتنة تنمو ، ويتسع سلطانها ، ويزداد بطشها ، ويزيد شيئاً فشيئاً عدد الساخطين عليها : من أبنائها الذين نبذتهم بعد أن استغنت عنهم ، ومن الصفوة التي قامت في أساسها ضدهم ، ومن أولئك الذين لم يكن يعنيهم الأمر في شيء ، ولكنهم اكتشفوا ـ بعد انتصار الفتنة التي لم يحاربوها أول الأمر ـ أنهم قد غدوا من ضحاياها . . . . هؤلاء جميعاً الذين تجملهم كلمة أمير المؤمنين في تصوير لمعاناة الناس من الفتنة بقوله :

« . . . وحتّى يقوم الباكيان يبكيان : باك يبكي لدينه ، وباك يبكي لدنياه » .

ويرى هؤلاء جميعاً أن النظام ، نظام الفتنة ، ظالم . وكل فريق يرى ظلم هذا النظام من منظوره الخاص :

بعضهم يرى ظلم النظام من منظوره النفعي الخاص ، أو الفئوي ، أو القبلي ، دون أن يبالي بانتهاك الثورة لحقوق أشخاص آخرين أو فئات أخرى ، ودون أن يبالي بتجاوز النظام للشريعة وتعطيل دور الأمة الرسالي في العالم ، وتحويلها الى فئات محتربة متخاصمة فقدت وحدتها الداخلية .

وبعضهم الآخر يرى ظلم النظام من منظور رسالي وشرعي يتجاوز مصالحه الشخصية ومصالح فئته وقبيلته .

كل الفئات الساخطة على النظام ترى ظلم هذا النظام . . . هذا الظلم الذي هو حصيلة التعارض بين القانون كما يراه كل فريق من منظوره الخاص وبين سياسة الدولة .

وتتأهب كل فئة ـ بوسائلها الخاصة ـ للعمل من أجل تصحيح الوضع القائم برفع التعارض بين الواقع السياسي للدولة وبين القانون ، بإرغام الدولة على أن تعود في سياستها الى القانون ، أو بتغيير الفئة الحاكمة نفسها .

والوسيلة الى إنجاز عملية التصحيح هذه هي الثورة .

إذن ، عملية الاحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة وممارساته قد تكون ثورة عادلة ، وقد تكون أزمة في داخل الفتنة نفسها . نعني : فتنة جديدة تولد من فشل الفتنة الحاكمة في إرضاء قوى سياسية في المجتمع تحمل نفس المفاهيم التي تحملها الفتنة الحاكمة[1] .

إن الاحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة له فائدة ايجابية كبرى وهامة سواء أكان القائمون بالاحتجاج عادلين أو مفتونين .

هذه الفائدة هي إدخال الاضطرابات والقلق على هذا النظام وحرمانه من فرص الاستقرار والشعور بالأمن التي تتيح له المضي في تزوير الشريعة وافساد القيم . وتتيح لقوى الخير والحق الصامدة في الأمة أن تتنفس قليلاً ، وتمارس دورها في توعية الأمة بحرية نسبية لم تكن لتتاح لها لو أن نظام الفتنة نعم بالسلام والاستقرار .

***

وقد كان موقف الامام إيجابياً من حركات الاحتجاج على نظام الفتنة الذي

---

(١) نحن نعبّر بمصطلح (ثورة) في التاريخ الاسلامي عن العمل السياسي الذي يتمتع بالشرعية ، وما عدا ذلك لا نسميه ثورة ، وإنما نسميه تمرداً ، أو خروجاً ، أو فتنة .

وإنما جعلنا عنوان هذا الفصل (الثورة) ـ مع أن البحث فيه يشمل الاحتجاج بالعنف بجميع ألوانه (الشرعية وغير الشرعية) لغرض بياني فقط ، هو إيثار بساطة العنوان على تعقيده .

سيقوم من بعده ، لأنه إذا لم يكن من المتاح ـ نظراً لما تقضي به حركة التاريخ ـ انتصار الشرعية الكاملة في المدى المنظور ، فإن من الخير ألاّ تتاح لنظام الفتنة فرصة للتمكن والاستقرار ، ومن الخير أن يبقى نظام الفتنة في أجواء الخوف والحذر ، وحالة الدفاع .

ومن هنا كان توجيهه بشأن الخوارج الذين تمظهرت فيهم الفتنة بمظهر الرفض المطلق للأنظمة القائمة ، ومن ثم فهم مؤهلون لأن يشكلوا قوة مزعجة لنظام الفتنة المنتصر .

لقد نهى الامام عن قتال الخوارج من بعده ، مع أنه ، هو ، قاتلهم في خلافته ، ـ لأنهم ـ حين قاتلهم وقتلهم في النهروان بعد أن رفضوا كل عروض السلام ، وبعد أن رفضوا التخلي عن مواقفهم ـ كانوا يمثلون قوة هادمة لنظام عادل ، أمّا في نظام الفتنة فإنهم يمثلون قوة شالّة وشاغلة لهذا النظام الجائر المنحرف عن أن يمارس طغيانه المادي والسياسي ، وينفذ خطط التحريف العقيدي والشرعي . قال عليه السلام :

« لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه »[1] .

***

وقد كان عليه السلام يرى الثورة آتية .

إنه لا يصف هذه الثورة بأنها عادلة مستقيمة ، أو ظالمة مفتونة ، وإنّما يرى أن نظام الفتنة المنتصر لا يتمتع طويلاً بانتصاره واستقراره ، بل ستسلب منه لذة النصر وحرية الحركة التي يتيحها النصر والاستقرار السياسي والاجتماعي ، ثورات دامية تتوالى فتقضي في النهاية على فتنة بني أميّة ، وتزيل ملكهم .

---

(١) نهج البلاغة : رقم النص ـ ٦١ .

قال ، وهو يحدّث جمهوره عن الفتنة وانتصارها ، والمعاناة من ويلاتها وشرورها :

« . . . ثمّ يفرّجها الله عنكم كتفريج الأديم[1] ، بمن يسومهم خسفاً[2] ، ويسوقهم عنفاً ، ويسقيهم بكأس مصبّرة[3] ، ولا يعطيهم إلاّ السّيف ، ولا يحلسهم إلاّ الخوف[4] فعند ذلك تودّ قريش - بالدّنيا وما فيها - لو يرونني مقاماً واحداً ، لو قدر جزر وجزور ، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه »[5] .

***

والامام يرى أن من الهموم الكبرى لنظام الفتنة المنتصر تشتيت القوى السياسية والعقيدية المناهضة له ، سواء أكانت هذه القوة أو تلك قد حافظت على نقائها الاسلامي أو تلوثت بغبار الفتنة بشكل أو بآخر .

ولكنه يرى أيضاً أن محاولات نظام الفتنة لتشتيت القوى المضادة له لن تستمر في النجاح ، فإن حركة التاريخ تعمل على تجميع هذه القوى من جديد وفقاً لصيغ سياسية جديدة ، ويكون ذلك ايذاناً بنهاية الاستقرار لنظام الفتنة الأموي .

قال عليه السلام :

« . . وأيم الله لو فرّقوكم تحت كلّ كوكب ، لجمعكم الله لشرّ يوم لهم »[6] .

---

(١) الأديم الجلد ، وتفريجه سلخه : يعني أن الله يسلخ سلطان بني أمية عن الأمة مع شدة رسوخه ولصوقه .

(٢) الخسف : الذل . يعني أن الثورة الآتية تعاملهم بالاذلال .

(٣) مصبرة مملوءة الى أصبارها بمعنى حافتها ، يعني لا يرحمهم ولا يخفف عنهم .

(٤) حلس البعير : كساء يوضع على ظهره ، يعني أن الثورة الآتية تلبس بني أمية الخوف .

(٥) نهج البلاغة - رقم النص : ٩١ .

(٦) نهج البلاغة - رقم النص : ١٠٤ .

وقال عليه السلام :

« افترقوا بعد ألفتهم ، وتشتّتوا عن أصلهم ، فمنهم آخذ بغصن أينما مال مال على أنّ الله تعالى سيجمعهم لشرّ يوم لبني أميّة ، كما تجتمع قزع الخريف[1] ، يؤلّف الله بينهم ، ثم يجمعهم ركاماً كركام السّحاب[2] ، ثم يفتح لهم أبواباً يسيلون من مستشارهم كسيل الجنتين ، حيث لم تسلم عليه قارة ، ولم تلبث عليه أكمة[3] ، ولم يردّ سننه طود ولا حداب أرض[4] ، يزعزعهم الله في بطون أوديته[5] ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض ، يأخذ بهم من قوم حقوق قوم ، ويمكّن لقوم في ديار قوم وأيم الله ليذوبن ما في أيديهم بعد العلوّ والتمكين كما تذوب الألية على النار »[6] .

***

ومن أروع رؤاه لحركة التاريخ في المستقبل رؤيته لحركة الخوارج التمردية ، وكيف انها ستنمو وتتشعب على رغم ما يبدو في الحاضر من مظاهر اندثارها وانقطاع أصلها ، وذلك انه لما قتل الخوارج قيل له : يا امير المؤمنين : هلك القوم باجمعهم ، فقال :

﴿ كلاّ والله . انّهم نطف في اصلاب الرّجال وقرارات

---

(١) القزع : القطع المتفرقة من السحاب .

(٢) ركام السحاب : السحاب المتراكم . والمستشار مكان تجمعهم وانطلاقهم ثائرين ، وسيل الجنتين السبيل الذي دمر الله به قوم سبأ وحضارتهم عندما طغوا وبطروا .

(٣) القارة : ما اطمئن من الأرض . والأكمة : ما ارتفع من الأرض . يعني أن الكارثة ستكون شاملة عليهم لا يفلت منها أحد منهم ولا مؤسسة من مؤسسات دولتهم .

(٤) السنن : الجري ، والطود : الجبل العظيم ، والحداب : المرتفعات . والمراد هنا هو المراد في رقم (٣) .

(٥) يزعزعهم : يفرقهم في بطون الأودية حيث يختفون ، كناية عن أماكن اختفائهم ، ثم يجمعهم .

(٦) نهج البلاغة ـ رقم النص : ١٦٤ .

النّساء [1] كلّما نجم منهم قرن قطع [2] حتى يكون آخرهم لصوصا سلاّبين ﴾ [3] .

***

وهكذا تأتي الثورة في أعقاب انتصار نظام الفتنة فتحول بينه وبين الاستقرار ، وتحول بين ادواته وبين ان تمكن لمفاهيمها في الأمة ، وتتيح بذلك فرصاً لقوى الخير الباقية ان تنعم بشيء من الامان ، وان تقدر على شيء من الحركة يتيح لها ابقاء النور الصافي متألقاً في ظلمات الفتنة ، في عقول وقلوب كثيرة ، بانتظار الأمل الكبير ، والنصر النهائي الكبير .

---

(١) قرارات النساء : ارحام النساء .

(٢) نجم : ظهر . قرن : رئيس او جماعة .

(٣) نهج البلاغة ـ رقم النص : ٦٠ .

- ٦ -
الأمل

الانسان يعيش في الحاضر مشدوداً بين وترين: الماضي والمستقبل ، فهو لا يني يحمل الماضي في وعيه ، وفي ذاكرته ، وفي تركيب جسده ، مثقلاً بأحزانه وأفراحه ، ومخاوفه وآماله ، مندفعاً بها نحو المستقبل ، يضيء عينيه نور الأمل الذي يغمر قلبه بالحياة الأفضل . ولكنه أمل معذب بالحيرة ، والقلق ، والمخاوف من خيبات الأمل .

وهذه الحقيقة بارزة في تكوين وحياة الانسان الفرد بوضوح ، وهي لا تقلّ وضوحاً في حياة الأمم والشعوب والجماعات .

وقد وقف الاسلام في تعليمه التربوي الايماني للافراد في وجه الميل الى الاعراق في الأمل ، لأنه حين يشتد ويغلب على مزاج الانسان يجعله غير واقعي ، ويحبسه في داخل ذاته ، وينمي فيه الشعور بـ « الأنا » على نحو لا يعود الآخرون موضوعاً لاهتمامه وعنايته أو يجعله قليل الاهتمام بهم ، وهذا أمر مرفوض في دين يجعل الاهتمام الشخصي بالآخرين احد المقوّمات الاساسية للشخصية الانسانية السليمة ، ولأن الاغراق في الأمل يحول بين الانسان وبين كثير من فرص كثيرة للتكامل الروحي والاخلاقي .

والنصوص القرآنية في هذا الشأن كثيرة ، كذلك النصوص النبوية الواردة في السنة .

وقد حفلت مواعظ الامام علي في نهج البلاغة بالتحذير من الاسترسال مع الآمال [1] .

وهذا لا يعني ـ بطبيعة الحال ـ أن تأميل الانسان في مستقبله ـ باعتدال وواقعية ـ ممارسة غير اخلاقية في الاسلام ، كيف وقد حذّر الله تعالى في القرآن الكريم من اليأس ونهى عنه في آيات تذكر برحمة الله وروح الله ، ومن ذلك تعليم يعقوب سلام الله عليه لبنيه حين امرهم بالبحث عن يوسف وأخيه ، وذلك كما ورد في قوله تعالى :

« يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله . انّه لا ييأس من روح الله الاّ القوم الكافرون » [2] .

فان يعقوب طبق مبدأ مشروعية الأمل العام المطلق على حالة فردية هي حالته وحالة بنيه .

واذن ، فالأمل ، في نطاق الواقع ، حقيقة كيانية في الانسان ، قد يكون فقدانها ظاهرة مرضية نفسية وليس علامة عافية .

هذا على الصعيد الفردي .

وأمّا على الصعيد الجماعي في الأمم والشعوب والجماعات فان الأمل عامل هام جداً وأساسي في تنشيط حركة التاريخ وتسريعها ، وجعلها تتغلب بيسر على ما يعترضها من صعوبات ومعوّقات .

والأمل الموضوعي القائم على اعتبارات عملية تنبع من الجهد الانساني ، واعتبارات عقيدية وروحية . . . هذا الامل يشغل حيزاً هاماً واساسياً في تربية الله تعالى للبشرية السائرة في حياتها على خط الايمان السليم .

---

(١) راجع دراسة موسعة ومعمقة عن هذا الموضوع في فصل (الوعظ) من كتابنا ، دراسات في نهج البلاغة ـ الطبعة الثالثة .

(٢) سورة يوسف (مكية ـ ١٢) الآية : ٨٧ .

وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات محكمات تتضمن وعد الله تعالى بالنصر والعزة لأهل الايمان وقادتهم من الانبياء والتابعين لهم باحسان .

قال الله تعالى :

﴿ انّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ انّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين ﴾ (٣) .

وقد وجّه الله تعالى في القرآن الكريم رسوله محمدا (ص) والمسلمين الى ان الأمل بالنصر والحياة الأفضل يجب ان يبقى حياً نابضاً دافعاً الى العمل حتى في أحلك ساعات الخذلان والهزيمة وانعدام الناصر . . . لقد كانت الآمال بالنصر تتحقق في النهاية على اروع صورها حين يخالج اليأس قلوب أهل الايمان ، وحين يصل الرسل الكرام الى حافة اليأس :

﴿ وما أرسلنا من قبلك الاّ رجالا نوحي اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . ولدار الاخرة خير للذّين أتقوا ، أفلا تعقلون . حتى اذا استيئس الرّسل ، وظنّوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، فنجيّ من نشاء ، ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين .

---

(١) سورة المؤمن (مكية ـ ٤٠) الآية : ٥١ .
(٢) سورة الانبياء (مكية ـ ٢١) الآية : ١٠٥ .
(٣) سورة يوسف (مكية ـ ١٢) الآيات : ١٠٩ ـ ١١١ .

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كلّ شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤ منون ﴾[1] .

***

ان الأمل الجماعي بمستقبل اكثر اشراقاً وأقل عذابا، أو مستقبل مترع بالفرح خال من المنغصات . . . ان هذا الأمل يستند الى « وعد الهي » ، فهو ، اذن ، ليس مغامرة في المستقبل ، وانما هو سير نحو المستقبل على بصيرة .

وهو أمل يرفض الواقع التجريبي الحافل بالمعوقات نحو مستقبل مثالي مشروط « بالعمل » المخلص في سبيل الله ، وفي سبيل الله بناء الحياة ، وعمارة الأرض ، واصلاح المجتمع . كما ان هذا المستقبل مشروط « بالصبر » على الأذى في جنب الله ، و « الصدق » في تناول الحياة والتعامل معها ومع المجتمع و« الرضا » بقضاء الله تعالى .

والسنّة حافلة بالنصوص التي تغرس في قلب الانسان روح الأمل ، وتملأ وعيه ببشائر المستقبل الافضل ، استناداً الى وعد الله تعالى .

***

والتأمل العميق الواعي في نصوص الكتاب الكريم والسنّة الشريفة التي تفصح عن العلاقة بين الله والانسان ، وتكشف عن طبيعة هذه العلاقة . . . كذلك التأمل في الفقه المبني على هذين الأصلين . . . ان هذا التأمل يكشف عن ان العلاقة بين الله والناس مبنية على ثلاث حقائق ربانية يقوم عليها وجود المجتمع البشري ، وديمومته ، ونموه وتقدمه :

١ ـ الحقيقة الأولى هي الانعام المطلق غير المشروط بشيء على صعيد الشروط المادية للحياة بما يكفل لها الديمومة والنمو التصاعدي نحو الأفضل ، فقد خلق الله الانسان ، وزوّده بالمواهب العقلية والنفسية والروحية ، التي تتيح له ان يتعامل مع الطبيعة المسخرة له ، وتمكنه من اكتشاف خيراتها

وكنوزها ، ومعرفة قوانينها وتوجيه هذه الاكتشافات والمعارف لخدمة نفسه ونوعه .

٢ ـ الحقيقة الثانية هي الرحمة التي « كتبها الله على نفسه » [١] والتي « وسعت كل شيء » [٢] ، واقالة العثرات ـ على صعيد الأمم والجماعات والمجتمعات ، والافراد ـ ، والتجاوز عن الخطايا والسيئات ، ومنح الفرص المتجددة لتصحيح السلوك ، وتقويم الاعوجاج ، والتوبة والانابة الى الله تعالى والعمل بقوانينه وشرائعه .

وهذه الحقيقة نابعة من معادلة تقابل بين حقيقتين كونيتين :

أ ـ خيرية الله الشاملة المطلقة .

ب ـ الحقيقة الموضوعية الثابتة في الفكر الاسلامي ، وهي ان الانسان خلق ضعيفاً [٣] وما يخالف هذه الحقيقة من الآلام والكوارث فهو على قسمين :

الاول ـ ناشىء عن عمل الطبيعة وقوانينها ، وهي قوانين تعمل ، في غرضها الأقصى ، لخير الجنس البشري بصورة شاملة وغير مقيدة بزمان او رقعة جغرافية ، وهذا ما يجعلها قوانين عادلة وان اصابت بالالام بعضاً من البشر في زمان بعينه أو مكان بعينه .

---

(١) قال تعالى : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة . . ـ سورة الانعام (مكية ـ ٢٦ الأية : ١٢ وقال تعالى :

﴿ واذا جاءك الذين يؤ منون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ، انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم ﴾ سورة الانعام (مكية ـ ٦) الأية : ٥٤ .

(٢) قال تعالى ﴿ . . . ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ سورة الانعام (مكية ـ ٦) الاية : ١٤٧ . وقال تعالى : ﴿ قال عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء ، فساكتبها للذين يتقون ، ويؤ تون الزكاة . والذين هم بآياتنا يؤ منون ﴾ سورة الاعراف (مكية ـ ٧) الاية : ١٥٦ . وقال تعالى :

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ سورة المؤمن (مكية ـ ٤٠) الأية : ٧ .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ يريد الله ان يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا ﴾ سورة النساء (مدنية ـ ٤) الاية : ٢٨ .

وهذا بالنسبة الى الكوارث الطبيعية التي تحصل بغير تدخل من الانسان او تقصير منه . أما ما يحدث في الطبيعة نتيجة لعمل الانسان نفسه او سلبيته ، او عدم التزام بالقوانين (في عصرنا الحاضر : تلويث البيئة ، مثلاً) أو روح الاستغلال والعدوان في المجتمعات الصناعية ضد العالم الثالث ، مثلاً) . . . هذا النوع من الكوارث يدخل في القسم الثاني التالي :

الثاني ـ ناشىء عن سوء اختيار الانسان ، واستعجاله الخير قبل توفّر شروطه ونضجها ، ومن عدوان بعضه على بعض .

٣ ـ الحقيقة الثالثة هي البشارة من الله تعالى بأن امور الحياة والمجتمع تصير الى افضل واحسن مما عليه في الحاضر . ولكن هذه البشارة لا تتحقق بطريقة اعجازية محضة . ان تحقيق البشارة يتم وفاء بالوعد الالهي ، ومن ثم ففيها عنصر غيبي غير تجريبيّ ، ولكن تحقيقها مشروط بالعمل البشري :

﴿ انّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم اجراً كبيراً ﴾ [١] .

﴿ والذين اجتنبوا الطّاغوت ان يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى ، فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، اولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ [٢] .

﴿ . . . وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾[٣] .

***

من هذا المنطلق الثابت في الفكر الاسلامي ، ومن البشائر المحدّدة في الكتاب الكريم والسنّة النبوية بفرج شامل آت في « النهاية » يملأ عدلا بعدما

---

(١) سورة الاسراء (مكية ـ ١٧) الاية : ٩ .
(٢) سورة الزمر (مكية ـ ٣٩) الاية : ١٧ ـ ١٨ .
(٣) سورة الاحزاب (مدنية ـ ٣٣) الاية : ٤٧ .

ملئت ظلما وجورا » . . . من هذا المنطلق ، ومن هذه البشائر كان امير المؤ منين علي بن ابي طالب عليه السلام يرى نور الأمل في المستقبل ، وكان يبشّر بأن فرجا آتياً لا ريب فيه :

ان حركة التاريخ تقضي به ، وان وعد الله يقضي به ، والله لا يخلف الميعاد .

وقد كانت رؤ ية الامام لحركة التاريخ في المستقبل لا تقتصر على رؤ ية النكبات والكوارث ـ كما توحي بذلك كثرة النصوص الحاكية عن ذلك في نهج البلاغة ـ وانّما تشمل البشائر ايضاً ، وقد تقدم في الحديث عن (المعاناة) وعن (الثورة) بعض النصوص الدالّة على ذلك .

وكانت رؤ ية الامام دقيقة ، محددة ، مضيئة ، واضحة المعالم ، في نطاق الخطوط الكبرى والتيارات الأساسية لحركة التاريخ ، وان لم تشتمل على التفاصيل ، من ذلك هذا الشاهد على رؤ يته لحركة الثورة العادلة التي لا تنطفىء مهما تكالبت عليها الرياح الهوج ، فقد قال له بعض اصحابه ، لما اظفره الله باصحاب الجمل : « وددت ان اخي فلانا كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على اعدائك » فقال له الامام : (ع)

« أهوى اخيك كان معنا [1] ؟ ، فقال : نعم . قال : فقد شهدنا . ولقد شهدنا في عسكرنا هذا اقوام في أصلاب الرجال وارحام النساء سيرعف بهم الزمان [2] ويقوى بهم الايمان » [3] .

***

هذا الأمل الكبير الآتي الذي يبشّر به الامام عليه السلام يتمثل في قيام

---

(١) الهوى : الميل والرغبة ، يعني هنا الموقف السياسي .

(٢) يرعف بهم . . يوجدون في المجتمع من غير ان يتوقع وجودهم لاختلافهم النوعي الاساسي عن الاخلاقية والذهنية السائدة في المجتمع ، فيفاجأ المجتمع بوجودهم ، كما يفاجيء الرعاف صاحبه .

(٣) نهج البلاغة ـ رقم النص : ١٢ .

ثورة عالمية تصحح وضع عالم الاسلام ، ومن ثم وضع العالم كله ، يقودها رجل من اهل البيت هو الامام المهدي . وقد وردت في نهج البلاغة نصوص قليلة نسبياً تحدد بعض ملامح هذا الأمل ، فمن ذلك قوله عليه السلام :

« ... حتى يطلـع الله لكم من يجمعـكم ، ويضـمّ نشركم [1] » [2] .

والعقيدة بالهدى عقيدة اسلامية ثابتة اجمع عليها المسلمـون بأسرهـم ، ودلّ عليها القرآن الكريم في جملة آيات ، والسنّـة الشريفة في مئات الاحاديث المتواترة عن رسول الله (ص) وأئمة اهل البيت . قال ابـن ابـي الحـديد في التعليق على النص الآنف : « ثم يطلع الله لهم من يجمعهم ويضمهم ، يعني من اهل البيت.عليه السلام . وهذا اشارة الى المهـدي الـذي يظهـر في آخـر الوقت . وعند اصحابنا انه غيرموجود الآن وسيوجد ، وعند الامامية انه موجود الآن » [3] .

وقال ابن ابي الحديد في التعليق على نص آخر مماثل للنص الآنف :

« فان قيل : ومن هذا الرجل الموعود الذي قال عليه السلام عنه (بابي ابن خيرة الاماء) ؟ قيل : امّـا الامامية فيزعمون انه امامهم الثاني عشر ، وانه ابن أمة اسمها نرجس ، وامّـا اصحابنا فيزعمون انه فاطمي يولد في مستقبل الزمان لأم ولد [4] وليس بموجود الآن » [5] .

ومن النصوص التي اشتمـل عليهـا نهـج البلاغـة في هذا الشـأن قول الامام :

« ألا وفي غد ـ وسيأتي غد بما لا تعرفون ـ يأخذ الوالي من

---

(١) يضم نشركم : يجمع شتاتكم ويوحد مواقفكم في حركة تاريخيه واحدة .

(٢) نهج البلاغة ـ رقم النص : ١٠٠ .

(٣) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ٩٤/٧ .

(٤) ام ولد : كناية عن الأمة المملوكة .

(٥) المصدر السابق : ٥٩/٧ .

غيرها عمّـالها على مساوىء أعمالها ، وتخرج له الأرض أفالذ كبدها [1] ، وتلقى اليه سلما مقاليدهـا ، فـيريكم كيف عدل السّيرة ، ويحيّ ميت الكتاب والسنّـة » [2] .

هذا الأمل المضيء في الظلمات ليس املا قريباً اذا نظرنا اليه بمنظار آمال الافراد ـ كل واحد بخصوصه ـ فقد يمضي الموت بالافراد دون ان تكتحل عيونهم بفجر هذا الأمل . . . انه بالنسبة اليهم ـ كافراد ـ بعيد . . بعيد . كذلك هو امل بعيد بالنسبة الى كل مجتمع بمفرده وخصوصه ، فقد تمضي القرون على مجتمع دون ان يحقق في نظامه ومؤسساته هذا الامل العظيم . . ولكن هذا الامل على مستوى النوع البشري كله امل قريب ، لان الأحداث التي تغيّر مسار الجنس البشري كله لا تقاس باعمار الافراد او الجماعات او المجتمعات ولا بالحركة التاريخية في هذا النطاق او ذاك او ذيّاك ، وانّما تقاس بما تناسب مع حجم النوع الانساني كله ، ومع حركة التاريخ العالمي كلها . . . ان الف سنة ، مثلاً ، في عمر فرد زمن كبير طويل . . . كذلك الحال بالنسبة الى عمر حركة تاريخية في مجتمع من المجتمعات ، ولكن الف سنة في عمر البشرية كلها زمن قصير بالنسبة الى فترات التحوّل التاريخية الكبرى التي ادخلت تغييراً اساسياً على المسار التاريخي للجنس البشري كله ، فنقلته من مستوى معين الى مستوى اعلى منه مرتبة ونوعية . ان فترات التحوّل التاريخية الكبرى ـ كما نعلم ـ تستغرق الوف السنين ، او ـ بالاحرى ـ عشرات الالوف من السنين . . . انها حركة التاريخ الكبرى [3] .

---

(1) الفلذة : القطعة . والكبد في المعتقد الطبي القديم من اشرف اعضاء الانسان واكثرها اهمية في بقائه وصحته ، فهي تخرج الارض : افضل كنوزها وثرواتها .

(2) نهج البلاغة ـ رقم النص : ١٣٨ .

(3) لعلّ ابن ابي الحديد قد طافت بذهنه هذه الفكرة حين قال معلقاً على احد نصوص نهج البلاغة بهذا الشأن : « ثم وعدهم بقرب الفرج ، فقال : ان تكامل صنائع الله عندكم ، ورؤية ما تأملونه امر قد قرب وقته ، وكانكم به قد حضر وكان ، وهذا (على نمط المواعيد الالهية بقيام الساعة ، فان الكتب المنزلة كلها صرحت بقربها ، وان كانت بعيدة عنا ، لان البعيد في معلوم الله قريب ، وقد قال سبحانه (انهم يرونه بعيداً ونراه قريبا) » شرح نهج البلاغة ٧/ ٩٥ .

وفي انتظار ان تنجز حركة التاريخ الكبرى عملها في نقل الانسانية الى مستوى اعلى لم تفلح في بلوغه من قبل . . في انتظار ذلك تستمر حركة التاريخ في دوائرها الصغرى في العمل على تغيير حال البشر : افراداً ، وجماعات ، ومجتمعات ، ومجموعات اقليمية .

ان حركة التاريخ في دوائرها الصغرى تغيّر الانسان نحو الافضل على الصعيد المادي كما يثبت ذلك الواقع التجريبي ، ولكنها لا تغيره نحو الافضل دائماً على الصعيد المعنوي والاخلاقي ، بل قد تعود به الى الوراء كما يثبت الواقع التجريبي ايضاً ، وبالنسبة الى كثير من مظاهر حضارة عصرنا بشكل خاص .

والمسؤول عن التخلف المعنوي للبشر ليس القدر ، انه ارادة البشر انفسهم ، فان العالم الاخلاقي لدى الفرد والمجتمع ليس عالماً معطى وجاهزاً يأخذه الناس كما يستعملون الوصفات الطبية او المعادلات الرياضية ، وانما يتم بناؤه بالمعاناة اليومية للناس مع شهواتهم ورغائبهم الشريرة ، ومجاهدتهم لانفسهم من اجل التغلب عليها . إن العالم الاخلاقي ليس سهل البناء كالعالم المادي التجريبي ، لانه تجاوز الانسان لنفسه باستمرار نحو انسانية اغنى واعلى ، ومن هنا فان العالم الاخلاقي يبنى بالتعامل مع المستحيل وكأنه ممكن ، انه في التكوين دائماً ، لان الانسان كلما بلغ ذروة جديدة في تكامله المعنوي لاحت لعينيه ذروة اسمى واعلى .

واذن ، فالبشر ، بانتظار ان يتحقق هذا الأمل العظيم ، لا يجوز ان يجمدوا وانما عليهم ان يتحركوا في اطر دوائر التاريخ الصغرى نحو بلوغ ذرى انسانية جديدة اعلى مما بلغوه في كفاحهم الدائب نحو مزيد من الكمال والنور .

واذن ، فالمسلمون ، باعتبار ان هذا الأمل العظيم سيتحقق باذن الله في نطاقهم بما هم جماعة بشرية عقيدية ومن خلال الاسلام نفسه مما هو دينهم ، . . . المسلمون ينتظرون هذا الأمل العظيم قبل غيرهم من الجماعات العقيدية في المجتمع البشري .

وقد ارتكز في اذهان الكثيرين ممّن عالجوا موضوع المهدي والمهدوية ان هذا المعتقد . . . هذا الأمل العظيم الثابت بمقتضى وعد الله في الكتاب والسنّة ، والثابت بمقتضى حركة التاريخ الكبرى . . . ان هذا المعتقد عامل سلبي في حركة التقدم والنمو يعوقها ، ويبعث على السكون ، ويقعد بالناس عن الحركة والسعي نحو التكامل المادي والمعنوي في انتظار أمل آت ينقذ البشر بالمعجزة ، ينقذ البشر بغير جهد البشر .

وربما تكون بعض المظاهر في تاريخ عالم الاسلام تعزز هذا الاتهام ولكن الحقيقة هي ان هذا اللون من الانتظار السلبي المريض دخل على ذهنية الانسان نتيجة لانتكاس حضاري تسلل اليه من بعض الثقافات الاجنبية عن الانسان ، فشلّ قدرته على العمل ، لانه شلّ ارادته وفعاليته وحوّله الى حياة التأمل والقناعة والاستسلام .

أمّا الحقيقة فهي على خلاف ذلك ، ان الانتظار - نتيجة لهذا المعتقد - هو انتظار ايجابي فعّال ، هو تهيؤ واستعداد ، هو كدح دائم ومستمر يجب ان يطبع حركة تاريخ الانسان المسلم نحو توفير افضل الشروط التي تهيء لهذا الامل العظيم احسن ظروف النجاح والتحقق .

لقد رأينا ان حركة التاريخ في دوائرها الصغرى لا تتوقف ، ونوع هذه الحركة - تقدمية صاعدة أو رجعية هابطة (على صعيد المعنويات والاخلاق) - يتوقف على ارادة البشر انفسهم ، فهم الذين يبنون عالمهم الاخلاقي الأمثل وهو لا يبنى الاّ بالعمل الايجابي الذي يحرّكه الطموح نحو انسانية افضل .

***

سلام الله على محمّد وآله الطاهرين ، وصحبه الذين اتبعوه باحسان الى يوم الدين . وسلام الله على اشهر المؤمنين الامام عليّ امير المؤمنين .

والحمد لله رب العالمين .

كيفون ليلة الأحد ٤ شعبان ١٣٩٨

٩ تموز ١٩٧٨

فهرست

الموضوع	الصفحة